



رحلة الحاج المعاصر إلى مكة

عام 1908م

للرحالة البريطاني

أرثر جون وافل

(الحاج علي الزنجباري)

ترجمة: ريم بوزين الدين

تحرير وتعليق: د. أحمد إيبش

روّاد المشرق العربي

رحلة الحاج المعاصر إلى مكة

عام 1908م

للرحالة البريطاني

آرثر جون واثل

(الحاج علي الزنجباري)

ترجمة

ريم بوزين الدين

مراجعة وتحرير

د. أحمد إيش

© هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، دار الكتب الوطنية.
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر.

DS207. W312 2011
Wavell A. J. B. (Arthur John Byng) 1881-1916
[A modern pilgrim in Mecca]

رحلة الحاج المعاصر إلى مكة عام 1908م/ للرحالة البريطاني آرثر جون وافل (الحاج علي الزنجباري)؛
ترجمة: ريم بو زين الدين؛ مراجعة وتحرير: أحمد إيش. ط. 1. - أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث،
دار الكتب الوطنية، 2011.

201 ص. : مص. ، خارطة؛ 24 سم. - (رواد المشرق العربي)
يتضمن مراجع بليوجرافية.

ت د م ك: 8 - 971 - 01 - 9948 - 978

1. Wavell, A. J. B., (Arthur John Byng) -- 1881-1916
2. الحج. 3. مكة المكرمة -- وصف ورحلات. 4. شبه الجزيرة العربية -- وصف ورحلات. أ. بو زين الدين، ريم.
ب. إيش، أحمد. ج. السلسلة. د. العنوان.

ترجمة كتاب: A modern pilgrim in Mecca



أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

© حقوق الطبع محفوظة

دار الكتب الوطنية
هيئة أبوظبي للثقافة والتراث
«المجمع الثقافي»

©National library
Abu Dhabi Authority
For Culture & Heritage
"Cultural Foundation"

الطبعة الأولى: 1432 هـ = 2011م

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة
عن رأي هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (المجمع الثقافي)

أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة
ص. ب. : 2380
publication@adach.ae
www.adach.ae

رحلة الحاج المعاصر إلى مكة
عام 1908م

سلسلة رؤاد المشرق العربي

تقدّم «هيئة أبوظبي للثقافة والتراث» للمكتبة العربية بوجه العموم، ومكتبة تراث جزيرة العرب بوجه الخصوص، باكورة نتاجها من هذه السلسلة الثقافية التراثية تحت عنوان: «رؤاد المشرق العربي». وهي من خلالها تعكس اهتمامها بتراث الآباء والأجداد، كمصدر فخر لشعب الإمارات وإلهامهم وعنوان أصالتهم وهويتهم الوطنية، وذلك من خلال الحرص على جمع كافة المصادر المتعلقة بتراث منطقة الخليج العربي وجزيرة العرب والعالم العربي في آن معاً.

فإذا استعرضنا تاريخ الحركة العلمية بنشر التراث العربي المخطوط، الذي يصل مجموعه إلى قرابة 3 ملايين مخطوطة في مكتبات الشرق والغرب، نجد أنّ جامعاتنا ومعاهدنا العلمية ومؤسساتنا الثقافية على امتداد الوطن العربي، أسهمت بنصيب وافر في خدمة هذا التراث ونشر أصوله، وخاصة خلال القرن العشرين. فتألّفت من خلال ذلك مكتبة تراثية عريقة ثمينة وواسعة للغاية، حفظت تراث لغتنا العربية في مجالات شتى، منها على وجه المثال: الأدب العربي، الشعر، النحو، الحديث الشريف، الفقه، التاريخ، الفلسفة والفكر الإنساني، الفنون، وسائر العلوم عند العرب من فلك وطب وهندسة ورياضيات وصيدلة وكيمياء. ومنها أيضاً الأدب الجغرافي العربي وأدب الرحلات.

وما دُمنا بصدد ذكر تراثنا الجغرافي، فلا بُدّ أن نوّكد على أنّ ثمة تياراً موازياً له، يضارعه ويستقي منه ويتمّمه، يُضفي بالغ الفائدة والمتعة على تراث العروبة، ألا وهو:

أدب رحلات الأوروبيين إلى مشرقنا العربي! هذا المبحث مع الأسف لم يتم التركيز الكافي عليه حتى الآن، رغم ما يستحقّه وما يقدّمه من فوائد لمثّقفي العربيّة ودارسي تراثها وتاريخها الحضاري والسياسي والاجتماعي.

هذه الرّحلات لم تتوقّف أبداً منذ أقدم العصور وإلى انبلاج دعوة الإسلام الحنيف، فطفقت جموع الرّحّالين تتناوب على زيارة المشرق منذ عصر حضارة الإغريق (كرحلة أناباسيس لزينوفون الأثيني، ورحلة هيرودوتوس)، والرّومان (كرحلة إيلْيوس غالوس). ثمّ في القرون الوسطى حلّ الطمع محلّ الفضول، واجتاحت جحافل الغزو اللاتيني مشرقنا الإسلامي في موجة الحملات الصّليبيّة، فمكثت فيه على الشّريط السّاحلي لبلاد الشام مدّة 200 سنة، وحاولت احتلال مصر وتونس لكنّها ارتدّت على أعقابها.

فلما أطلّ القرن السّادس عشر، بدأت مرحلة جديدة في هذه الملحمة الثقافيّة والحضاريّة من علاقات الشرق بالغرب، فتضاعف إلى حدّ كبير عدد الرّحّالين الأوروبيّين، الذين قصدوا المشرق إمّا للتّجارة أو المغامرة أو الاستطلاع، أو لمجرّد الخروج بمؤلّفات إبداعيّة فريدة. أمّا جزيرة العرب، معدن العروبة وأرومة قبائلها، ومهبط الوحي وموئل لغة القرآن الكريم، فلا غرو أنّها نالت من اهتمام رّحّالي الغرب وجهودهم المُضنية ومغامراتهم الشّائقة الشّيء الكثير، عبر خمسة قرون (من القرن السّادس عشر إلى القرن العشرين).. فجابوا بواديها وفيافيها ومجاهلها، ناهيك عن مدنها وبلداتها وقراها ومضارب بدوها.

هذا الإرث الإنساني الثمين والممتع والمفيد، الذي يضمّ المئات من نصوص الرّحلات النّادرة، تقوم «هيئة أبوظبي للثقافة والتّراث» اليوم بنشر باكورة أجزائه بالعربيّة، في مشروع طموح يهدف إلى نشر أكبر عدد منه، وتقديمه للقارئ العربي بأرقى مستوى علمي من التّحقيق والبحث، وأجمل حلّة فنيّة من جودة الطباعة وتقديم الوثائق والخرائط والصّور النّادرة.

هيئة أبوظبي للثقافة والتّراث

هذا الكتاب

الحاج علي الزنجباري ورحلته

إلى الحجاز عام 1908 م

آرثر جون وافل كان أحد الرّحّالين الإنكليز الجريئين الذين قاموا برحلة الحجّ متكرّرين بثياب المسلمين ومتقمّصين شخصياتهم، وإذا استعرضنا أشهر هؤلاء لوجب علينا أن نذكر: جوزف پتس، ريتشارد بُرتون (الحاج عبد الله)، جون فراير كين (الحاج محمّد أمين)، وأخيراً صاحبنا وافل هذا (الحاج علي الزنجباري).. والجدير بالذكر أنه كان آخر إنكليزي يشهد مشاعر الحجّ بأمّ عينيه أواخر أيام الحكم العثماني، الذي وصل إلى نهايته في عام 1918.

هذا بالنسبة إلى الإنكليز، أمّا عن الأوروبيين عموماً فهناك الإيطالي البولونيزي لودوفيكو دي فارتيمّا (الحاج يونس المصري)، والإسباني دومينغو باديا (علي باي العباسي)، والألماني أولريخ ياسپَر زيتسن (الحاج موسى)، والسويسري يوهان لودفيك بوركهارت (الحاج إبراهيم)، والإيطالي جوفاني فيناتي (الحجّي محمّد)، والفرنسي جيل جرفيه كورتيلمون (الحاج عبد الغفار)، والهولندي كريستيان سنوك هورخرونيّه (الحاج عبد الغفار).. وغيرهم.

لم تكن غايات هؤلاء الرّحّالين واحدة، فمنهم من كان يتظاهر في رحلته بالسياحة، ومنهم كان العالم البحّاث، أو المكلف بالاستكشاف والتجسّس، ومنهم الباحث عن الشهرة، أو المغرم بكرائم الخيل العربيّة، أو المغامر لمجرّد المغامرة. ويبلغ عدد هؤلاء

الرحالين الأوروبيين 54 مغامراً دخلوا مكة المكرمة والمدينة المنورة، وعادوا منهما ليكتبوا عن تجربتهم، وكان منهم من أسلم فعلاً وحسّن إسلامه (كما رأينا في سيرة الحاج وليمسون، وسنرى لدى فيناتي)، ومنهم من لم يُسلم لكنه نظر إلى الإسلام بعين الإعجاب والتعاطف والاحترام، وكتب لأبناء وطنه صورة حسنة ووصفاً إيجابياً. ينتمي إلى هذه الزمرة بوركهارت وكورتيلمون، ومنهم أيضاً رحالتنا في هذا الكتاب وافل.

* * *

ولد آرثر جون بينغ وافل عام 1882 وكان ينتمي إلى أسرة ضباط عسكريين، فتابع سيره على خطى أبيه وجدّه وجدّه لأمه، وتخرج من الكلية الحربية، وسرعان ما انضم إلى فصيل ويلز سنة 1900، وأبحر إلى جنوب إفريقيا في السنة ذاتها، فشارك في العمل العسكري قبل أن يتم التاسعة عشرة من عمره.

بعد أن خدم إلى نهاية الحرب في فصيله وفي فصيل الخيالة، عُيّن في عدد من مستعمرات جنوب إفريقيا البريطانية في مواطن سوازيلاند والتونغا وزولو الشمالية ما بين يوليو 1904 وأكتوبر 1905، وشهد من المخاطر ما أصلب عوده وقوى عزيمته. ولما كان في الثالثة والعشرين من العمر قام برحلة في مجاهل الصحراء إلى شلالات فيكتوريا وعاش تجربة ممتعة للغاية، إلى أن وصل إلى منحدرات زامبيزي المائية، فغرق زورقه، وخسر جميع ما يملك.

بعد أن تذوّق وافل حياة المغامرات والاستقلال، أصبح نظام الجيش بالنسبة له مملاً، فترك الخدمة سنة 1906 لبحث عن حياة جديدة في أراضٍ بعيدة. فتوجّه أولاً إلى شرق إفريقيا، لممارسة رياضته المفضلة ألا وهي الصيد. وعندما وجد أن تلك البلاد تفتح بسرعة، ابتاع لنفسه أرضاً في نيالي بالقرب من مومباسا، وراح يمارس التجارة في سيسال، التي أصبحت مركزاً مهماً لتجارة تلك المنطقة. لكنه لمّا وجد أن حياته الرتيبة لا تقدّم له إثارة كافية، خطرت بباله فكرة زيارة مكة، المدينة المحرّمة على الأجانب وعُقر دار الإسلام.

ربّما كانت تلك أخطر المغامرات التي اختار القيام بها في حياته، فالديار المكرّمة في الحجاز كما هو معروف لا يمكن دخولها إلّا لأبناء الدّين الإسلامي، أو لمن أعلنوا إسلامهم. زد على ذلك أنّ المنطقة كانت برمتها في قبضة الدّولة العثمانية، التي دخلت في السنة ذاتها (1908 م) بمنعطف جذري إبان إعلان الدّستور وخلع السلطان عبد الحميد الثاني، وغلبة ضبّاط جمعية الاتحاد والترقي على الحكم. صحيح أنّ العداء الشديد ما بين الأتراك والإنكليز إبان الحرب العالمية الأولى لم يكن قد آن أوانه بعد، ولكنّ فكرة وافل تبقى مخاطرة جسيمة.

برغم ذلك عقد صاحبنا العزم، ورأى أن يقوم بالرحلة متكرّراً بثياب وشخصيّة رجل مسلم، فاتخذ لنفسه اسم «علي الزّنجباري»، على اعتباره أقام لستين في مومباسا قرب ساحل زنجبار الذي يقطنه مسلمون، وكان تعلّم هناك العربية والسّواحليّة. كانت نقطة بداية الرحلة في مرفأ مارسيليا الفرنسي في 23 أغسطس من عام 1908، واصطحب معه مرافقين رئيسيين: شاب زنجباري من مومباسا يدعى مسعودي، وشاب عربي من حلب ترعرع في برلين يدعى عبد الواحد.

تضمّ أخبار هذه الرحلة تفاصيل حيّة شائقة للأحداث والمخاطر والمآزق الطريفة التي عاشها مؤلفنا الشاب (وكان له من العمر 26 عاماً) ودونها بلغته السّردية الشائقة والملتعة، فأجاد فيها في الوصف، وقدم لنا ولأبناء وطنه صورة غاية في الاحترام والإيجابية للإسلام، بجوهره الرّوحي والفكري النبيل، وسموّ فضائله وعباداته المفعمة بالوجدان والخير.. فكان بحق واحداً من خيار مستشرقي الإنكليز في أعقاب العصر الفيكتوري، فذكرنا بمن سبقه من الإنكليز في ذلك وعلى رأسهم ولفريد سكاون بلنت Wilfred Scawen Blunt ووليم مارمادوك بيكثول William Marmaduke Pickthall.

على ذلك كلّّه، تبقى لهذا الكتاب وهذه الرحلة قيمة كبيرة حقّاً، لا من حيث المغامرة والمتعة وحسب، بل ومن حيث كونها جاءت في فترة مفصليّة من العلاقات بين الغرب والمشرق الإسلامي، ثمّ تلتها أحداث أكثر دراماتيكيّة وسيناريوهات حربيّة وسياسيّة بعد 8 أعوام و 12 عاماً.. أعني أولاً اشتباك الإنكليز وقوّات شريف مكّة الحسين ابن

علي مع الأتراك 1916-1918 إبان الحرب العالمية الأولى، ثم قيام الإنكليز والفرنسيين عقب انتصارهم في الحرب باجتياح المشرق العربي تحت مظلة الانتداب، الذي كان غطاءً لاستعمار سياسي بحت.

هذه الأحداث تمخّضت عن أحداث جسيمة، سنرى وقائعها في كتب قادمة في هذه السلسلة، وأفسحت المجال لظهور شخصيات مهمّة من الإنكليز لعبت أدواراً محوريّة في سياسة المنطقة، من أمثال الفيلد مارشال آلبي والكولونيل توماس إدوارد لورنس، ومِس غرتروود بل، والتّسير پرسي كوكس، والجنرال جون باغوت غلوب، وهاري سَنت جون فيلبي وبرترام توماس.

لقد كان هؤلاء نتيجة حتميّة للطموح البريطاني الذي نما وتعاظم إبان العصر الفيكتوري (عصر بالغريث وبيلي وبُرتون ودوتي وبلنت)، هذا الطموح الذي سار في تنافس محموم إلى جانب الطموح الفرنسي فبزه وفاقه، ثم لم ينجح التنافس الألماني العدائي في إيقافه رغم المعارك الطاحنة إبان الحرب العالمية الأولى. لقد كان رُخالو العصر الفيكتوري إرهاباً لهذا الطموح العلمي والسياسي في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، وكان يقود التنافس آنذاك الجمعيات الجغرافيّة في كلّ من لندن وباريس وبرلين.

أمّا تلك الطبقة من الرّحّالين العسكريين والسياسيين والجواسيس التي ازدحم بها مشرقنا العربي في أعقاب الحرب الأولى بعشرينيات القرن العشرين، فكانت مؤهّلة لتقطف ثمار النّصر، ولتحكم سيطرة بلادها الثقافية والسياسيّة والاقتصادية على مشرقنا العربي. وبين هاتين الطبقتين، من عام 1863 إلى 1918 وعشرينيات القرن العشرين، مرّت فترة هدوء مريبة تشبه الهدوء قبل العاصفة، يوم لم يكن أحد يعرف إلّا مَسْئُول إليه أحوال المشرق ومتى يسقط «رجل أوروبا المريض» (الدّولة العثمانيّة)، وكيف ستقتطع دول أوروبا تركتها الثمينة..

في هذه الفترة الحرجة من الهدوء المشوب بالحدّز، جرت الرحلة التي نقدّمها اليوم لقراء العربيّة للمرّة الأولى، وقلّ من سمع بآرثر جون وافل. وسيكون من الممتع

جداً للقارئ مقارنتها برحلة الألمانّة دوروتيا فون لينكه (الكونتيسة مالمينيائي) إلى المدينة المنورة عام 1914، ورحلة البريطاني جون فراير كين إلى مكة والمدينة في عام 1877 وكان عمره 23 عاماً. وأغرب ما في الأمر أن كين ظلّ حياً حتى عام 1937، بينما لقي وافل حتفه شاباً في إفريقيا عام 1916 على يد الألمان.

* * *

صدرت الطبعة الأولى للكتاب بلندن في حياة المؤلف عام 1913، بعد قيامه بالرحلة بخمسة أعوام، وهذه الطبعة تضمّنت قسمين: رحلة الحجّ إلى مكة عام 1908، وحكاية حصار الأتراك لصنعاء في عام 1910. وفي هذه الطبعة بضعة صور فوتوغرافية يروي وافل أنه طلب تصويرها من موظف تركي. وصدر الكتاب عن دار كونستابل للنشر في 345 صفحة بعنوان:

A Pilgrim in Mecca and a Siege in Sanaa

Constable, London, 1913.

ثم في عام 1918، صدرت طبعة أخرى للكتاب، بعد سنتين من وفاة وافل، مصدّرة بمقدمة للميجور داروين Leonard Darwin الرئيس السابق للجمعية الجغرافية الملكية Royal Geographical Society الذي تعرّف بوافل عقب قيامه برحلة حجّه، فأعجب به ودعمه. وهذه الطبعة تقتصر على القسم الأول، الذي يضمّ أخبار رحلة الحجّ التي تمّت في خريف عام 1908، وهو ما نشره اليوم.

نشير هنا إلى أنّ المؤلف قد صدّر كتابه بمقدمة عن نشوء الإسلام، وعن دوره الحضاري قديماً وفي عصر الرحلة، ولا بدّ للإنصاف من أن نقول إنّ كلامه كان ضمن حدود ملائمة جداً من التجرد والإنصاف والموضوعيّة والاحترام. ولما كان يذكر سيّدنا ونبينا محمّداً باسمه المجرد، فيشرّفنا هنا في المقدمة أن نضيف: عليه أفضل الصّلاة وأتمّ التّسليم، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

* * *

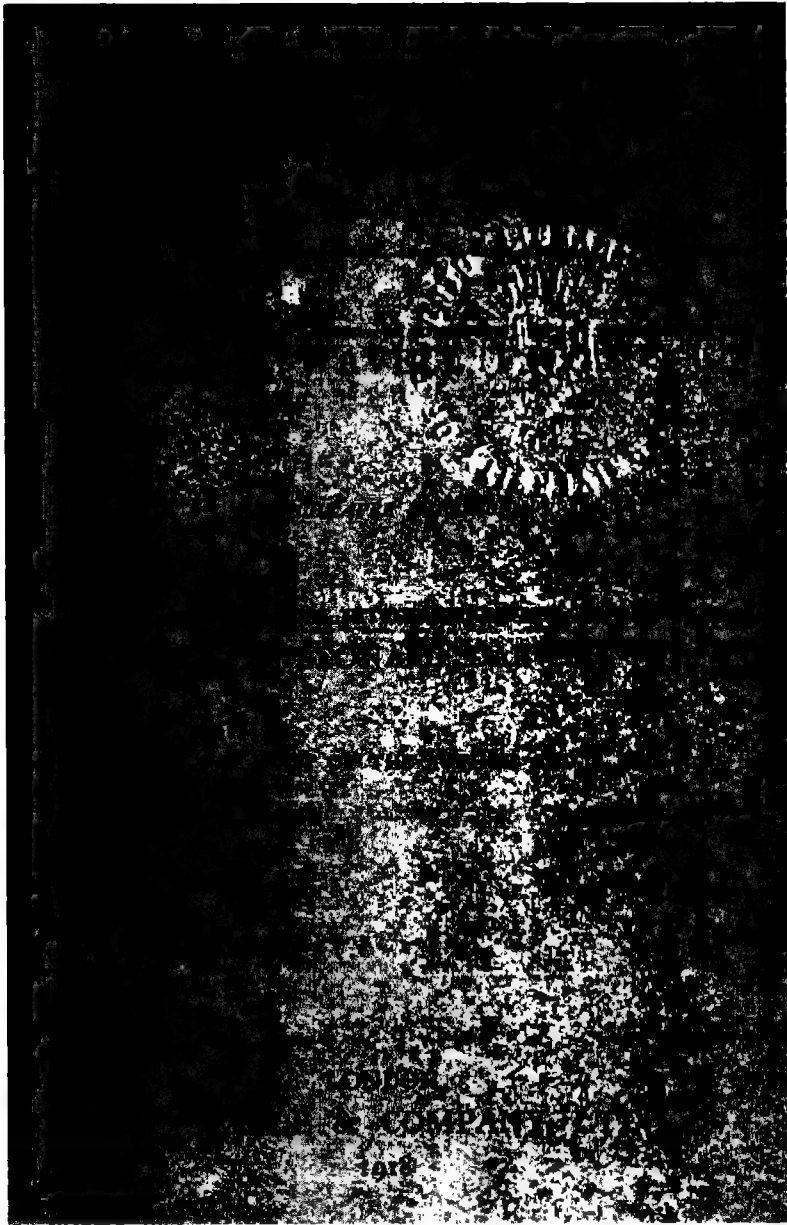
أخيراً، ستكون لنا عودة مع بطلنا الجريء خفيف الظلّ، بأسلوبه السّاحر وأحداثه الغريبة، في حكاية مغامراته الشائقة باليمن عام 1910، استناداً إلى الطبعة الأولى للكتاب.

ولله جلّ وعلا الحمد على ما وفق وأعان.

بيروت، غرة فبراير 2011

د. أحمد إيش

* * *



نموذج عنوان الطبعة الأصلية للكتاب، لندن 1918



الميجور آرثر جون بينغ واثل، دمشق 1908

الميجور آرثر جون بينغ وافل من فرقة عرب وافل

عندما كنتُ رئيساً للجمعية الجغرافية الملكية، طلب أحدهم مقابلتي بغرض اقتراح رحلة استكشافية في مجاهل جزيرة العرب. فدخل غرفتي يافعٌ قد لَوّحتهُ الشمس، مربوع القامة، خفيف الوزن بشكل لافت، وأخذ يناقش اقتراحه للاقتراض من الجمعية لشراء بعض معدّات الرحلات، ببعض من الخجل والقليل من الثقة بالنفس إن اسعفتني الذاكرة جيداً. كان كلما تابع في حديثه، روادتني نفسي أن أُلقي عليه محاضرة حول المهارة المطلوبة لرحلات من هذا الطراز، إلى أن، ولحسن حظي، قال بهدوء، وكأن الكلمات خرجت من فيه قسراً للمناسبة: «لقد دخلتُ مكة والمدينة متنكراً». بعد هذه المقابلة، تابعتُ سيرة آرثر وافل باهتمام بالغ، حيث أني شعرت أنني كنت على اتصال بشخصية فذة.

لم يكن التعرّف على هذا الرّحّالة، الذي ما نشر مذكراته إلا بعد عودته، وسبر أغواره سهلاً حتى من قبل شخص أكبر منه سناً، لقد كان خجولاً وقليل الكلام خصوصاً في اللقاءات العامة. إنما حتى خلال هذه اللقاءات، كانت سرعة بديهته تظهر من حين إلى آخر بقصد منه أو دون قصد. أمّا في محيط من الأصدقاء المقربين وأجواء لطيفة، فقد كان حديثه ممتعاً وذكياً وكان يظهر أشد حماسة في سرد تفاصيل مواجهة الأخطار. من لا يعرفه جيداً يخطئ في وصف ما يتحلّى به، حيث أن بنيته الضعيفة لا تفصح عن قدرته الفائقة على التحمّل. أما بالنسبة لقدراته العقلية فقد كان متمكناً من اللغة العربية، بالإضافة إلى معرفته باللغة الفرنسية المحكية، واللغة الإيطالية واللغة

السّواحليّة. أضف إلى ذلك معرفة فائقة بالطب، وامتلاكه كل تلك الخصائص التي تجعل منه رجل أعمال ثاقب النظر. إنما مع هذا كله، فإن قدراته العقلية النيرة كانت قليلاً ما تظهر إلا أمام من تعرّف عليه عن كثب في تلك البلاد البعيدة.



يتحدّر آرثر جون بينغ واثل، الذي ولد في 27 مايو سنة 1882، من عائلة محاربة. فوالده الجنرال أ. هـ. واثل، خدم إبان شبابه في شبه جزيرة القرم ومن ثم في أكثر من حملة في جنوب إفريقيا، وجده، الجنرال أ. ج. واثل، خدم في شبه الجزيرة وأماكن أخرى. أما من جهة عائلة والدته، السيدة بينغ، فإنه ينحدر من سلالة أدميرال بنفس الاسم إنما بسمعة سيئة. درس واثل في ونشستر وساندهرست، وبعدما انضم إلى فصيل ويلز سنة 1900، أبحر إلى جنوب إفريقيا في السنة ذاتها، فعلى ذلك، وسيراً على خطى والده، فقد شارك في العمل العسكري قبل أن يصبح في التاسعة عشرة من عمره.

بعد أن خدم إلى نهاية الحرب في فصيله وفي فصيل الخيالة، استُخدم واثل في معاناة إرسال التقارير عن عدد من مستعمرات جنوب إفريقيا البريطانية التي لا يُعرف عنها الكثير، ممّا كان برهاناً أنه قد أظهر مقدرة متميّزة. بدأ عمله هذا أولاً بالسفر لمدة ستة أشهر في مواطن سوازيلاند والتونغا وزولو الشمالية، حيث ألّفت تقاريره الجزء المهم لمعلومات المكتب الحربي السريّة عن هذه المناطق. وثمة وثيقة سرّية أخرى له سجّلت نتائج رحلة شاقة وطويلة إلى بلاد غير معروفة في شمال بيكوانالاند، «وقيل عنها رسمياً إنها نمت بنتائج مقبولة». في المدة بين يوليو 1904 ونهاية أكتوبر 1905، كان الميجور يسافر مع أهالي المنطقة فقط، ولم يشاهد أي رجل «أبيض»: فبينما أهمل نتائج هكذا تنقل بين الأهالي على نفسه، لم يكن ليعرّض أهالي جنسه لمخاطر من هذا النوع، حيث كانت هذه المخاطر جسيمة. ففي إحدى المناسبات، حين كان يتنقل في أراض تابعة لقبيلة معادية، تسبّب في تعرّض نجل رئيسها لعقاب أمام العامة، لاعتقاده أن الوسيلة الوحيدة لحماية نفسه وأمته هي في إدهاش كافة أفراد القبيلة

عن طريق الإيمان بقدرة الرجل الأبيض حتى لو كان في الثالثة والعشرين من العمر. بعد هذا العقاب، أصبح الرئيس أكثر ليناً وأكثر مساعدة، وبالفعل، فقد بلغ وافل في تقاريره أنه وجد السكان المحليين «في كل مكان مسالمين»، وهذه حالة استثنائية، إنما تواجه في إفريقيا كثيراً من قبل الذين يعاملون السكان المحليين جيداً (رحلة في مجاهل الصحراء إلى شلالات فيكتوريا دون مواجهات)، وفي الواقع، بالإشارة إلى طبعه المميز، فقد عاش تجربة ممتعة للغاية، إلى أن وصل إلى منحدرات زامبيزي المائية، حيث غرق زورقه، وخسر ما يملك. إنما وبمعجزة تقريباً، طافت ممتلكاته الثمينة، وخرائطه ومدوناته، على الماء وكان سهلاً التقاطها، متضررة من الماء إنما مقروءة. لكن للأسف، لم يُنشر أي مقال عن تلك الرحلات المثيرة والتي قد تكون مثيرة للاهتمام.



بعد أن تذوق وافل حياة المغامرات والاستقلال، أصبح نظام الجيش لا يطاق، ولذا، ترك الخدمة سنة 1906 ليلاحق عملاً أكثر قبولاً له في أراضٍ بعيدة. فتوجه أولاً إلى شرق إفريقيا، لممارسة رياضته المفضلة ألا وهي الصيد. وعندما وجد أن تلك البلاد تفتح بسرعة، ابتاع لنفسه أرضاً في نيالي بالقرب من مومباسا، حيث أصبح من رياديي اقتصاد سيسال، والتي أصبحت مركزاً مهماً لتجارة تلك المنطقة. وهنا، تعلم اللغة العربية، وهنا أيضاً، وجد أن حياته لا تقدّم له إثارة كافية، فقام بتبني فكرة زيارة مكة، المدينة الإسلامية المحرّمة، متنكراً، حيث كانت من أخطر المغامرات التي اختار القيام بها.

إن النجاح الذي توجّ مساعيه سنة 1908 مدوّن في هذا المجلد، والذي هو عمل لا يحتاج إلى مقدّمات. وإذا لم يجد أيّ من قرائه متعة في قراءة أسلوبه الساحر، أو لم يقدّروا ومضات الفكاهة فيه، أو لم يشعروا بدافع لتتبعه في مغامراته، فإني إذن أعجز عن تقديم أيّ مديح لكتابات له لجذب اهتمامهم، ولهذا فلن أقوم بهكذا مقدّمات. في النصف الثاني من هذا العمل، والذي أعيد نشره في هذه السلسلة في تاريخ لاحق، قدّم

وصفاً واضحاً لمحاولة فاشلة سنة 1910 ليتقدّم من صنعاء، التي كانت تحت سيطرة الأتراك حينذاك، إلى المنطقة المحتلة من قبل العرب الذين كانوا يحاربون لاسترجاع حريّتهم من الأتراك المستبّدين، وقد نالوا حريّتهم منذ وقت قريب. وفي هذا المقام أيضاً، فإنّ آية مقدمات أو ملاحظات على الكتاب قد تقلل من الإثارة في مدوناته عن سوء معاملة الأتراك له خلال أسرهِ.



في سنة 1913، سُجّل اسم وافل كملتحق في الاحتياطي الخاص لفرقة السابقة، وعندما بدأت الحرب في السنة التالية، وجد وافل نفسه بعيداً عن موطنه في مزرعته الشرق إفريقية. كانت ردّة فعله الأولى أن يعود إلى إنكلترا للاشتراك في الحرب، إنما لم تكن السلطات المحلية لتسمح له بهذا، حيث أنّ الدّفاع عن مومباسا، نقطة انطلاق ونهاية السكة الحديدية، كان أمراً بالغ الأهمية ويتطلب الاستحواذ على الجنود المدرّبين في المنطقة.

تكوّنت في البلدة فرقة صغيرة من المتطوّعين، ثمّ، وبمبادرة شخصية، قام وافل فوراً بالعمل على تجنيد العرب المحليين، وكان معظمهم من العاملين بنقل الماء. لم يكن وافل أبداً عمياً عن المهمة الخطرة أمام المدافعين، وكأنما مواجهة الصعوبات القادمة أيقظت روحاً مرحة فيه بدلاً من أن تقتلها. لقد كان أمر تكوين هذه الفرقة بالنسبة له أمراً مضحكاً، وبالرغم من كل شيء، فلقد ضحك وافل خلال هذه الفترة أكثر من سنوات خلت، هذا ما أخبر به أصدقاءه. كان أفراد مسلّحين ببنادق قديمة منسية لفترة طويلة في مخزن محلي للجيش. «معظم هذه البنادق كان يطلق النار بشكل لا بأس به، وبالمقابل، فإن كمية منها كانت تنفجر عند الاستعمال». كان هذا سرّاً غير رسمي لتكوين وتسليح «فرقة وافل من العرب»، التسمية التي عُرفت بها الفرقة بداية، ثم طلب وافل لاحقاً أن تسمّى «بنادق العرب».

هذه الفرقة الصغيرة، والتي بدأت بأقل من مئة محارب، استحقّت التقدير بوقت قصير في حرب شرق إفريقيا. في هذه الأثناء، كانت الخطة الألمانية للهجوم تتبلور،

فقد قرّر الألمان التقدم بسرّية بَرّاً بمحاذاة الطريق إلى مومباسا، وفي الحقيقة كانت هذه الطريق من أوحش ما يمكن تصويره، وفي نفس الوقت كانت البلدة تُقصف من البحر. قدّر واقل خطر انتظار الهجوم قرب البلدة حين حصل التهديد، ولذا، ومع مئة رجل أو يزيدون من فرقته المكوّنة من العرب، ومن عدد قليل من الأوروبيين المتطوعين، وبعض أفراد الشرطة المحلية، قام واقل بالتمركز في مارجوريني مقابل سواحل مومباسا، حيث أنّ مومباسا تقع على جزيرة.

وقع الهجوم الألماني على واقل في 25 أغسطس سنة 1914، لعدّة ساعات من قبل قوّة تفوقه عدداً وعتاداً، حيث أنّ الألمان كانوا يمتلكون أسلحة حديثة الصنع حُرمت منها فرقته. حارب رجاله كأنهم كانوا جنوداً طوال حياتهم، وما أدّى إلى هزيمة الألمان في ذلك اليوم كان فشلهم في السيطرة على الموقع الذي تراجعت إليه فرقة واقل. هنا، أصيب واقل في كتفه وتحطم القسم الأعلى من عظام ذراعه بشكل سيّء، أما أسلحته فقد كان عملها مما أثاره من الضحك لدرجة أن جراحه أوشكت أن تنزف من جديد. بالرغم من ذلك، فقد أثبتت فرقته جدارة في العمل، حيث نسمع من واقل أن العدو لم يقاوم وابل الرصاص منهم، لكن عندما تتالت القطع الحديدية الصغيرة كل بضع دقائق، قرّر العدو أن «يرجع إلى دياره».

لقد صدّ واقل هجوماً بمزيج من الشجاعة، والمهارة، والخداع، حيث يُعدّ هذا الهجوم مقارنة بعدد أفرادهِ، قادراً على أن ينهي المعركة بسيطرته على البلدة مدمراً جسر السكة الحديدية الطويل. ليس كثيراً أن يقال إن مسؤولية سلامة مومباسا وقعت على واقل، وعليه وحده.



بعد قضائه حوالي شهرين في المستشفى، وقبيل شفائه، انضم واقل إلى فرقته ثانية، ومُنح لقب ميجور (رائد) تقديراً له على خدماته. لا غرو أنه كان يؤدّ العودة إلى فرقته ورجاله، فقد كان حائزاً على جزيل الحب والاحترام، حيث اجتمعت عدّه ظروف لتعطيه تأثيراً كبيراً على جنوده المسلمين، من ضمنها إلمامه باللغة العربية، وشجاعته

وسجاياء، ورحلته إلى مكة المكرمة. وبالرغم من أن ذراعه لا زالت عديمة النفع بعد الإصابة، فإن الوطن لا يستطيع الاستغناء عن خدمات أمثاله من القادة. فأعطي واثقاً مركزاً قيادياً في مويله Mwele، استُحدث لحراسة خمسين ميلاً من السكة الحديدية في أوغندا، وهنا كان ولعدة أشهر على الجبهة الأمامية مع العدو، الذي كان يشن هجومات متوالية على وسيلة التنقل الهامة هذه.

في يناير 1916، وصل تقرير بأن فرقة من الألمان وصلت إلى نقطة تبعد ثمانية أميال من مركزه، وفي اليوم التالي، الثامن من يناير، انطلق واثقاً مع ثمانية رجال لسبر غورها أو للهجوم عليها، بحسب مقتضى الحاجة. فما فتئت فرقته أن أصبحت تحت وابل كثيف من النيران من قوّة معادية مختبئة في دغل، ولسوء حظه، فجرت إحدى الرصاصات الأوليات صندوقاً من القنابل كان قريباً منه فأصيب في ساقه ووقع. لكنه سرعان ما انتصب قائماً وبدأ بإطلاق النار من بندقيته خفيفة الوزن بذراعه السليمة، لكنه أصيب في صدره وقُتل، فاضطرت فرقته إلى أن تتقهقر، ودُفن واثقاً هناك، قريباً من الألمان، الذين وضعوا صليباً على قبره وكتابة تقول: «هنا يرقد ضابط شجاع قدّم عملاً رائعاً منذ بداية الحرب».

هنا انتهت حياة بأقل من أربع وثلاثين عاماً. حياة، لو استمرت، لكانت مهمّة لوطننا، حيث أنه كان رجلاً من بتائي الإمبراطوريات.

1918 ليونارد داروين



من مقدمة الكاتب إلى الانطباع الأول

قد تُعدّ الرّحلة من مكة إلى المدينة تجربة غير اعتيادية، خصوصاً أنه قد مرّت سنون كثيرة منذ أن تحدّث رجل إنكليزي عن تطفله على تلك المناطق.

ليس باستطاعتي إعطاء قيمة علمية لهذا العمل، سوى اعتباره عملاً تمهيدياً.

أما من حيث كتابة الكلمات العربية، فإنني لم أتبع أية طريقة معروفة. يبدو لي أن تعلّم الاستعمال الصحيح للهجات والعلامات المميزة مصدر عناء أكثر من تعلّم الحروف العربية نفسها. لذا، وفي حالة أسماء العلم، التزمتُ بالتهجئة المتبعة، ولل كلمات الأخرى، حاولتُ أن أعرض الأصوات الصحيحة بقدر المستطاع بالأحرف الإنكليزية. والنتيجة - كما أعترف بها - ليست مرضية، والتطابق ليس تاماً دائماً. إنما من المفيد هنا توضيح الحاجة إلى وسائل جديدة في هذا المضمّار. لقد قمت بأفضل ما عندي في إدراج أقل عدد ممكن من الكلمات العربية في النصّ، وحاولتُ تجنّب العادة المزعجة في قولبة العبارات الاصطلاحية الشرقية بكلمات إنكليزية.

إنني مدين لكتاب السيد د. ج. هوغارث، «ارتياذ جزيرة العرب» للكثير من المعلومات الجغرافية، وأما بخصوص الحقائق التاريخية فأندي مدين لكتاب الپروفيسور د. مرغوليوث «محمّد»، وكتاب «محمّد وخلفائه» لواشنطن إرفينغ، ولكثير من الكتاب العرب.

أ. ج. ب. و.

رحلة حديثة إلى مكة

مقدمة

إنه لمن الواجب تقديم الاعتذار في مقام كتاب من هذا النوع يبحث في جغرافية جزيرة العرب والأقوام الذين يتبعون أحد الأديان الأكثر انتشاراً في العالم، حيث أن حثيات الاثنين تعتبر معرفة عامة. إنما، ومن خبرتي الخاصة، أعتبر أن الأمر ليس كذلك، وحيث أن فهماً عاماً لهذه المسائل ما برح ضرورياً لأي اهتمام قد تؤدي إليه هذه التجارب، فإني أفسح بعضاً من المجال هنا لإطلاع قرائي الذين لم يجدوا وقتاً لدراسة مواضيع تتعلق بالشرق.

إن جهلنا بجزيرة العرب قد يُعزى إلى ندرة الأدب المكتوب في هذا الموضوع، وخصوصاً في الأدب الإنكليزي. ولا تُعدّ هذه الندرة مستغربة، فعندما ننظر في شخصية جزيرة العرب وسكانها. بالرغم من أنّ مساحة شبه الجزيرة تقارب مليوناً ونيّفاً من الأميال المربعة، أي بمعنى آخر، بالرغم من أنها أكبر مساحة من الهند جنوباً، فإنها تحوي على خمس من المدن الداخلية الأكثر أهلية بتسمية مدينة. هذه المدن هي، بحسب أهميتها: مكة، المدينة، صنعاء، حائل، الرياض. أما حائل والرياض فإنهما تسميان مدينتين لأنهما عاصمتان للحاضرة. وبالإمكان تعداد الزائرين الأوروبيين لجميع هذه المدن بغير صعوبة.

ومن نافل القول: أولاً، قطع الشك بزيارة أيّ مسيحي مجاهر بمسيحيته لمكة أو للمدينة المنورة منذ عصر النبي. إن الأوروبيين الذين دخلوا مكة خلال مئات السنين

الماضية لا يتعدّون الاثني عشر⁽¹⁾، وأربعة منهم، بما فيهم الكاتب، كانوا من الإنكليز. أما زائرو المدينة المنورة فإنّ عددهم أقل من ذلك. إن المسافرين إلى تلك الأماكن قد قاموا برحلاتهم تحت غطاء إحدى طريقتين: الأولى إشهار إسلامهم علناً، والثانية بالتنكر. أما بالنسبة للطريقة الأولى، فإن عدداً من الغربيين الذين أشهروا إسلامهم قد قاموا برحلة الحج هذه دون شك، وعلى الأرجح أن العديد من الأوروبيين الملحقين في الخدمة في مصر، والذين ارتدّوا عن المسيحية، وجدوا طريقهم إلى هناك في عهد احتلال محمّد علي باشا للحجاز، إنما لم يسجل أي منهم تجربته تلك⁽²⁾.

إن أول وصف دقيق لمكة مدوّن بلغة أوروبية هو للمدعو «علي باي»، إسباني الجنسية، في سنة 1807. أما الرحالة السويسري المعروف بوركهارت، والذي عُدّ مسلماً حقيقياً من خلال إقامته الطويلة في الشرق، فقد ذهب إلى مكة في 1814 وترك لنا بياناً علمياً مفصلاً لرحلته. وتبع بوركهارت عام 1853 السيد ريتشارد بُرتون، والذي قام بتلك الرحلة متكرراً بزيّ طبيب هندي، ومن ثم كين، إنكليزي آخر، عام 1877.

وفي عام 1885، قضى الطبيب الهولندي هورخرونيّه عدّة أشهر في مكة خارج موسم الحج. إن كتابه، العمل الأكثر شمولاً في هذا الموضوع الذي بين أيدينا، مكتوب باللغة الألمانية، وللأسف لم تتم ترجمته. وقائمة الزوّار إلى صنعاء تضم عدداً أكبر، إنما قد لا يتعدّى العشرين، بينما ليس هناك أكثر من ستة أوروبيين قد رأوا حائل في العصر الحديث، واثان فقط وصلا إلى الرياض، وهما بالغريف سنة 1863، والجنرال بيلي

(1) كتب المؤلف: هذا الكلام يستثني الأوروبيين المسلمين، مثل الألبان والروس، وأيضاً معتنقي الإسلام، وعددهم غير مؤكد. ولا يتضمن العدد أولئك الذي أجبروا على التواجد هناك كأسرى، وكمثال على ذلك السيدة الانكليزية التي وجدها «كين»، ولا البعض الذين يُعتقد أنهم هلكوا هناك.

(2) معنى ذلك أن وائل لم يدر بالإيطالي جوفاني فيناتي Giovanni Finati (الحجّي محمّد)، الذي أسلم ورافق قوّات طوسون باشا في عسير والحجاز عام 1811. وقد دوّن فيناتي أخبار مغامراته ثم نشرت بالإنكليزية في جزئين:

Narrative of the Life and Adventures of Giovanni Finati, edited by William John Banks, London, 1830.

بناء على ما سبق، يكون من المفهوم لم يقيت هذه الأماكن غير معروفة إلى العالم مع أنها وصفت، ووصفت جيّداً من قبل الرّحّالين الغربيين من عدّة جنسيات. إن جزيرة العرب، بالرغم من قربها من أوروبا، تُعدّ نسبياً غير مكتشفة، حتى من وجهة نظر جغرافية، والقليل من الأخبار المتعلقة بما يحصل هناك، حتى في الأجزاء الأكثر تمدناً، تجد طريقها إلى الظهور في الصحافة الأوروبية.

* * *

إن الشكل الطبيعي العام لشبه الجزيرة يبيّن بوضوح عند وصفها بأنها منبسطة مستطيل الشكل، مع بعض التواء عند زاويتها الجنوبيّة الغربية. ساعدت الأحوال الجوية على تفتيت التواء ونشره فوق باقي شبه الجزيرة. إن تواجد هذه المرتفعات يساعد أيضاً على ترسّب للرطوبة التي تحملها الرياح الموسمية الجنوبيّة الغربية من المحيط الهندي في غير أوانه، مقارنة مع الوسط شحيح المطر. وثمة سلسلة جبال حقيقية واحدة، بحسب معرفتنا إلى الآن، وهي «الجبل الأخضر» في عُمان، حيث أن الهضاب الجبلية في الجنوب الغربي لشبه الجزيرة هي معرّد الحافة المكسورة للمنبسطة. أما المجاري المائية الرئيسة، والتي تتّجه، كقاعدة، باتجاه شمالي شرقي نحو الخليج العربي، فهي معرّد قيعان للسيول لا تتضمن مياهاً دائمة فوق الأرض، بالرغم من أنّ الكثير منها تمدّ السكّان الحَضَر بمحاذاتها على مياه كافية بشكل أو بآخر عن طريق آبار غائرة فيها.

وكما قد يكون متوقعاً، وتحت هذه الظروف، فإن معظم هذه الأرض عبارة عن صحراء. وفي الواقع، هناك عدة أنواع من الصحارى في جزيرة العرب، تتفاوت نسبة الجفاف فيها. فمثلاً، صحراء التّفود، وبسبب شحّ الماء، لا تجد فيها مجموعات سكّانية مستقرّة، لكنها ليست جذباء تماماً، بل تتيح مراعي للقطعان في بعض المواسم

(1) بل الأصح في عام 1865، ولقد قمت بترجمة كتابه *A Journey to Riyadh*، وصدر في هذه السلسلة «رؤاى المشرق العربي» عام 2010.

خلال السنة. وهناك صحارى من الحمم البركانية، وصحارى جبلية وأخيراً «الرّبع الخالي» كما يسميه العرب، الذي يمتد على كامل القطاع الجنوبي الأوسط. نعرف القليل أو لا شيء عن الرّبع الخالي، فهو غير مستكشف⁽¹⁾، وحتى الجغرافيون العرب صامتون إزاءه، ممّا يدعو إلى الافتراض أنه قفر منيع من الرّمال، إنما قد يتواجد فيه جبال وبحيرات أو حتّى مُدن إلى أن يثبت العكس. يمتدّ الربع الخالي ثمانمئة ميلاً، ممّا يسمح بتكهّئات مثل هذه، حتى لو كانت بعيدة الاحتمال.

إن الصّحارى في جزيرة العرب متشرة على مساحات واسعة، تتخللها مناطق بظروف أفضل باستطاعتها أن تعيل البدو الرّحّل وفي حالات نادرة، تسمح باستقرار مجموعات سكانية. إن الزاوية الجنوبية الغربية المرتفعة مرتوية جيّداً وخصبة عموماً. أما الوادي الكبير في حضرموت، الذي هو امتداد لهذه الزاوية وينتهي عند بحر العرب، فهو مكتظّ بالسكّان على نحو مقبول. والوديان التي تنتهي إلى الخليج مأهولة في مناطق منفردة. ولا غرو أن تجد الواحات في تلك الصّحارى ما عدا في الصحراء الجنوبية الكبيرة.

بالنظر إلى تساقط الأمطار، فإن الحدود الغربية وعمّان هي أكثر المناطق المُنعم عليها. فالحدود الغربية تستقي كل ما تحتاج إليه، لكنها تفتقد هذه النعمة كلّما اتجهت شمالاً، فتصبح الأرض جديباء. أما في الحجاز، فلا تتوافر الخصوبة كثيراً خلا بعض الواحات القليلة، كما في الطائف والمدينة. ويُعزى توافر المياه في عُمان بالمقارنة إلى

(1) طالما أن هذا الكلام كان قبل عام 1916، فمن الصحيح أن الرّبع الخالي كان ما يزال آنذاك في حكم المجهول بالنسبة إلى الرّحّالين. لكن هذه الغاية والمغامرة العظيمة لبثت تتردّد في أذهان رّحّالي الإنكليز كافة، إلى أن تمكّن منها في النهاية المغامر الجسور برترام توماس Bertram Thomas الذي كان وزيراً لدى سلطان عُمان، فتوجّه إلى ظفار عام 1928 ثم اجتاز الرّبع الخالي عام 1930. ودوّن وقائع رحلته هذ في كتاب نفيس له بعنوان: *Arabia Felix* (قمت بترجمته لهذه السلسلة). تلاه هاري سنت جون فيلبي Harry St. John Philby في عام 1932، ثم ولفريد ثيسجر Wilfred Thesiger الذي اجتازه مراراً بين 1946-1948، فكان بحق آخر جيل رّحّالي أوروبا الأصليين في جزيرة العرب (توفي مؤخراً 2005).

سلسلة جبال شامخة تتكوّن من صخور بركانيّة، وما عدا ذلك، فإن السواحل الجنوبية والشرقية جافة وقاحلة.



بالانتقال من الدراسة الطبيعية إلى الجغرافية السياسية لشبه الجزيرة، نلاحظ أن البلاد المحاذية للساحل تدار أعمالها أو بالأحرى هي «محميّة» من قبل القوى الأوروبية، بينما تبقى المجتمعات في المناطق الوسطى مستقلة. أما ساحل البحر الأحمر بكامله وما خلفه، فيشتمل على أقاليم عثمانية ثلاثة: الحجاز، وعسير، واليمن. وتتبنّى بريطانيا العظمى شبه جزيرة عدّ، وتحمي منطقة صغيرة من البرّ الرئيسي بالإضافة إلى بعض المدن الأخرى على الساحل الجنوبي. وتُعدّ مسقط سلطنة مستقلة بهيمنة بريطانية. وتعود السلطة في ساحل الخليج إلى شيوخ القبائل المتصالحة، ومنهم من توصّل إلى ترتيبات مع حكومة الهند، وآخرون في الشمال يعترفون بالسيادة التركية.

إنّ حائل والرياض عاصمتان لدولتين عربيّتين مستقلّتين تفصلهما صحراء نجد، وهي القسم الأوسط المأهول في جزيرة العرب. وهما إمارتان، تدينان بالمذهب الوهابي⁽¹⁾، الذي سيُفصّل بشأنه لاحقاً، وهما في حالة حرب مستمرة. تبنّت الحكومة العثمانيّة حماية هذه البلاد على أساس مقاربة السلطان إلى الخليفة. ولذا، فإنّ سلطان تركية، كونه «أميراً للمؤمنين»، يستطيع المطالبة بولاء المسلمين له، والقبول الذي قد يلاقه في الهند أو بلاد فارس يعادل ما يلقاه في أيّ جزء من صحراء نجد.

إنّ سكّان شبه الجزيرة ينتمون إلى العرق السّامي، بمعنى آخر، هم من نفس عرق اليهود، والذين يشبهونهم في كثير من النواحي.

كتب أحد الأدباء العرب عنهم ما يلي: «تاريخ هذا العرق من أغمض ما يكون، لكنهم مصنّفون في ثلاثة اقسام: العرب البائدة، والعرب العاربة، والعرب المُستعربة.

(1) هكذا كتب المؤلّف، والتسمية الصحيحة: حركة الإصلاح السّلفي، التي هي على المذهب السّنيّ الحنبلي، ومؤسسها الشيخ محمّد بن عبد الوهاب.

أما البائدة فهم الأقدم، ويُعرف عنهم القليل، مثل قوم عاد وثمود وجرهم الأولى. والعاربة، وهم العرب الحقيقيون، فهم أهل اليمن، أي بنو قحطان. والمستعربة، أو العرب بالتبني، فهم ذرية إسماعيل بن إبراهيم، حيث اتصل بجرهم الثانية من بني قحطان وتزوج من تلك القبيلة. تسمى ذريته بالعرب المتبنين، لأن إسماعيل كان يهودي الأصل واللغة⁽¹⁾. ومن العاربة والمستعربة، انحدرت قبائل العرب المعروفة في يومنا هذا».

كان يقطان Jocktan (أي قحطان) ابناً لعابر بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح. وقد قيل إنه أول من تكلم اللغة العربية.

إن اللغتين العربية والعبرية متقاربتان، وهما المثال الحي الوحيد للمجموعة اللغوية التي تنتمي إليها الكلدانية والسريانية ولغات ميّنة أخرى. يتوزع العرب إلى قبائل، وهم بالأصل بدو رُحّل. والعرق العربي يتمتع بجمال فطري، وقوام صغير ونحيل القامة، يتراوح من الشُمرة إلى البياض. إن هذه صفات قبائل البدو في نجد والحجاز، ولا نتكلم هنا عن المجموعات السكانية المستقرّة في الجنوب الغربي والمتواجدة في المدن، وليس أيضاً عن المصريين، أو المغاربة، أو السريان أو غيرهم، والذين يُطلق عليهم أيضاً لقب العرب. إن العربيّ الأصيل يمتلك ملامح معقوفة بحدة، سبط الشعر أسوده، وتقريباً أمرد الوجه⁽²⁾. لقد صُوّر العربي عموماً كرجل شديد الشُمرة طويل مهيب المظهر ومُلتح، لكن هذا وصف خاطئ.

(1) هذا الشائع لدى المؤلف وقومه بحسب مزاعم التّوراة، لكن ما هو مقبول لدينا ومُثبت يخالف ذلك تماماً. ومن غير المقبول على الإطلاق عدّ اليهود أصلاً لسلائل ما يسمّى زوراً بتعبير: «الشعوب السامية»، والأسخف منه عدّ اللغة العبرية سابقة لسواها، فالواقع أنها ليست أكثر من لهجة كنعانية، تمّ فيما بعد إثراؤها بلغة كنعان المنتشرة على طول ساحل بلاد الشام وبلغة آرام المنتشرة في السهول الدّاخلية، لكن قريباتها اللهجات العربية الجنوبيّة والشمالية (التي أفرزت العربية) تبقى أرقى وأوسع وأشمل وأغنى تعبيراً ونحواً ومُفردات، بما لا يُقاس أبداً.

(2) من الواضح أن المعطيات الأنثروبولوجية لدى المؤلف ضعيفة، وخير من استوفى دراستها علمياً كان الرّحالة البريطاني برترام توماس، كما سنرى في كتابه الشائق: *Arabia Felix*.

إن هذين العرقين، العرب واليهود، بقدر تشابههما في المظهر والفكر، يختلفان كثيراً في أخلاقيتهما. فلقد أظهر العرب في الماضي قدرة ليس فقط على شنّ الحروب على نطاق واسع، بل على إدارة وتحضير البلاد المفتوحة. لقد بنوا لأنفسهم إمبراطورية أكبر من إمبراطورية روما، إنما عمّرت لفترة أقصر. لقد فرضوا لغتهم ودينهم على قسم كبير من سكّان العالم. أما بالنسبة للاقتصاد فإن أعمالهم وكفاءتهم التجارية متواضعة، وهم لا يوصفون بالمبذرين. وبالنسبة لشمائلهم الشخصية فإنهم شجعان، دُعاة ذوو صلابة، صادقون بحسب عوائدهم الخاصة، ويحفظون وعودهم عند إعطائها. كما أنّهم معروفون بضيافتهم وشهامتهم في حماية الغريب.



إنّ ما سبق، باختصار، هو مواصفات البدو، أيّ عرب الصحراء الحقيقيين. أما في المناطق العامرة في شبه الجزيرة، وفي الحاضرة، فقد تواضعت هذه الخصال مع الاحتكاك بأعراق أخرى. إن نظام الرقّ، مع العلم بالاعتراف بشرعية ذرية الحرّ من الأئمة، هو المسؤول عموماً عن هذا. فعلى سبيل المثال، لدى جميع العرب في مَسَقَط سلالة ذات أصول إفريقية، وليس نادراً أن تجد أفراداً يدّعون صلتهم بالنبي إنما يكونون من العرق الأسود. وفي المدينة، أيضاً، تزوج مستمرّ مع الأتراك والأكراد والعجم ممّا طمس المعالم السّامية الأصلية، إلى أن أصبح السكّان ينتمون إلى العرب في اللغة والعادات فقط. أما في اليمن، فإن السكان كانوا من الحضّر المستقرّين مكرّسين أعمالهم للزراعة، مقارنةً مع البدو الرُحّل الذين سبق وصفهم. تركت غزوات الأعاجم والأحباش أثرها على السكّان حيث ترى السكّان الآن عرباً بالاسم فحسب، ولا يشاركون البدو في خصالهم. فتحتوي لغتهم على الكثير من الكلمات الدخيلة التي تتناسب مع نحو اللغة إنما ضاع أصلها.

إن تاريخ جزيرة العرب قبل الإسلام سيترك للبحث لاحقاً. وسيتذكر القراء أن ملكة سبأ انحدرت من هناك. وتقع عاصمة مملكة سبأ «مأرب» غير بعيد عن مدينة صنعاء الحالية. وتعود العرب أن يفاخروا بعدم خضوعهم لأي حكم خارجي. مبدئياً،

هذا الكلام صحيح، حيث أنه على الرغم من كون هذه المنطقة قد واجهت الكثير من الغزوات، فكل احتلال خارجي للمناطق الداخلية كان مؤقتاً. لقد أرسل الإمبراطور الروماني «أوغسطس» حملة بقيادة إليوس غالوس تحت الاعتقاد الخاطيء بأن جزيرة العرب بلاد غنية تستحق الاستيلاء عليها. ولكن كل الذي قدر عليه إليوس غالوس كان برهنة العكس. إن اعتقاد الرومان الخاطيء يُعزى إلى الثروات التي وصلت إلى الموانئ العربية من الشرق الأدنى، تحت الاعتقاد بأنها آتية من البلاد العربية نفسها. إن وصف القائد لهذه البلاد وسكانها بعد عودته لم يكن ليشجع أية مغامرات أخرى من هذا النوع.

باستطاعتنا القول كخلاصة إنه في بداية القرن السابع، كان يُنظر إلى جزيرة العرب، في الأوساط الرسمية لبيزنطة، كما يُنظر إلى الصومال في «وايتهول». بلاد بغیضة محفوفة بالمخاطر، متميزة بعقمها الشديد، ومأهولة بمجموعة من قبائل همجية بغیضة على حدّ سواء، ومن الأفضل تركها وحدها. لم يتوقع أحداً ما كان ينضج في الخفاء، ولم يتنبأ أحد بالأحداث التي وقعت في مدينة منعزلة هناك، ممّا أدى إلى الانفجار الذي أطاح بالإمبراطورية الرومانية، وفرض ديناً غريباً وحضارة جديدة على الجزء الأكبر من العالم المأهول المعروف في ذلك الوقت.



ولد النبي محمد في مكة سنة 569 بعد الميلاد. وكانت قبيلة قريش التي تنتمي إليها عائلته، سيّدة على باقي القبائل في تلك المدينة، وكانت تُعدّ ذات سيادة في أصلها وعاداتها الشريفة. أما والداه فكانا فقيرين ولم يكن لهما كبير شأن. رُبي محمد يتيماً منذ صغره في بيت عمّه أبي طالب، الذي كان رجلاً كريماً مقتدرًا ذا مكانة وابن سادن الكعبة في مكة. إنما أهمل تعليمه، بعكس ابن عمّه عليّ بن أبي طالب، فنشأ أمياً لا يقرأ ولا يكتب. تعرّف محمد في شبابه إلى خديجة، وكانت أرملة غنية أكبر منه سنّاً، فأوكلت إليه قيادة قافلته التجارية إلى الشام، وعند عودته تزوّج منها. حتى هنا، لا ترى في التاريخ أمراً جديراً بالملاحظة أكثر من هذا.

في سنّ الخامسة والعشرين، وجد محمد نفسه غير مضطرّ للعمل لإعالة نفسه، فتوجّه إلى العمل في السياسة والتعمّق بأمر ذات اهتمامات روحانية. كانت زوجته متفانية له، وقد عاش معها لعدد من السنين في سعادة ورضاً كأَيّ رجل آخر دُمّت الأخلاق ودون طموحات تذكر. رُزق الزوجان ابناً أسمىاه القاسم توفي في المهد، وأربع بنات أخصّهنّ فاطمة.

لم تكن مكّة في ذلك الوقت مدينة تجارية ذات أهمية، إنما كانت مركزاً لعبادة الأوثان المنتشرة في جزيرة العرب. وكانت مواكب الحجّاج تتوافد إلى المدينة لزيارة المعبد المعروف باسم الكعبة، والتي يحيط بها ثلاثمئة وستون وثناً، وثن لكل يوم من أيام السنة. وكان يقام هناك سنوياً سوق، حيث يعرض التجار بضائعهم المختلفة. وكان من بين التجار يهود ومسيحيون، يستحبّون الدخول في مناقشات أسس العقيدة المسيحية المنافسة مع أيّ كان يهتم بمناقشة هذه المسائل. وكان محمد أحد المهتمّين بهذه الأمور، وكان لديه المجال الكافي لذلك. ولا شكّ أنه اكتسب الكثير من الفلسفة والمعرفة عن العالم الخارجي ظهرت أهميّتهما فيما بعد. وقد أبدى أيضاً حساسية بالغة وميلاً كبيراً إلى الزُهد، فقد كان يميل إلى الانفراد بنفسه عن المجتمع الإنساني لأيّام طويلة بهدف التأمل في فكرة أثارت اهتمامه.

في سنّ الأربعين بدأ محمد يرى رؤى، تأخذ التّمتّ ذاته مرة بعد الأخرى. فقد كان ملاك يظهر له ويُملي عليه فقرات من كتاب أعلمه بأن عليه ينشره على العالم أجمع. كانت آيات الوحي الأوليات نثراً مقفياً خاصّاً باللغة العربية، أما جمال هذه الآيات وقوّتها فقليلاً ما تطرّق إليه نقد حتى من قبل الدّ أعداء الدّين الذي دعا إليه محمد.

أفضى محمد بمكنونات هذه الحادثة إلى زوجته وطلب نصيحتهما. فاستبدّ القلق بخديجة عليه بطبيعة الأمر، ولكنها مع ذلك وقفت إلى جانبه ودعمته بكل ما أمكنها كزوجة صالحة وفية.

استمرّت الرؤى وأصبحت أكثر إلحاحاً. فاطمأنت نفس محمد إليها، وأعلن على الملأ العقيدة الرائعة التي مفادها: لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

من البديهي أن خديجة كانت أولى المؤمنين به، وسرعان ما لحقها آخرون، كان عليّ من أوائلهم. ولم يُد أبو طالب أيّ اعتراض، وكان واضحاً أنه تغاضى عن خروج ابن أخيه عن دين مكّة ولم يمانعه، وكذلك كان موقف الكثير من أهل مكّة الذين كان محمّد محبوباً بينهم.

اكتسب الدين الجديد أتباعاً بأعداد هددت نفوذاً راسخاً. كانت مكّة تعتمد في ازدهارها على مواسم الحجّ إلى المعبد، ومن الواضح، أنه إذا تمّ السماح لشريحة كبيرة من الناس، ليس فقط للهزء بعقيدة قائمة، بل أيضاً بضمّ أتباع لهم، فإن هذا الازدهار سيتأثر سلباً. ومع أن أهل مكّة لم يكونوا بأيّ حال من الأحوال متعصّبين لعقيدتهم، فإن هذا الحال فرض عليهم حماية مصالحهم المادية. هكذا كان الرأي في ذلك الوقت على أيّ حال.

لما كان وجود أحدهم غير مرغوب فيه لدى العامة في جزيرة العرب، كان يُقتل. لكن لم يكن أهل مكّة من محبّذي هذه الطريقة البسيطة في التعامل مع هكذا مسألة، لأن قتل محمّد سيتسبّب في صراع دموي بين قومه، بني هاشم، وقوم من يقتله. كان بنو هاشم ذوي سلطة وسيادة في ذلك الوقت، وأبو طالب، الذي يحبّ ابن أخيه حباً جمّاً، لم يكن بالرجل الذي تسهل مخالفته. ولذا فقد سُمح لمحمّد أن يتابع وعظه لعدّة سنين تقريباً دون التعرّض له، وما أيقظ أهل مكّة إلى خطر محمّد عليهم كان ردّة بعض مواطنيهم عن عقيدتهم، ممّا اضطرهم إلى اعتماد أساليب رادعة. تمّ الاتفاق على اشتراك جميع قبائل مكّة في قتل محمّد بممثل عن كلّ منها تجنباً لحرب أهلية، طبعاً مع استبعاد بني هاشم.

لكن محمّداً علم بأمر هذه التدابير وهرب إلى المدينة، حيث لحقه بعد فترة من الزمن معظم مريديه. أما أهل المدينة، التي تبعد ثلاثمئة ميل شمالي مكّة على طريق الشام، فقد أظهروا استعدادهم لتقبّل تعاليم محمّد. كانت ظروف هروبه مؤثرة، ويعزى نجاح هذا الهروب إلى عليّ بن أبي طالب الشاب ذي التسعة عشر ربيعاً، الذي ناب مكان محمّد في منزله بانتظار أعدائه. وخلال هذه الرحلة، وقعت معجزة العنكبوت

التي نسجت بيتها على فم الغار الذي اختبأ فيه محمّد وصاحبه أبو بكر واليماة التي بنت عشّها فوقه، تضليلاً للمطاردين. ومنذ رحلة هروب محمّد تلك، والتي تسمّى بالهجرة، بدأ التقويم الهجري عند المسلمين، وذلك يوافق سنة 622 ميلادية.

وجد محمّد في المدينة المنورة منفى عسيراً، وواجه الكثير من الصعوبات لفترة من الزمن. ما فتئ واصحابه لا يجدون قوتهم، لكنه استمرّ في نشر الدعوة وهدى الكثيرين بأعداد متزايدة، ممّا أدّى إلى ازدياد يومي في نفوذه. وأدّى نزاع بينه وبين اليهود إلى إخراجهم من المدينة. أثار هذا النفوذ المتزايد للمذهب الجديد قلق أهل مكة، نسبة إلى الموقع الجغرافي للمدينة المنورة حيث كانت على خط العبور الرئيس إلى الشام. فما فتئت أن قامت الحرب، وكانت الموقعة الأولى في بدر السنة الثانية للهجرة (624 ميلادية).

انتصر المسلمون في معركة بدر لكنهم خسروا الحرب في السنة التالية في أحد، قريباً من المدينة، وأسهمت القيادة الرديئة لأهل مكة في التقليل من خسائرهم. أما محمّد، فقد أظهر سرعة بديهة عسكرية مميّزة في إعادة ترتيب صفوف أتباعه المشطي الهمة وكسب المعركة في اليوم التالي. تقاعس أهل مكة في القتال، فتراجعوا. لم يتضاءل نشاط محمّد ونفوذه من جرّاء هذه المعركة فأعاد أهل مكة هجومهم في السنة التي تلت. إنما كان محمّد قد أنشأ متراساً منيعاً حول المدينة، عُرف بالخندق، يحتفى بذكراه في تاريخ المسلمين، وقد احتفى محمّد وأتباعه خلف هذا الخندق الذي حاصره أهل مكة لفترة من الزمن ثم أُجبروا على التقهقر. إن المواجهة الوحيدة التي حصلت كانت في بعض المعارك الانفرادية بين محاربين من الفريقين كليهما، ومن بينهم كان عليّ الذي أظهر بطولة فائقة.

تمّ الاتفاق على هدنة بعد ذلك، وكان أحد بنودها أن يُسمح لمحمّد بالحجّ إلى مكة، وهذا ما فعله بصحبة العديد من أتباعه. لكن الهدنة خُرقت أو بالأحرى تنصّل أهل مكة منها لاحقاً. فشكّل محمّد الذي كانت قوته بتزايد مستمرّ جيشاً من عشرة آلاف رجل وتوجّه بسرعة نحوها، فاستسلمت مكة دون قتال. فحطّمت الأصنام،

وتكرّست الكعبة لعبادة الله الواحد.

وقعت معارك أخرى بعد ذلك، وقد قام الرسول بنفسه بقيادة جيش المسلمين في بعضها لمواجهة القبائل العاصية. وأرسل رسائل لحكام الدول المجاورة يطالبهم بالخضوع له. بعد وفاته، في السنة الحادية عشرة بعد الهجرة، كان معظم جزيرة العرب قد دان بالإسلام. وقد تزوّج إحدى عشرة امرأة⁽¹⁾ أشهرهن بعد خديجة التي توفيت قبل الهجرة، عائشة بنت أبي بكر. رُزق محمّد ابناً آخر مع القاسم، هو إبراهيم، لكنه توفي أيضاً في صغره. أما ابنته فاطمة، فقد تزوّجت من عليّ بعد وصولهم إلى المدينة بوقت قصير، وأنجبت له ابنين: الحسن والحسين اللذين قضيا بشكل مأساوي. وعند وفاة الرسول عن عمر الثالثة والستين، دُفن في المدينة، وكانت فاطمة الذرية الوحيدة له التي عاشت بعده.

في ريعان شبابه، كان محمّد رجلاً فاتح البشرية، مربوع القامة، متين البنية، ذا شعر ولحية سوداوين، لطيف الملامح وذا عينيّن برّاقين بنحو لافت.

ليس المقام هنا ملائماً لمناقشة نبوّته وتلقّيه للوحي الإلهي، إنما ما يقطع الشكّ بغير جدال أنه هو نفسه كان واعياً لذلك ومؤمناً به. فمن وجهة نظر متواضعة، كان محمّد رجلاً ذا فطرة سليمة، دمث الأخلاق وذا شجاعة. وتطابقت سيرة حياته مع الأخلاقيات التي كان يدعو إليها. كان حكيماً ولديه حسّ ظريف، وباستطاعته تقبّل المزاح حتّى على نفسه كما تظهر الرواية التالية عنه: في إقامته المؤقّنة في المدينة، أصاب الجوع محمّداً وأتباعه. لم يكن يقبل أيّ رفاهية لنفسه إذا لم يشاركه فيها أصحابه. في أحد الأيام كان يأكل بعضاً من التمر مع عليّ ويلقيان النوى أمامهما، فكان محمّد ينزع نواة التمر ويضعها أمامه، أما عليّ فكان يأكل التمر وينزع النواة ويضعها مع بقايا نوى التمر الذي أكله محمّد، فكان النبي ينظر إليه ويتبسّم. وفجأة قال عليّ لمحمّد بتعجّب وهو

(1) كتب المؤلف: اختلفت الروايات عن العدد الصحيح. وقد اختص تعدد الزوجات بالنبيّ فحسب، بينما لا يسمح القرآن للرجل المسلم بأكثر من أربع زوجات.

بمازحه: «أكلت هذا التمر كله يا رسول الله؟». فابتسم محمد وقال: «وأنت يا عليّ أكلت التمر بنواه؟». وقيل إنه ضحك حتى بانت نواجذه.

كان محمد يزدي النفاق بأيّ صفة كانت، ولم يكن ليميل للبذخ أو للتبجيل. ففي أوج قوّته عاش حياة مواطن عادي في المدينة. كان منفتحاً حاضراً دائماً لمناقشة أو شرح أيّ أمر لكلّ من يأتي إليه. كان دمث الأخلاق مع الفقراء ورفيقاً بالأطفال وطالما زيّن لأتباعه الرأفة بالحيوان.

لم يدّع محمد القدرة على اختراع المعجزات. لكنه بيّن أنّ القرآن بذاته كان معجزة كافية لإقناع أشدّ الناس عنداً. إن القصص المرويّ عنه، كنبع الماء من الصخر الأصمّ، ووضع القمر على كفه، كلّه اختلاق، ولا تجده في مدوّنات المؤرخين المسلمين. لكنّه صرّح بأنه حصل على عون إلهي، في الغار مثلاً، وفي معركة بدر.

* * *

إثر وفاة محمد، ارتدّت بعض من القبائل التي دخلت في الإسلام إبان حياته، ودبّ خلاف بين رجالاته حول من سيخلفه. كان عليّ، ابن عمه وصهره، وأوّل المؤمنين به، والذي أبلى بلاء حسناً في أرض المعركة وفي إبداء الرأي بالشورى، كان أفضل المرشحين للخلافة. إنما كان هناك بعض الاعتراضات على ترشّحه، ووقع الاختيار أخيراً على أبي بكر، مرافق الرسول في واقعة «الغار».

لم يكن هناك اختيار أكثر حكمة. حيث أن الموقف كان حسّاساً، وكان يتطلّب حنكة وحزماً للتعامل معه، وهذا ما كان يمكنه أبو بكر أكثر من عليّ الذي يتأقلم أكثر في ساحة معركة، مُظهراً البسالة والإقدام أكثر من الدبلوماسية.

تولّى أبو بكر مقاليد الحكم، تحت لقب «خليفة الرسول» الذي حوّر واختُصر إلى لقب «الخليفة» في اللغة، ممّا يعني بالطبع خليفة الرّسول. ونجح في الفصل في الخلافات المحلية وفي قمع الثورات بين قبائل العرب. وتعيّن عليه أن يكسر شوكة مدّعي النبوة بعد محمد.

بعد إنجاز تلك المهام، حوّل الخليفة اهتمامه إلى الفتوحات الخارجية. فأرسل حملة إلى الشام، وكانت في ذلك الوقت مقاطعة بيزنطية، فهزمت حملته الجيوش المسيحية مرّة تلو الأخرى. ووقعت دمشق، وبعدها القدس، في أيدي المسلمين. وتوجّه جيش عربي آخر إلى أرض الرافدين (ميزوپوتاميا) فسحقوا الفُرس في معارك متفرقة.

توفي أبو بكر بُعيد السيطرة على دمشق، مسلماً مقاليد الحكم إلى عُمر، الذي كان مثله أحد أوائل وأهمّ الصحابة. قبل هذا الاختيار بقبول حسن عموماً. وعند استلامه الخلافة، صرّح عمر أنه يجب أن يلقب بخليفة خليفة رسول الله، وبما أن هذا اللقب لا بدّ أن يكون لجميع من يستلم مقاليد الحكم، فقد اقترح لقباً آخر. قال عمر: «أنتم المؤمنون، وأنا أميرٌ عليكم، لذا فلقّبوني بأمر المؤمنين» وهو لقب ما زال يتكئى به سلاطين تركية.

أكمل عُمر سياسة الفتوحات الخارجية لأبي بكر. ولم تكن الإمبراطورية الرومانية قد أفاقت من صدمة وهزيمة الخسارة في مقاطعة الشام بعد حينما ظهر عمرو بن العاص في مصر، على رأس جيش من بضعة آلاف من المحاربين، ومن ورائهم حشد متنوّع من النساء والأطفال والعبيد. قبلت هذه الغزوة الجريئة باستصغار، لكننا سرعان ما انقلب هذا التساهل إلى رُعب عندما هُزمت الفصائل الرومانية المنظّمة في كلّ معركة وولّت الأدبار أمام هجوم الفرسان العرب القويّ. وسرعان ما أخضع عمرو بن العاص مصر، وتمّ ذلك بمعونة الأقباط من الداخل ضدّ الرومان. وأخيراً استسلمت الإسكندرية سنة 19 للهجرة (640 ميلادية). وثمة من يدّعي زوراً إنه بناءً على أوامر عُمر نفسه، دُمّرت مكتبة الإسكندرية الشهيرة على أيدي العرب.



لا يتّسع المقام هنا لمتابعة تاريخ الفتوحات العربية بعد ذلك، فبعد خمسين سنة من هجرة النبي إلى المدينة، كان الإسلام قد انتشر في إسبانيا، وشمال إفريقيا، وآسيا الصغرى، وجزيرة العرب، وبلاد الرافدين وبلاد فارس، ولا زال ينتشر. وكما كان

متوقعاً، فالدولة الشاسعة التي تؤسس وتبنى بهذه الطريقة لا تستطيع الصمود طويلاً. فلقد انفصل بنو أمية في إسبانيا عن الخليفة في بغداد وكونوا دولتهم الخاصة، وكذلك فعل المغول في الهند، وغيرهم. ومن المرجح أن هارون الرشيد ومن خلفه ضموا تحت حكمهم عدداً من البشر أكبر من أي حاكم آخر مذكور. ذكر الكاتب «غيون» في كتابه «انحطاط الإمبراطورية الرومانية وسقوطها» أن فرنسا كادت تلاقي مصير إسبانيا ذاته. حيث أن الغلبة توقفت على معركة واحدة، لو غلب فيها العرب⁽¹⁾. ولولا هزيمتهم لكانت فرنسا اليوم عربيّة، وإنكلترا دولة إسلامية.

سقطت الإمبراطوريات العربية واحدة تلو الأخرى، إنما حمل الأتراك راية نشر الإسلام بحماسة مماثلة، وفي القرن السابع عشر قارب الإسلام على إخضاع المسيحية في الغرب كما فعل سابقاً في الشرق⁽²⁾. سيطر الخوف على السياسة الأوروبية من ذلك لعدة قرون، ولم يتلاش إلى الآن.

كان بلاط الأباطرة العرب منارة للعلم في القرون الوسطى. ازدهر فيها الفن والعلم تحت ظلهم، وتشهد على ذلك عدّة آثار عظيمة. لكنّ الزهد الذي طبع حياة النبيّ، ومورس من قبل الخلفاء الراشدين، تحول عند خلفهم إلى غلو لا مثيل له.



يتبقّى أن نعرض الأحداث في جزيرة العرب التي تلت مقتل الخليفة الثالث، عثمان، قبل أن نتقل إلى موضوع آخر سنة 35 هجرية.

تقلّد عليّ الخلافة، وكان قد صار مسناً في ذلك الوقت، لكن أحقيّته في الخلافة طعن بها من قبل معاوية، وأتهم باطلاً بضلوعه في مقتل عثمان. اندلعت الحرب الأهلية، وانقسمت الإمبراطورية إلى حين مقتل عليّ في كربلاء سنة 40 للهجرة مفسحاً

(1) هي معركة پواتيه، 732 ميلادية.

(2) أي بعد الانتصارات العثمانية الحاسمة في اليونان وقبرص والبلقان وكسر جيوش الصرب والبلغار وجيوش ملوك آل هابسبورغ، وحصار فيينا مرتين، في القرنين السادس عشر والسابع عشر.

المجال لمنافسه لتقلد الحكم.

تخلّى الحسن بن علي عن حقّه في الخلافة لمصلحة معاوية، الذي كان أول من أسس السّلاّات الحاكمة في الإسلام.

حكمت ذرّيته، المعروفة ببني أمية، في الشرق إلى أن سقط حكمهم على أيدي بني العباس، ذرّية عم محمّد، سنة 132 للهجرة.

إنّما مع ذلك، استمرّ حكم بني أمية في الأندلس إلى أن تنامت السلطة إلى أيدي الإمبراطورية الموريسكية (البربر) بعد ثلاثة قرون.

خلف يزيد والده معاوية، وقد اتّهم بالتحريض على قتل الحسن والحسين، حفيدي الرسول. أما الأول فقد دُسّ له السمّ، والثاني قضى نحبه في المعركة، مع معظم أهله، قرب الكوفة في أرض الرافدين. قد يُعدّ مقتلهما الحدّ الفاصل لعهد تاريخيّ للإسلام: فترة إنتهاء حكم الصحابة الذين عاصروا النبي، وشاركوا في معاناة ونضال المرحلة الأولى من مهامّه النبوية.

بالإمكان فهم ما شهدوه من تغييرات إعجازية بأمّ العين عندما يُستعرض ما حصل في معركة بدر، إحدى أكثر المعارك في تاريخ العالم حسماً، لم يتعدّ عدد المسلمين أكثر من ثلاثمئة وأربعة عشر محارباً. وبعد أربعين سنة كان عليّ ومعاوية، في مناوشات على ضفاف دجلة، قبل المعركة الكبرى، قد خسرا سبعين ألف رجل فيما بينهما.

إنّ ما تخيلّه كاتب «ألف ليلة وليلة» لا يفوق غرابة ما عاشه هؤلاء الرجال. فإن بضعة من رعاة الإبل وصغار التجّار، الذين حاربوا في شبابهم حول مكة والمدينة، وجدوا أنفسهم في منتصف العمر يقودون الجيوش أو يحكمون مقاطعات واسعة. ومعاوية، الذي كان يبلغ من العمر ما يكفي لتقدير محمّد وقت وفاته، وصل إلى الحكم في سنّ متقدّم، على رأس إمبراطورية أكبر من روما، وتصرف في ثروات لا تُعدّ ولا تُحصى.



بالانتقال من التاريخ إلى تعاليم محمّد الدينية، يكمن السعي إلى فهم مكنن القوّة

التي أنتجت هذه النتائج المذهلة. إن الوحي، الذي ذكر سابقاً، استمرّ على فترات متقطعة خلال حياة الرسول، وقد نقله إلى صحابته، الذين كتبوه أو حفظوه غيباً. اختلف الوحي في مضمونه، فلبعض آياته شكل الملاحم الشعرية، وأخرى تضم توجيهاً مباشراً بالأوامر والنواهي. وبعضها عالج أمور الحياة اليومية، وبعضها الآخر تناول مسائل في التاريخ والسياسة والفلسفة. وقد استُخلص منها قانون مدني وقانون عقوبات كاملان.

لم يكن هناك محاولات لوضع هذه الآيات في مجلّد واحد عند وفاة النبي، على اعتبار أنه لم يأمر بكتابة آيات الوحي. إنما تنبّه أبو بكر إلى الخطر، عندما لاحظ أنّ الصحابة يموتون الواحد تلو الآخر، فعَيّن «هيئة عليا» لجمع الآيات وتدوينها. وتمّ بالنتيجة تدوين القرآن الكامل، الذي تمّ الانتهاء من جمعه في عهد عثمان. وبالرغم من أن الشكّ في حقيقة أي جزء من هذا العمل يُعدّ كفراً صريحاً، فلم يكن هناك أي محاولة لجمع الآيات بحسب ترتيبها الزمني أو بحسب معناها.

إنّ القرآن ينصّ على أنه لا إله إلا الله، إله واحد، أزلي، مطلق، لا يدركه عقل، وأنه هو إله آدم، وموسى، وعيسى المسيح، وجميع الأنبياء من قبلهم. وقد أوحى بمشيئته عدة مرات من قبل، بكتب وأهمّها التوراة (العهد القديم) والإنجيل. وبما أنّ هذين الكتابين قد تحرّفا، فقد نزل القرآن على محمّد ليحلّ محلّهما⁽¹⁾.

إنّ العقائد الأساسية التي تشكّل الأديان في هذه الكتب لا تزال واحدة لم تتغيّر. ونظرية خلود الروح، يوم الحساب، الجنة، النار، الشيطان عدو الإنسان، الملائكة،

(1) كتب المؤلف: الكلمة العربية المستعملة للرب هي «إله» في المفرد. وعند استعمال أداة التعريف معها تصبح بالإدغام «الله» وتعني الإله الواحد. لذا فإن الشهادة «لا إله إلا الله» تعني أنه ليس هناك من إله آخر غير الله الواحد.

وكلمة «قرآن» تعني القراءة، وكلمة مسجد تعني حرفياً المكان الذي يُسجد فيه. قلت: اسم «الله» ليس صيغة معرفة لعبارة «إله»، ففي العربية: الإله، بالمعنى الاشتقاقي اسم جنس معرف قد يُجمع وقد يؤنث، أما اسم الجلالة «الله» فهو اسم عُرفي لا يجوز فيه تأويل ولا تصريف ولا صيغة جمع، ولا يُطلق إلا على الذات الإلهية تحديداً.

الشياطين، وغيرها وكما ذكر سابقاً، صادق عليها القرآن كقاعدة عامة. أما الشريعة المحددة فهي نفسها في الوصايا العشر، فالحض على التقوى، والعفة، والقناعة، والبر والإحسان يتكرر ذكره باستمرار. وهناك ذكر لقصص يرد مغزاها في التوراة لتثبيت هذه الفضائل.

إن قسماً كبيراً من الكتاب يشدد على وحدانية الألوهية المطلقة. فقليل لنا إن الله يغفر ما يشاء من الذنوب إلا أن يُشرك به. ويرد في السورة رقم 112، التي تعادل ثلث الكتاب ما يلي:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ (٢) لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝ (٣)﴾ (سورة الإخلاص).

في الواقع، إن ثلث القرآن مكرّس للمبدأ ذاته بعدة أوجه وتعبير مختلفة.

* * *

يفضي بنا هذا المقام إلى موضوع العلاقة الشائك بين الإسلام والمسيحية بالنسبة إلى العقيدة. ممّا لا شك فيه أنّ محمّداً نفسه توقع أن يهتدي اليهود والمسيحيين إلى الإسلام، لكن ذلك لم يتم. يشير القرآن الكريم إلى عيسى بن مريم في أكثر من مقام، ويسمّى بالمسيح وروح الله، ويعتقد بالعدراء التي ولدت بغير دنس. إنما يلام اليهود على رفضهم تقبّل تعاليم المسيح، ويلام المسيحيون على انحرافهم عنها. والإسلام يعدّ الاعتقاد بأنّ عيسى ابن الله شركاً مطلقاً.

من الواضح أن العقيدتين تتفقان تقريباً على أسس واحدة. ولا بد من التذكير هنا أن العقيدة التي رُفضت فسرت في ذلك الوقت حرفياً. هذا ما توصّل إليه اليوم مجلس الكنائس المسيحية، لكن من المحتمل أن هذه النظرة لم تُعتمد بكل هذا التعتّل لولا المعارضة القوية من قبل القرآن. إن المفكرين من الجهتين، ما عدا الرسول نفسه، شغلوا بتحديد الفوارق بين العقيدتين بدلاً من إيجاد ما يجمعهما. يشار إلى اليهود والمسيحيين في القرآن بلفظ «أهل الكتاب» ويعاملون على أساس مختلف عن الكفار

أو الوثنيين. أما النصّ القرآني المتعلق بالصلب فهو كما يلي. ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ (١٥٧) بَل رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴿١٥٨﴾. (سورة النساء، 157-158).

إن التبريرات الإيمانية هي مدخل آخر للخلاف. فيتعمّق القرآن، أكثر من الكتب التي سبقتة، في التبشير بالمغفرة للمؤمنين بالعقيدة الأساسية، مهما اقترفوا في حياتهم، ممّا يجعل الإيمان بالجنّة والنار نتيجة مسلّماً بها.

أما الإيمان بالقضاء والقدر المذكور في القرآن فقد اختلف الرأي عليه بشدة، ولم يتفق عليه المسلمون أنفسهم. لكن يبدو أنّ هذا نتيجة مباشرة لفرضية الإله الواحد العليم الجبار.

من الجدير بالذكر أن عقيدة الإسلام الأساسية تتوافق مع عدة مبادئ اختلفت عليها الكنائس المسيحية. فمبدأ أنّ مصير الروح مقضّي به هو أصل العقيدة الكالفينية. ونظرة المسلمين إلى الخلافة تتطابق تقريباً مع وجهة نظر الروم الكاثوليك بالنسبة إلى الإرث الرسولي. لكن كنيسة إنكلترا تشدّد على سيادة الكتاب المقدس. فمع أنّ الخليفة لا بد وأن يتمتع ببعض التوجيه الإلهي، فإنه يُعدّ غير مؤهل للحكم على أمر ما بقانونيته الشرعية، وعليه أن يخضع لحكم علماء الدين. وفي تركية الحديثة، يمارس حقّ النقض هذا من قبل شيخ الإسلام الذي يُرفع إليه الحكم بشرعية الأمور بما يسمّى بـ «الفتوى». وهنا يكمن السؤال «هل من الجائر عزل خليفة جائر؟» والفتوى بذلك تقول: «إنّ القانون الشرعي يجيب: نعم يمكن».

* * *

أما الجزء من القرآن الذي يتداول التشريع العمليّ، فعلى أن ندون ملاحظة أنّ تشريعاته المدنيّة لا زالت تعمل جيداً، وأمّا تشريعاته الجزائية فهي شديدة قياساً للأعراف المعاصرة.

وأركان الإسلام للمؤمن أربعة⁽¹⁾: أولاها الصّلاة، والزكاة، والصّيام، والحج لمن استطاع اليه سبيلاً. وسنرجع إلى هذه النقاط لاحقاً. أما أشدّ نواهي القرآن⁽²⁾ فهي تحريم بعض أنواع الطعام، لحم الخنزير مثلاً، والرّبا والميسر والخمر. من المعروف أنّ شرب الخمر حتى لو باعتدال مكروه أينما كان. على كلّ حال، لم يلتزم بهذا القانون دائماً.

يضاف إلى القرآن، وبأهمية كبرى في نظر المسلمين، الكتب الستة للسنة والحديث الشريف. إنّ السنة والحديث الشريف يمثلان ما نُقل عن الرسول من قول أو عمل. ومع أنّ أتباعهما لا يُعدّ ركناً للإيمان، فهما مرغوبان بشدّة ودون تحقّظ من قبل المسلمين التقليديين، وقد يُلصق بهما الكثير من المعتقدات الخرافية التي تشوه البساطة التي تتمتع بها عقيدة الإسلام. أمام الكاتب كتاب يتضمن عشرة آلاف حديث منسوبة إلى الرسول، قد يكون القليل منها صحيحاً⁽³⁾. إذ لا يمكن حسب المنطق أن يناقض الرّسول كلامه. إنّ أيّ دراسة سريعة تظهر هذا التناقض بين الأحاديث الموضوعة بشكل واضح. ولإيضاح ذلك، فقد أثر عنه أنّه قال إنّ الإسلام سينقسم لاحقاً إلى اثنتين وسبعين فرقة، كلّها في النار، ما عدا واحدة، لكنه لم يقل أيّها.

إنّ الجزء الأول من هذه النبوءة قد قارب التحقق، والإسلام اليوم منقسم إلى قسمين رئيسين، وكلّ يُعدّ الفريق الآخر صاحب بدع. وهذان الفريقان ينقسمان، كلّ على حدة، إلى مذاهب تختلف في الشعائر فقط، وهناك عدد بسيط من المذاهب الأخرى الأقل أهمية قد لا تُعدّ من الإسلام في شيء. إنّ الشقاق بين الفرقتين الأساسيتين، المعروفتين بالسنة والشيعة، بدأ حين دبّ الاختلاف السياسي في عهد الخلفاء الراشدين. باختصار، يعدّ السنة أنّ الخلافة ترجع، طبيعياً، إلى أي من الوجهاء

(1) بل هي خمسة طبعاً، فاته أن يذكر الرّكن الأول وهو الأهم: شهادة أن لا إله إلا الله، وأنّ محمّداً رسول الله.

(2) لا شك أنّ معرفة المؤلف بالإسلام ليست ضليعة، فأشدّ نواهي الإسلام قبل ما ذكر: الشرك بالله، والفتنة، وقتل النفس بغير حق، والزّنا، وأكل المال بالباطل، وشهادة الزّور... والعياذ بالله من ذلك كله.

(3) المتعارف عليه بين علماء الدّين أنّ عدد أحاديث كتب الصّحاح يبلغ 6000 حديثاً.

المسلمين الأقوياء في حينه، بغض النظر عن كونهم من آل البيت أو انتمائهم. بينما يؤكد الشيعة أنّ الخلافة محصورة في آل البيت من خلال عليّ وفاطمة. وهم يؤمنون أن الخلفاء الثلاثة الأوائل قد حرموا عليّاً من حقه في الخلافة.

إنّ الاختلاف على أحقية عليّ في غاية الأهمية في يومنا هذا، في نظر تفسيرات العثمانيين. فثمة وجهة نظر أولى تقول إنه لا سبب يمنع أن يكون سلطان تركية أميراً للمؤمنين، ويكون قواماً على العالم الإسلامي أجمع، بينما يجادل الشيعة باستحالة هذا المبدأ.

إنّ العجم، وحوالي نصف المسلمين في الهند، وبعض من قبائل العرب هم من الشيعة. بينما الأتراك، والأفارقة، والأفغان وبقية المسلمين هم من السنة. والسنة ينقسمون إلى أربعة مذاهب: الشافعية، والحنفية، والمالكية والحنبلية، وسقوا بذلك على أسماء علمائهم مؤسسي هذه المذاهب. وليس هناك من ضرورة للفرد المسلم أن يتبع أيّها، فباستطاعته أن ينفرد باستقلالية إيمانه.

لقد تأملنا الإسلام إلى الآن كما ظهر في دراسة عن تاريخ ومضامين الكتب السماوية نفسها. ولو قمنا بهذه الدراسة لنستدل على طبيعة الكتب السماوية من وجهة نظر علماء الدين، ستكون النتيجة مختلفة. إنّ رجال الدين المسلمين اليوم يعدّون القرآن، لا مجرّد كلام ملهم، بل هو كلام الله نفسه أوحى به إلى لسان نبيّه. ولذا فهو أبديّ ولا يقبل الجدل فيه، ولا تأويل مقبولاّ له.

ولتفهّم وجهة النظر هذه، سنستخدم استعارة للتوضيح، كمثّل مسيحي صدّق ما قرأ في كتابي سفر الرؤيا ولاوي حرفيّاً بدلاً من أن يُعدّ الأول مجازياً والثاني قديماً. أمّا بالنسبة للمسلمين، فلما كان قطع أيدي وأرجل السارق عقاباً له ضرورياً ومقبولاً في جزيرة العرب منذ ألف سنة خلت، فلا بدّ، جدالاً، أن يكون هذا العقاب مقبولاً في القسطنطينية في الزمن الحالي.

لا يقوم النّاس باتّباع الإرشادات الأخلاقية في القرآن بحذافيرها، بينما تُتبع الشعائر في تفاصيلها الدقيقة. باختصار، فإنّ تركيّاً تقيّاً يعتقد أنّه إذا أقام صلاته في موقيتها، وصام

رمضان، وتجنّب تناول لحم الخنزير، فلا أهمية لما يفعل أو لا يفعل غير هذا⁽¹⁾.

قد يؤدّي هذا العرض التمييزي من خلال موضوع واسع مثير للجدل غايته، إذا ساعد القارئ المعاصر على فهم موقع المسلم في الحياة المعاصرة، وعلاقته بجواره المسيحي. وبما أنّ الإسلام لم يلق إنصافاً في أقلام الكتّاب المسيحيين، قديماً وحديثاً، فسيكون من المثير للاهتمام النظر إلى هذه المسألة من وجهة النظر الأخرى⁽²⁾، حتّى لو كان على سبيل التغيير فقط.

بغض النظر عن مناقشة نبوة الرّسول التي لا يمكن الاعتراض عليها، سنبحث في الدّعوى الأكثر ذيوياً ألا وهو أنّ دينه قد نُشر بحدّ السيف، مع أنّ القانون الشرعي يقول: لا إكراه في الدين، وقد طُبّق هذا القانون أكثر من مرة من قبل رجال الدين ضد السلطة العلمانية في تركيا. وكان الخلفاء العرب يلزمون قادة جيوشهم باحترام لا الأشخاص فحسب، بل ممتلكات المسيحيين ومبانيهم الدينية أيضاً. ولسنا نحن أنفسنا أبرياء في فرض ديانتنا على من لا يرغب فيها، وخاصة أن وضع هذا الكتاب يتزامن مع حرب صليبية على قوّة مسلمة لهذا الغرض.

قد لا يخلو تاريخ الإسلام من إراقة للدماء والفتن، إنما هو لا يضاهي في ذلك حقيقة تاريخ المسيحية. والمشاعر الدينية الأصوليّة هي السبب في الكثير من المعاناة والخلافات السياسية عند المسلمين، إنما من المشكوك فيه أن تجد في تاريخ المسلمين نظيراً للفتنة التي أدّت إلى المجزرة التي قتل فيها القديس بارثولوميو أو وحشية محاكم التحقيقات القضائية (محاكم التفتيش).

* * *

(1) هذا تعميم مغلوّط من الكاتب لا يجوز، فثمة نسبة كبيرة جداً من المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها تعيش روح القرآن وتتبع معاني الإحسان والبرّ أملاً بمرضاة الله، ولا نكتفي بمجرد إقامة الشعائر وتجنّب النواهي.

(2) على الرّغم من تحفظنا على بعض آراء المؤلف، فإن علينا من باب الإنصاف أن نعترف بأن في عرضه الموجز للإسلام كثيراً من الموضوعيّة والاحترام.

يشار إلى منزلة المرأة في البلاد الإسلامية أنها عقدة متجذرة في هذا النظام الديني، لكننا لا نستطيع أن نحمل القرآن أو الرسول المسؤولية في عزل المرأة اليوم. وللحقيقة، بدأ هذا التقليد في عهد الخليفة عمر، ولم يكن متبعاً قبله. وعزل المرأة بهذه الطريقة ليس عربي الجذور، إنما مقتبس من الشرق الأدنى. إنّ نساء البدو في يومنا هذا لا يسدّ لهن الحجاب، مع أنّ استعمال الحجاب شائع في المدن. أما تعدّد الزوجات، مع أنّه ليس إلزامياً، فهو مسموح به تحت شروط معيّنة في القرآن، ولا بد من التذكرة أن العالم في ذاك الوقت وحتى في بلاد مثل بلاد جزيرة العرب، كان يشهد تفوق عدد النساء على عدد الرجال، حيث أن الرجال أكثر عرضة لمخاطر الحياة، والحروب أحد أهم هذه المخاطر. إنّ نظام الزوجة الواحدة قد ينطوي على صعوبات جمّة في الحدّ من الفائض من النساء والتدهور الجذّي في نسبة المواليد، حيث تحتل هذه المسألة أهمية قصوى في المجتمعات التي يموت فيها الرجال بسبب العنف. إنّ نظاماً كهذا باستطاعته تدمير النسيج الاجتماعي كما نعرفه اليوم، وما هو ممتاز في المبدأ من الواضح أنه مستحيل التطبيق⁽¹⁾.

والشيء نفسه يُذكر في قضية الرّق. فأحسن ما يمكن عمله هو تلطيف الأمر الذي لا بدّ منه. لقد شدّد القرآن على حسن معاملة الرقيق ويقضي أنّه ليس أحب إلى الله من عتقهم. ولا بد من التذكرة هنا أنّ أفكار المسلمين بشأن مواضيع معينة تستند إلى مفهوم للحياة البشرية مختلف عمّا نعتقد نحن. وكمثال على ذلك، لا يقبل معتقدتهم مقدّمة كتاب «شعائر الزواج».

ليس من العدل اتهم بعض آيات القرآن التي تذكر الحياة الآخرة بالشدة والتهويل النفسي، ومن يفعل ذلك فقد تهاون في اعتبار الظروف التي نزلت فيها هذه الآيات. فإذا كان لمبدأ الجنّة والنار، والأمل في الثواب والخوف من العقاب أيّ تأثير على سلوك الإنسان، لكان على أولها أن توصف بأجمل الصور والأخرى بأشدّها حتى

(1) من الجميل أنّ المؤلف يحاول بشكل إيجابي تفهّم الإسلام ووضع الأمور في نصابها وسياقها الموضوعي الطبيعي، بغض النظر عمّا هو شائع لدى قومه في الغرب.

تؤثر فيمن وُجّهت إليه. ليس من الغريب أن توصف الجنة لسكان جزيرة العرب أرضاً خضراء، ذات أشجار وارفّة وأنهار جارّية، ولا أن تتضمّن حُوراً عيناً للأتقياء، حيث أن هذا ما يشكّل تسعة أعشار شهوات بني البشر. وقد يكون التوصل إلى حالة من السلام الشامل والرّضوان تصوراً فلسفياً للجنة، لكن هل يلام أتباع محمّد في طلبهم تصوراً أكثر مادّية وأقرب للفهم؟ إذا كان علينا الإصرار على تفسير مفردات القرآن كحقائق إيجابية بدلاً من تصورات شاعرية، إذن، وليكون من العدل والمنطق بمكان، فعلينا تقبل كتابي العهد الجديد والقديم بالتوجّه ذاته. لقد استمعت مرة إلى مبشّر يصف الجنة كيوم أحد أبدي. لا يسعني محاسبة هذا التفسير هنا، إنما لو كان الأمر كذلك، فأنا لا أحبّذ الذهاب إلى هناك، ولا أشعر بأي حرج في التصريح بأنّي أفضل جنّة المسلمين، التي وصفها النبي بأنها تحت ظلال السيوف.

ولبحث فكرة أنّ المجتمعات الإسلامية ترى في الدين عائقاً لتقدّمها، فإن هذا وكما أشير من قبل، ليس تبعه تُلقى على كاهل الدين. ورغم أنّه ليس من المعقول ممارسة السياسة الخارجية لبريطانيا على أساس يوافق التفسير الحرفي «لموعظة الجبل» للمسيح، فمع ذلك على القوانين الرسمية في تركية أن تتوافق مع القانون الشرعي المستقى من القرآن والحديث، اللذين لا يمكن تغييرهما كما تغيّرت شرائع الميديين والفرس التي بادت وانقرضت.

وبدلاً من أن يتم تقبّل تفسير متحرّر بالتدريج، فقد حصل العكس. إنّ منعاً عاماً للرّبا يشمل الآن الأعمال المصرفية وشركات التأمين، وإنّ خاصية المباشرة وعدّ القابلية للتغيير هما نقطتا قوة وضعف في آن واحد. يُملّى على المؤمنين ما يفعلون وما لا يفعلون بطريقة لا تتطلب تأويلاً. إنّ العاطفة والمسايرة غير موجودين في القرآن بشكل ملحوظ، فالأشياء فيه تسمى بمسمياتها والتوافه مهملة، فليلة تقضى في الجهاد في سبيل الله، أو إحسان لمسكين أو يتيم أفضل عند الله من أشهر طويلة من الصلاة والصوم. إنّ منهجيّة التقبّل الحرفي تؤدّي بالمسلمين إلى إضفاء صفة عمليّة إلى القول الفصل القائل بأنّ المؤمنين إخوة ولا فضل لعربي على أعجمي، وهذا ما يفسّر سبب

نجاح الإسلام وتعاضم قوته في إفريقيا اليوم.

* * *

في الختام، يستخلص الكاتب أنّ الدين قد أسهم بالقليل في تطوّر الشرق الأوسط منذ القدم. وقد قيل «كما تكونوا يولّى عليكم». فلو كان الأتراك معتنقي المسيحية بدلاً من الإسلام في أوج قوّتهم وفتوحاتهم، لكان من المشكوك فيه أن يكون حكم الإمبراطورية العثمانية اليوم أفضل أو أن تكون أكثر تقدّماً ممّا هي عليه الآن. على كل حال، فإنّ القليل ممن حصلوا على فرصة دراسة المسيحيين والمسلمين في نفس المجتمع، ويعيشون تحت ظل الظروف نفسها، حاولوا إثبات أنّ هذه الحالة أتت لاحقاً وليست موجودة في صُلب الدّين.

ستكون هذه المقدمة متقصّة إذا لم نُشر إلى حركات الإصلاح المختلفة للإسلام التي قامت بعد وفاة مؤسّسه. ومن الجدير بالملاحظة أن هذه الحركات قد قامت في جزيرة العرب نفسها. إن قوة الاندفاع الأولى سرعان ما استنفدت طاقتها. فبعد سقوط خلفاء بغداد، لم يعد للعرب قوة سياسية. لقد اندمجوا في المجتمعات التي احتلوها أو عادوا إلى سيرتهم البدوية الأولى. وجزيرة العرب الآن هي كما عرفها الرّسول. ومع أنّ معظم القبائل البدوية تدين بالإسلام، فهي لا تمارس الشعائر أو التعاليم الإسلامية بشكل كامل.

بيد أنّ أحد أهم الصّحوات الدينية هي التي قامت على يد عربي من نجد، واسمه [محمّد بن] عبد الوهاب، في منتصف القرن الثامن عشر. أثارت حفيظة محمّد بن عبد الوهاب الممارسات الوثنية والخرافات التي لاحظها في رحلة حجّ له، ولذا راح عند إياها ينادي بتصوّر أنقى للدّين. لاقت هذه الصّحوة الدينية نجاحاً فائقاً لفترة من الزمن. وسيطر الوهابيون على مكة والمدينة، ودّمروا كربلاء. وقد هدّدوا وجود الإمبراطورية العثمانية نفسها في أوائل القرن الماضي، إنّما قُمعوا أخيراً على يد محمّد علي باشا سنة 1817-1819، في حملة عسكرية فريدة كونها الفعل العسكري الوحيد الذي سُجّل في وسط جزيرة العرب.

كما تمثل حركة الإخوة السنوسيين حركة مماثلة، إنما لم تول الأهمية التي تستحقها. أما حركة «المهدية» الشهيرة في السودان فلا تنتمي إلى نفس المضمار. ونُقل عن الرسول قوله إنَّ الإسلام، وبعد قوّة عظيمة، سيتدهور إلى مجرد حضور اسمي في هذا العالم، وسيعاد أمره على يد «المهدي»، وهو شبيه بمسيح مسلم، لكن يتميز عن بقية «الأئمة» وغيرهم الذين يتحلون لقب «المهدي» الذي يعني من لديه الهداية الإلهية، واللقب دون أداة التعريف لا يعني شيئاً مهماً.

وأخيراً، لابدّ من الإشارة إلى المجتمعات الدينية المسلمة. فكما يبدو من القرآن والتقاليد المتبعة أنّ جميع مظاهر الرهبانية والكنهوتية لا تنتمي إلى روح الدّين، بالرغم من وجود الكثير من الطوائف الدينية المعروفة باسم الدراويش التي لديها شعائرها الخاصة وتلتزم بمواثيقها. تتسم ممارسات هؤلاء الدّراويش ومعتقداتهم بأفطع الخرافات، وخطوات الرقص الغريبة المثيرة للضحك، والولولة، وممارساتهم المختلفة لا تمت بصلة إلى تعاليم القرآن المتّسمة بالبساطة والرّزانة. لكن الحقيقة أنّ الأوروبيين يعانون صعوبة بالغة في التمييز بين الاثنين. ولنا أن نؤمن بأنّ اختلاط الأمور على الناس شيء طبيعي عندما نلاحظ أنّه من السهل على مسافر مسلم في أنحاء جنوب أوروبا أن يصدّق أنّ الإيمان بالعين الحسود جزءٌ من ديانة البلاد.



الجزء الأول

الفصل الأول

من لندن إلى بيروت

إنّ مدينة مكّة، كما رأينا، تحتوي على معبد كان محطّاً للتبجيل ما قبل الإسلام. ولنوضح كيف أنّ النبي استطاع أن يستبدل عبادة الأوثان بالإسلام دون أن يؤثر على قدسية المقام في مكّة، علينا أن نستعيد تاريخاً كتابياً قديماً إنما من وجهة نظر إسلامية.

بنى المعبد المعروف باسم «الكعبة» (وتعني الكلمة مكعباً) آدم عليه السلام، على غرار منزل كان قد رآه في الجنّة قبل هبوطه منها. وقد أعيد بناؤها بعد الطوفان بأيدي كلّ من إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وكُرّست لعبادة الله الواحد. لكنّ العرب، وعلى مدى قرون، حادوا عن الإيمان الصحيح، وعبدوا عدّة آلهة، لكنهم مع ابتعادهم عن الله الواحد استمروا في اعتبار الكعبة مكان عبادة. هكذا كان الحال عندما بدأ محمّد دعوته للدين الجديد، وقد جعلت أوائل الآيات التي أوحيت إليه القدس بمثابة «قبلة»، أي أكثر الأماكن قدسية على وجه البسيطة، حيث يولّي المصلون وجوههم قبلها. إنّما، فيما بعد، نُسخ هذا الأمر وحلّت مكّة مكان القدس، وأصبحت الكعبة أولى القبليتين الشريفتين. إنّ من أركان الإسلام القيام برحلة حجّ مرّة واحدة في العمر على الأقلّ، لمن استطاع إليه سبيلاً⁽¹⁾.

(1) كتب المؤلف: يخصّص وقت محدّد سنوياً لممارسة شعائر دينية في مكّة، ممّا يشكل رحلة الحج عند المسلمين.

عُزّي تغيير هذا الموقف في نظر النقاد غير المسلمين إلى أسباب سياسية. إنّ تحويل أهل مكّة عن عبادة الأوثان كان الهدف المباشر لنبوّة محمّد. وبما أنّ ازدهار أهل مكّة اعتمد في ذلك الوقت، كما الآن، على قدسيّة مدينتهم، فإنّهم على استعداد لأن يتقبّلوا منطق الدين الجديد إذا حافظ على هذه القدسية. نجح محمّد، بهذه الطريقة المبدعة، في تعزيزها. ويظنّ أن خلافه مع اليهود ساهم في إعطائه تأثيراً أقوى.

مهما يكن التفسير، فإنّ المعبد، والمدينة، وحتى شعابها، اعتُبرت ذات مزيّة قدسية بمكان حيث لا يجرؤ أي كافر أن يطأها. لا نعتقد أنّ الرسول قصد أن يقصي اليهود والمسيحيين، إنّما كان أوسع أفقاً من الذين خلفوه. بينما فسّرت أوامره بهذا المنحى، والغريب في الأمر أنّ التّاريخ لم يسجّل أي انتهاك علني لأيّ شخص وعودته إلى بلاده ليخبر قصّته.

شمل حظر دخول مكّة على الكافرين المدينة المنوّرة، التي تستمدّ قدسيّتها من وجود قبر الرسول والعديد من صحابته فيها. وتضفي معظم المذاهب الإسلامية قيمة كبيرة لزيارة هذه المدينة، ويعدّ الإماميّة أنّ قيمة زيارة المدينة المنوّرة تضاهي قيمة الحجّ نفسه.

سيكون من عجب الأمور إن لم تحرّك ميزة هاتين المدينتين فضولاً كبيراً حولهما في أوروبا الغربية. ولا بد من توضيح أمر هنا: إنّ كل من يرغب في زيارة المدينتين، بإمكانه القيام بذلك إنّما بعد أن يعلن إسلامه. وعليه أن يتقدّم إلى قاض، ويعلن الشهادتين، ويخضع لعملية جراحية بسيطة. وإثر ذلك، وبعد فترة من ممارسة أصول الإسلام ليقنع المسلمين بإيمانه، لا حرج بقيامه برحلة الحجّ. وبعد تواصل طويل بينه وبين وزارة الخارجية والباب العالي، وبعد النظر مطوّلاً في أمره، قد يُعطى جواز سفر خاص. وعقب هذا، تكون الحكومة العثمانية مسؤولّة عن حمايته، ويُسمح له بالسفر إلى مكّة والمدينة بلا أيّة مخاطر. ومن الممكن أن تُقدّم له مرافقة للعناية به. وقد يكون ملفتاً للنظر إن لم يكن للشك.

والبديل الوحيد لهذا الخيار غير السهل، هو الذهاب إلى هناك بالتخفي.

* * *

لقد قام الكاتب برحلة الحج سنة 1908-1909، حباً بالاستطلاع من جهة، وليألف عادات العرب لاقتباسها في رحلات تخفّ مستقبلية للدخول من جهة أخرى. فإنّ مركز الحاجّ وصيته مفيدان للمسافر في الدول الإسلامية.

تحتوي الصفحات التالية على مدوّنة للرحلة، كتبها بعد عودتي، ولم أكن أنوي نشرها. تُظهر هذه المدونة أنّ الحجاز ليس بحال من الأحوال أرضاً متعذّرة البلوغ كما نظن. وللتوضيح، أعرفكم أولاً بمسعودي، وهو إفريقي من مومباسا تعمّدت أخذه إلى إنكلترا ليساعدني في هذه المغامرة، وثانياً، عبد الواحد، عربيّ من حلب، ترعرع في برلين، وضمّمته إلى فرقتي لاحقاً.

اجتمع ثلاثتنا في مارسيليا يوم الثالث والعشرين من أغسطس سنة 1908. وقد كان الحجّ ذلك السنة يوافق الأوّل من مارس، لكن بما أنّي عقدت النية على التوجّه أولاً إلى المدينة المنورة لقضاء بعض من الوقت في المدينتين، فلم يكن الوقت مبكراً. وكنت قد قرّرت أن أقضي وقتاً كافياً في دمشق لإقناع نفسي بأنني شرقيّ حقيقيّ، قبل دخول الأراضي المقدسة.

إنّ المهمة الصعبة الأولى كانت في كيفية الحصول على جوازات السفر الضرورية لنفسي ولمسعودي. أما عبد الواحد فكان لديه جواز سفر إنما يحتاج إلى تجديد. اعتمدنا بعض الإجراءات لتخطّي هذه الصعوبة، وكانت النتيجة أنّي حصلت على جواز سفر تركي باسم علي بن محمّد، 25 عاماً، مواطن من زنجبار وفي طريقه إلى مكّة. وقعت هذه الوثيقة فيما بعد بأيدي السلطة التركية ونتجت عنها بعض المشاكل. كان لزاماً عليّ القول إنّ الموظف الذي أصدر هذه الوثيقة لم يكن على علم أنّي إنكليزي، وأنّ الرشوة لم يكن لها دور في هذه العملية.

عند الانتهاء من مسألة جوازات السفر بشكل مُرضٍ، كنّا على استعداد تام لمغادرة مارسيليا بأسرع وقت ممكن. إنّ الفندق الذي كنّا ننزل فيه، مع أنّه لم يكلفنا الكثير - ثلاثة فرنكات في اليوم - كان نتناً. قضينا بعد ظهر ذاك اليوم بالتنقّل بين مكاتب البواخر، آمليّن أن نجد مكاناً في الدرجة الثانية في سفينة متجهة إلى مصر أو سوريا.

كان ذلك مستحيلاً حيث أنّ السفن كانت مزدحمة. وما توفر لنا كان فقط غرفة من الدرجة الأولى، أو مهجعاً من الدرجة الثالثة، ولم يناسبنا أيّهما.

ثم خطر لي التوجّه إلى جنوا، حيث علمت أنّ هناك عدداً من السفن أقلّ شهرة من غيرها، تتوجّه شرقاً، وظننت أنّ بإمكاننا تجنّب التعرّف إلينا في حين كان علينا قضاء بعض الوقت هناك. حينما عقدتُ النية على ذلك، لم نضع وقتاً في القيام بالإجراءات المناسبة وغادرنا مارسيليا منتصف الليل. وصلنا جنوا الرابعة بعد ظهر اليوم الثاني، ووجدنا فندقاً رخيصاً لا بأس به في الطريق من المحطة. كان الاعتراض الوحيد عليه هو ضجة الشارع المستمرة التي تمنع الفرد من أن يسمع ما يقال له. خلال فترة بعد الظهر، قمنا بزيارة جميع مكاتب السفر البحري، إلى أن حصلنا على مهاجع لنا من الدرجة الثانية في سفينة «فاليرنو» *Falerno* بعد ثمانية أيام، إنما كانت هي السفينة الوحيدة المتوفرة. لم تكن فكرة الانتظار الطويل مقبولة تحت هذه الظروف، لكن لم يكن بوسعنا أي خيار آخر.

سأمرّ مرور الكرام على الأيام التي قضيناها في جنوا، فقد أكلنا، ونمنا، وقرأنا وتجوّلنا في المدينة، وشعرنا بكثير من الملل. كان نُزلاء الفندق من الإيطاليين، ومعظمهم، كما أستطيع القول، من التجار. والأمر الأهم أنّهم لم يكونوا فضوليين.



صعدنا متن السفينة في بعد ظهر يوم الثلاثاء، ووجدنا أنّ «فاليرنو» ذات الثلاثة أطنان سفينة رثة المظهر. كان هناك ستة مهاجع في قمرتنا، وغرفة استقبال. ولم يكن هناك أية خدمات متوفرة لنزلاء الدرجة الثانية على ظهر السفينة، والقليل منها لنزلاء الدرجة الأولى. احتملنا الأيام الأولى، حيث أننا كنّا تقريباً وحدنا على متنها، لكن بعد مرورنا بنابلس، امتلأت جميع القمرات وكان الذين أقاموا معنا في القمرة يشعرون بدوار عند هياج البحر، وكانوا شديدي الصّخب عند هدوئه. استمرت الرحلة تسعة أيام كاملة إلى الإسكندرية. ولم يكن هناك من إنكليز على متن الباخرة، إنما أظنّ أنّ الركّاب كانوا يمثلون أغلب الجنسيات الأوروبية الأخرى. أما نحن، فلم نختلط مع أحد، وكنا نتخذ

أمكنة على طرف المائدة. أعترف أنني أعرف القليل من الفرنسية، ومن حين إلى آخر تحدثتُ بتلك اللغة مع رجل وسيم وأنيق جداً، قال إنه موظف في بلاط الخديوي، حيث أنني أعتقد أنه مرافق خاص له.

وصلنا إلى الإسكندرية في وقت متأخر من الليل، لكننا لم نغادر السفينة إلا في الصباح. أخذنا مباشرة إلى مكتب الجوازات، حيث قدّمنا وثائقنا التي خُتمت بتأشيرة الدخول. ومن ثمّ توجهنا إلى الجمارك حيث سُئلنا إن كان معنا شيء للتصريح به فنفيها. عليّ أن اذكر هنا أنني قد خبأتُ ما معنا من سلاح وذخيرة في جيوبنا، بالإضافة إلى وثائق هامة مثيرة للمشاكل، مثلاً جواز سفري الإنكليزي، ودفتر المصرف وغيرها. وكانت أمتعتنا تحتوي على عدد من الساعات وبعض الأمور التي ننوي تقديمها كهدايا لاحقاً، وبعضها ثمين. وهذه القطع وضعت في جيوب الملابس خوفاً من التلف. وهناك أيضاً عدّة طيّبة، بعض الضمادات وعدّة أشياء أخرى.

لقد جعلونا نفتح كلّ الصناديق ونخرج محتوياتها التي فتشوها جيداً، وقرأوا كلّ ورقة، وفتحوا كلّ كتاب ووضعوا أيديهم الملوثة بالحبر على كلّ ما له أدنى قيمة. بعد الانتهاء من أول صندوق، طلب منا توضيحه من جديد. بعد كلّ هذا التدقيق، قدّرنا أنا ومسعودي أنّهم لن يتغاضوا عن تفتيش ما في جيوبنا، ولذا، خلال توضيحين للصندوق الأول، تدبّرنا إفراغ محتويات جيوبنا من الوثائق والأسلحة في الصندوق، وهكذا تخلّصنا ممّا كنّا نحمل، إنما كان من المستحيل التواصل مع عبد الواحد، فتوقّعت كارثة محققة. بعد أن انتهى تفتيش الصناديق، سيق بنا إلى غرفة داخلية للتفتيش.

خرجنا أنا ومسعودي أبرياء من حيازة ما هو محظور قانونياً، ولم يخرج من جيوبنا أمور مهمة أكثر من 200 قطعة ذهبية. إنما أفرغ عبد الواحد من جيوبه مسدسات، وذخيرة، بطاقات بريدية، ومجوهرات في سبيل مستمر انقضّ عليه موظفو الجمارك بانفعال. وبعد مداولة، أُلقي القبض علينا كأفراد مشتبه بهم ووُضعنا تحت الحراسة إلى أن يصل «المدير». والمدير، الذي وصل بعد ساعتين، قرّر أنّ هذه المهمة أكبر من أن يقوم بها بنفسه، فحوّل أمرنا إلى الباشا. وبما أنّ الوقت كان في رمضان، فإن الباشا

لم يظهر إلا حوالي الساعة الواحدة بعد الظهر.

عندما رأيته علمت أنه من الذين لا يطيقون الصيام فقد كان معكّر المزاج. خضعنا إلى تحقيق دقيق. ومما لفت نظرهم الحقيقة الطبية والأجهزة التي بحوزتنا. لم يفقهوا حاجتنا لهذه الأدوات. ولحسن الحظ، كنت قد اتفقت مع عبد الواحد، في حال أية مواجهة، أن يدّعي ملكيته لهذه الأدوات ويقوم هو بالكلام. أما خلاصنا فإننا ندين به لبعد النظر هذا، ولحسن حظنا بإعادة وثائقنا غير مقروءة. أما عبد الواحد، ولأنه المذنب الرئيس، فقد تحمّل كلّ اشتباه حولنا. لم يُبد أحد اهتماماً كبيراً بي أو بمسعودي، إنما لم يشكّ أيضاً بعروبة عبد الواحد، بالإضافة إلى أنّه كان يتكلّم بسرعة هائلة ممّا أتعّب موظفي الجمارك.

لقد أطلقت حريتنا بحذر، إنما حُجز ما كان معنا في مبنى الجمارك على أن يعاد إلينا عند إبحارنا إلى بيروت. ولذا، خرجنا إلى النور حوالي الساعة الثانية والنصف بعد الظهر، مُتعبين جائعين، لكن مع كل ما حصل وقيل، شعرنا بنشوة نصر. تلقّيت أفضل التهاني من عبد الواحد على خلفية التخلّص من الوثائق كما فعلت. لم يكن يدرك أنّي فعلت ما فعلت، وعندما تمّ تفتيشي، توقّع الأسوأ كشرّاً لا بُدّ منه. لكن عندما لم يكشف معي شيء، تساوت دهشته وارتياحه، وشعرت أنني ارتقيت في نظره عدّة درجات بعد ذلك اليوم.

* * *

طلبنا من الحارس أن يزكّي لنا فندقاً مناسباً لأمثالنا، فلم يتوان عن المساعدة. وجدنا أنّ الغرفة في الفندق تحتوي على جناح من الغرف فوق حانوت حلاق. وعندما تفتّحت الغرفة من الداخل لم يسعني إلا التفكير بالحارس الذي لم يكن لنا الكثير من التقدير. على كل حال، كانت تكلفة الفندق قليلة جداً (فرنكاً واحداً في اليوم) وكان نظيفاً إلى حد معقول. وبعد مشادة مع الحمالين الذين حملوا أمتعتنا، وصلنا إلى تسوية معهم، وعقب ذلك غيرنا ملابسنا وتناولنا بعضاً من الطعام وأخذنا قسطاً من الراحة.

أما في المساء فتوجهنا إلى أقرب حمام تركي. أخذت الحيلة في حلق شعري كله حتى أظهر بمظهر غير أوروبي قدر المستطاع، وارتديت ملابس عربية كما فعل الآخرون. حتى هذه اللحظة لم نكن قد غيّرنا هندامنا، ما عدا إضافة الطربوش. وكنت سعيداً أنّ مظهرنا لم يلفت الانتباه. خلال تواجدنا في الإسكندرية، كنّا نُسأل إلى أي بلد ننتمي حيث من الواضح أنّنا غرباء. وكان عبد الواحد يجيب عادة أنّنا من بغداد، ممّا يسري علينا جميعاً، لكن عند طلب المزيد من التفسير فإن زنجبار كانت كافية لإشباع أيّ فضول.



في اليوم التالي، حصلنا على تذاكر سفر على سفينة بريد خديوية إلى بيروت. وكانت الرحلة الأولى المتوفرة بعد ثلاثة أيام. لكن بما أن هذا التأخير وقر لي فرصة التعمّد على ظروف الحياة الجديدة، وأيضاً التدرّب على اللهجة المصرية المحلية، لم يكن التأخير غير مرحّب به. إن مسألة اللغة، والتي يظنها الكثير من الناس العائق الأوّل لمسافر متخفّ، ليست بالصعوبة التي تظهر بها. هناك العديد من اللهجات للغة العربية، وهي واسعة التنوع باختلاف اللفظ والمفردات، حيث أنّ آية لفظة غريبة لا تلفت الانتباه. فمثلاً، إنّ رجلاً من اليمن لا يفقه ما يتحدّث به مصريان بسهولة، مع أنّ باستطاعته أن يتحدّث معهما بسهولة. والسبب في ذلك يعود إلى أنّ الغرباء عندما يتحدثون مع بعضهم يستخدمون اللفظ الصحيح للكلمات والقواعد مقتربين بذلك من اللغة العربية الفصحى، ويتجنّبون استعمال الألفاظ المحليّة التي تجعل كلامهم غير مفهوم. بعد هذا كله، هناك الكثير من الناس في بلاد الشرق الأوسط يدّعون أنّهم عرب إنما في الحقيقة هم من العجم، أو الأكراد، أو الأتراك وغيرهم. ومعظمهم لا يستطيعون محاكاة اللفظ البدوي⁽¹⁾ للكلمات والذي هو من خصائص اللغة العربية. وهذه الملاحظة تنطبق أيضاً على أهل مصر: فإنّ رجلاً نشأ في القاهرة ليس باستطاعته لفظ حرف الضاد مثله مثل أيّ شخص آخر من أبناء العربيّة ذاتها.

(1) كتب المؤلف: في هذه السياق وكلمات أخرى، إن الحرف (ي) يستعمل للنسبة في الصفات: بدو، بدوي (جمع). لم أدرك أن المؤنث هو «بدوية» والجمع أيضاً.

لقد تَخَيَّيْتُ كُلَّ المصاعب بمجرد القول إِنَّ اللغة المحكية في زنجبار هي السّواحليّة، وأنّ العربية غير مستعملة، وهذه حقيقة واقعة. ولم يكن أحد ممن تواصلت معه يتكلم السّواحليّة. ولذا، فقد كان بإمكانني طلب نصيحة مسعودي علناً في أية مشكلة دون أن يفهمنا أحد، وكان هذا ممّا عاد نفعاً جَمّاً عليّ. كنت حريصاً أن أتكلّم معه بسرعة فائقة حتى أعطي الانطباع أنّي أتكلّم بلغتي الأم. وفي الحالات التي اضطرت بها إلى أن أتكلّم السّواحليّة مع أهلها، كنت أعكس الآيّة وأدعي أنني ولدت في مَسَقَط وأنّ لغتي الأم هي العربية. لم أصادف أيّ إنسان كان ضليعاً باللغتين في آن واحد ليكشف حيلتي، وبالطبع كنت أتخذ كلّ الاحتياطات حتى لا أختلط بمجتمع قد يجمع بين اللغتين. وأعتقد أنّ «بُرتون» Burton قد استعمل هذا المنهج ذاته في رحلته، وهذا لعمري لهو أمر منطقي.



تركنا الإسكندرية بحراً في يوم أربعاء الساعة الرابعة بعد الظهر. وكنا قد توجهنا إلى مكتب الجمارك في الساعة الثانية لاستلام حاجياتنا. ومن هناك، أخذنا إلى مفوضية الشرطة، حيث حُقّق في جوازات سفرنا مرة ثانية، وتمّ تفحص ملامحنا جيداً عسى أن نكون أحد المجرمين في الصور الملتصقة على الجدران. عندما تأكّدت الشرطة أنّنا لا نشبه أحداً من المطلوبين، أرسلنا إلى مكتب الحجر حيث فُتحت أمتعتنا مرة أخرى، لكن بما أنّها لم تحو أيّة ملابس غير نظيفة، فقد تجاوزنا عملية التبخير وأرسلنا إلى غرفة أخرى بانتظار الطبيب الذي سيعايننا.

كانت المعاينة هزلية.. فقد طلب منا أن نقف في صفّ واحد، حيث مرّ الطبيب أمامنا ينخسنا تحت إبطنا، ومن ثمّ سمح لنا بالتوجّه إلى السفينة. إنّ الحكمة من هذه المعاينة هي اكتشاف أيّ تدرّن غددي والذي هو علامة للإصابة بالطاعون، إنما طبعاً أيّ مريض يصل إلى هذه المرحلة المتقدمة لن يكون باستطاعته أن يتحمّل رحلة من هذا النوع، ولذا لم أر أيّ فائدة من هذه الإجراءات. إن كانت المعاينة ضرورية، فكان يجب أن تكون شاملة، بما فيها قياس الحرارة التي تكشف أيّة إصابة في بدنها. إنّ

إجراءات الحجر الصحي المتبعة الآن في هذه المنطقة من الشرق مقصود بها الإزعاج فحسب.

كانت السفينة البخارية إحدى أكبر رفيقاتها، وزن أكثر من 5000 طناً، إن أسعفتني ذاكرتي. وكانت مكتظة جداً، على الأقل على متنها. استقرّينا في مؤخرة السفينة لأننا وصلنا متأخرين حيث حُجزت الأماكن الجيدة لأول الواصلين. وبعد مشادة حادة، تمكنا من أن نضع سجادتنا فوق صندوق كبير معلق على جانب السفينة، حيث بدأ لي موقعاً مهمماً، فهو نظيف وفوق الزحام. أما الاعتراض على هذا الموقع، وكنا قد علمنا عنه بعد الإبحار، وكان الوقت متأخراً للتغيير، فكان صندوق الثلج. فكلما احتاج طاهي السفينة إلى أي شيء، كان علينا أن نلفّ السجادة ونرفع حاجياتنا من فوقه لنخلي الطريق للطاهي، كلّ هذا سبّب الكثير من الإزعاج لنا والكثير من التسلية والفكاهة لبقية المسافرين. حصل هذا المشهد عشر مرات يومياً.

في ذلك المساء، عرض علينا الرّبان غرفته مقابل جنهين. فعرضنا عليه مبلغ عشرة شلنات لكتّنا اتفقنا على جنه لويس واحد. أما القمرة، التي تحتوى على سريرين خشبيين، فكانت فوق دفة القيادة مباشرة. ووفّرت لنا بعضاً من الخصوصية المرّحب بها، وملجأً من رداءة الطقس، لكن كان من المستحيل أخذ قسط من النوم هناك بسبب الحرارة ورداءة التهوية، بالإضافة إلى حجم وشراسة الذباب فيها.

كان بقية الركاب خليطاً من جميع الأجناس والألوان: يونانيين، إيطاليين، مصريين، عرب من الغرب، سوريين وأتراك، محتشدين على متن السفينة حيث كان من المستحيل أن تسير بينهم دون أن تدوس على أحدهم. وكان الجميع مشتركاً في سوء الحظ، فقد كان البحر هائجاً وكان معظمهم بحارة سيئين، لكنهم لم يكونوا عدوانيين، ممّا سهّل الأمور إلى حدّ ما. ولم يكونوا فقراء، فالعديد منهم، بلا شك، كان قادراً على أن يتحمّل تذكرة الدرجة الأولى أكثر من الذين حجزوا أماكن لهم هناك. إنّما كقاعدة، يفضل المسلمون أن يسافروا بهذه الطريقة بسبب الطعام. وهذا الأمر مافتى يفرض صعوبة لذوي الطريقة التقليدية، حيث بالنسبة لحرفية القانون الشرعيّ، لا يحلّ اللحم

إلا إذا كان الحيوان قد دُبِح بالطريقة الإسلامية. ففي البلاد الإسلامية، تختتم اللحوم الحلال بخاتم من الحكومة ولا بد أن يُبين للمستهلك عند طلبه ذلك. بالإضافة إلى أنهم مشيرون عن تناول الطعام الأوروبي في حال دخلت فيه منتجات الخنزير. وبالطبع، إن كان قانونهم مطبقاً بصدقية، فهو يحول المسلم عن التجوال في أوروبا. بينما يؤخذ بعين الاعتبار أن تجنب تناول أي طعام معروف عنه باحتوائه لحم الخنزير يطابق روح التشريع.

* * *

وصلنا بور سعيد في اليوم الثاني، وقضينا اليوم بطوله على الشاطئ، ممّا يفسر عدم صلاحية قوانين الحجر الصحي. حيث يمكن لأيّ كان أن يترجّل من السفينة مدعيّاً ببساطة أنه قادم من الإسكندرية. إنّ بور سعيد ليس بالمكان المقبول في أيّ زمن، لكنني لم أستسغ وجودي هناك أكثر من أي وقت مضى. كنّا سعداء عندما انتهى الأمر. وفي الصباح التالي وصلنا يافا، ميناء القدس حيث ترجّل عدد لا بأس به من المسافرين وانضمّ غيرهم. كان مرسى السفن مفتوحاً، وفي الطقس العاصف كان الصعود إلى القوارب صعباً جداً.

وباعتبار أنّنا وصلنا إلى الأراضي التركية، فقد وجب علينا الحجر الصحي مرة أخرى. حُمِلت آلة التبخير المطهرة إلى متن السفينة وطلب منا أن نتجرّد من ثيابنا حتى يتمّ تطهيرها ويتمّ فحصنا. هنا، رفضت هذا الأمر ورشوت أحد الموظفين بدولار واحد حتى يطلق سراحنا. أخذ الموظف المال بطيب نفس، ممّا دعاني إلى الاعتقاد أنّي غاليّ له في المبلغ. وحصلنا على بطاقة تشهد لنا بأننا «أنجزنا» وشقّقنا طريقنا إلى الطبيب الذي كان في ردهة في الطرف الآخر من السفينة، وذلك للحصول على إفادة لدخولنا بيروت. سنحت لنا الفرصة لتتمتّع بمشهد تبخير بقية المسافرين الذين كنّا سنكون من ضمنهم لو انتظرنا دورنا. كان الاستماع إلى مفرداتهم حين أرجعت ملابسهم المبتلة لهم وقد اختلطت ألوانها متعة. حين تم الانتهاء من «إتلاف» ملابس الركاب، رُشّ بقية سائل التطهير على السفينة بشكل عشوائي، ممّا أثار حفيظة بعض

المسافرين فاثألوا يشتمون، وهم الذين استقبلوا الرذاذ في أعينهم. وعندما تم الانتهاء من التسبب بأكبر قدر ممكن من الإزعاج العام انسحب فريق الحجر الطبي وأخلي سبيلنا.

كانت الرياح تعصف طوال النهار، ويحتاج البحر معها. وصلنا إلى حيفا عند حلول الليل، وبقينا هناك ساعة من الزمن قبل المغادرة. وخلال مرورنا بالخليج المحمي بمحاذاة جبل الكرمل دخلنا في بحر هائج جداً. تكسرت أمواج عاتية على السفينة، وكان موقعنا على صندوق الثلج متزعزعاً جداً. لجأت أنا ومسعودي إلى قمرتنا، لكن عبد الواحد، الذي تخطى مرحلة الخوف من الغرق، رفض أن يتنقل. وحتى لا نخسره بهذه الطريقة، سحبناه وأمتعته إلى مكان أكثر أمناً، مع أنه كان مبتلاً بماء البحر. كان ظهر المركب في حالة مزرية، لكنني هنأت نفسي على حصولي على هذه القمرة. وبعد ليلة غير مريحة، إنما كانت أفضل عشر مرات من ليلة من قضاؤ الوقت على ظهر المركب المكشوف، هداً البحر، ودخلنا ميناء بيروت عند الفجر.

* * *

كنت أتوقع شراً مع السلطات في ميناء بيروت، حيث أتى أعلم أن إجراءات دخول الأجانب في تركية دقيقة جداً. حضرت نفسي لاستجواب متعب، وتوقعت حجزنا لفترة غير قصيرة. ولذا كنّا على استعداد لأيّ طارئ ولاجابة أية أسئلة محتملة. فمثلاً، لو أثارت عدّتي الطبية أية تساؤلات، كان على عبد الواحد أن يدّعي أن أخاه، الطبيب في بغداد، طلب منه ابتياعها من أوروبا، معتمدين على أن السلطات لا علم لها بمهية هذه الأدوية واستعمالاتها. كانت هذه خطة لتجنّب ما حصل معنا في الإسكندرية.

إنّما بالحقيقة، كلّ هذه الاستعدادات كانت غير ضرورية. فعند ترجلنا من السفينة، توجّهنا إلى مكتب صغير حيث ختم موظف بلباس رسمي جوازات سفرنا بعد أن ألقى نظرة سريعة على محتوياتها. وأظهر بعض الاهتمام الطفيف بالسيف الذي أحمله، وهو سلاح مميز من مسقط، إنما بعد أن تناوله وقلبه على مكتبه أعطاني إيّاه دون أيّ تعليق. ثم توجّهنا إلى الجمارك، حيث فتحنا صناديقنا دون أن نُسأل إن كان معنا شيء

للتصريح به. وبعد تدقيق سريع سُئلنا إن كنّا نحمل أيّة أسلحة، فأظهرنا ما معنا. لكن عندما عرف أننا من الحجاج، لم يعترض على حملنا السلاح، مع أننا دفعنا غرامة بسيطة عليه.

خلال هذه الإجراءات، متّعت نفسي بمراقبة ما يجري مع بقية المسافرين، ولاحظت أنّ بعضهم لم يسلم من التدقيق. واجه بعض المسافرين الأوروبيّين المتاعب نفسها التي صادفتنا في الإسكندرية. وأعتقد أنّ الانفتاح الذي بدا في تركيا كان له الأثر الأكبر في تيسير تحقيقات الشرطة معنا والتي كانت من قبل مصدر إزعاج كبير. مهما كان التفسير، فالمهم أنّنا مررنا بغير صعوبات تذكر، ووجدنا أنفسنا قد دخلنا الأراضي التركية ولدينا الحرية التامة في التوجّه حيثما شئنا.

حصلنا على غرفتين كبيرتين نظيفتين في فندق بمبلغ فرنكين لليلة الواحدة. والواقع أننا لا نستطيع أن نطلق على الفندق هذا الاسم حيث لم يكن هناك أيّ طعام متوفّر فيه. وأمضينا النهار نتجوّل في المدينة ونبتاع ما نحتاجه. إنّ بيروت لديها ميزة خاصة، وهي شرقية أكثر من أيّ مكان آخر زرته في مصر، إنما ليست كدمشق. يتألّف السكان في الأغلب من المسيحيين واليهود. كنت أحبّ أن أقضي هنا بضعة أيّام، لكن لأسباب مختلفة قرّرنا التوجّه إلى دمشق. وكنا ممتّنين لعدم حاجتنا إلى السفر بالبحر (أو هكذا ظنّنا) وقد ملأنا السعادة لنجاحنا في مهمتنا إلى الآن. بعد تناول العشاء، جلسنا أمام مقهى في المركز الرئيسي للمدينة، دَخْنَا، وتناولنا بعض القهوة، وتحدّثنا مع مختلف الناس. وخلدنا إلى النوم باكراً حيث كان بانتظارنا سفر في فجر اليوم التالي.

* * *

الفصل الثاني

دمشق

إنّ المشاهد في الأراضي اللبنانية قد وصفت كثيراً، وأجملها منظر البحر الأبيض المتوسط من على قمم الجبال.

سافرنا في الدرجة الثالثة مع مجموعة من التجّار السوريين من دمشق، الذين ما فتئوا ينتقلون من حديث إلى آخر دون انقطاع، لم أفهم معظمهم، حيث وجدت صعوبة في متابعة الحديث. وتناسينا حرارة الجو والإرهاق عند تناول التين والعنب المتوافرين في كل محطة، حتى أنّنا تناولنا فائضاً منهما. ولقد لاحظتُ في حافلة الدرجة الأولى أنّها مريحة وتقريباً خالية من المسافرين. يبدو أنّ الاقتصاد في السفر خاصيّة شرقية. شخصياً، أؤمن أن لا وقت أفضل من الإسراف حين السفر. وقد قيل إنّ الاستمتاع بالثروة يتجلّى في قدرتها على إبعاد متاعب الحياة الصغيرة. يبدو، على أيّ حال، أنّ المال ينفع في ذلك خلال السفر. لكنّي لم أصادف أيّ شرقيّ يعدّ أنّ دفع المزيد من المال للسفر في الدرجة الأولى أو استئجار جمل إضافي فكرة مرعبة، مع أنّه مستعدّ للإسراف على كماليّات تعجبه.

إنّ دمشق إحدى أكثر مدن الشرق كثافة سكانية وجمالاً. فهي تحتوي على أميال من الأسواق المسقوفة ذات الميزة الشرقية. ويقال إنّ فيها ألف مسجد وسبعين حمّاماً تركيّاً، مع أنّي أشكّ في هذه الأرقام. يشقّ المدينة وما حولها جداول متعدّدة، بينما تحيط الحدائق الغنّاء بضواحي المدينة لمساحات واسعة. وتتميّز فيها الثمار والزهور، أما الجوّ الهادئ والجاف فلا بدّ أن يكون صحيّاً. ومع أنّ النهار حارّ في الصيف

فالطقس يصبح مع ذلك منعشاً خلال الليل، فلا يكون حارّاً حتى تحتاج النوم على السطح المكشوف كما هو الحال في بغداد والمدن العربية. أما في الشتاء فتمرّ بعض العواصف الثلجية، ولذا فإنّ الأسواق مسقوفة. إنّ البنيان الرئيس هو مسجد عظيم في وسط المدينة، وأعتقد أنّه الأكبر في العالم. قبل سيطرة الإسلام على سوريا، كان هذه المبنى كنيسة. أما من ناحية الأبنية الأثرية، فإن دمشق مخيَّبة للآمال ولا تقارن بالقاهرة. هنالك القليل من الأبنية، وتمتاز المنازل بالبساطة مع أنّ الأسواق حيث يعيش معظم التجّار ويعملون لها طابعها الخاص.

كما هي العادة في الشرق، تنقسم المدينة إلى قسم إسلامي وهو أكبر أقسام المدينة وأغناها، وآخر يهودي وثالث مسيحي. هناك فندق واحد محترم، حيث ينزل الأوروبيون عادة، والكثير من النزل للزوار الشرقيين. حططنا رحالنا في غرفة كبيرة في أحد هذه النزل، حيث نصحبنا به مرافق لنا في القطار، لكن لم يكن النزل هذا من أفضل ما هو موجود عدا عن أنّه عالي التكاليف، فغيّرنا المقام لاحقاً. كنّا نتناول الطعام في مقاه مختلفة حيث أنّ الطعام لا يقدّم في الفنادق هنا.



كان اليوم العشرين من رمضان⁽¹⁾ وحيث أنّنا لم نقصد التوجّه إلى المدينة إلا بعد شهر، فكان لا بدّ لنا من أن نوقّر الراحة لأنفسنا. بإلقاء الضوء على ما سيكون في المستقبل، وجدت أنه من المناسب أن أؤقلم نفسي على الحياة الشرقية قدر المستطاع. كان من الضروري أن أتعلّم بعض الجمل، والأقوال وكيفية الترحيب والإجابة الصحيحة عليها. ومن الضروري أيضاً أن أتعلّم شعائر المسلم، عند دخوله وخروجه من المسجد، دون أخطاء، وأن أرتدي الملابس بالطريقة التقليدية، حتى لا يكشف ستري.

هذه هي التقاليد التي تكون عقبة أمام الأوروبي المتحقّي كمسلم أصلي، حيث أنّها

(1) كتب المؤلف: يلفظ حرف الضاد كالزاي سهيلاً.

مشتركة في العالم الإسلامي، وأي خطأ يلفت الانتباه إليه. فمثلاً، مهما كان الأوروبي، ومهما اهتم بهندامه الشرقي، ومهما أتقن اللغة، فلو قال له أحدهم «نعيماً» بعد أخذه حماماً ولم يعرف كيف يجيب، سيُعرف أنه «إفرنجي» تماماً كأنه ينزل إلى الشارع معتمراً قبعة اجنبية. أيّ خطأ في الصلاة، أو عند زيارة ضريح أو حتى في إجابة عند حضور درس ديني قد يكون مميتاً. إن التمرين المسبق ومراقبة النفس واجبان لإنجاح مهمّة من هذا النوع. وتكمن الصعوبة في أمور مماثلة وليس في اللغة أو الهندام. يتواجد في مكّة رجال بيض بقدر ما هناك رجال سود أو سمر. ومن المعتاد أن ترى من العرب السوريين من هم بيض البشرة زُرق العيون. وقد سُئلت مرّة بأي لون أخفيت نفسي في هذه الرحلة. إن سؤالاً من هذا النوع يبدي جهلاً فضولياً خلف التعصب ضدّ أجناس البشر، وهو ما يتباهى به بعضهم. ربما يكون هذا كمثل فرد لوّن نفسه بالأسود ليمثل مسرحية هامليت.

إنما ينبغي ألا يُستخلص من هذا الطرح أنّ على المتخفي أن يكون ممثلاً بارعاً لينجح في مسعاه. إنّ الأمر الرئيس هو أن يكون شديد الملاحظة وقليل الكلام. ومن الممتع سهولة اكتساب عادات غريبة عندما يندمج المرء في مجتمع جديد. أعتقد أن السّرّ يكمن في لعب الدور بعفوية، وأن يصدّق المرء نفسه في دوره الجديد إن كان منفرداً أو بين الناس.

وليس من العملي أن يبعد المرء نفسه عن الناس ويتجنّب الحديث مع أيّهم. فعند السفر في هيئة شخصية محترمة، أنيقة، وبرفقة خدام، من الصعب أن تتجنّب مقابلة ومعرفة الناس، وإلى حدّ ما، أن تقبل ضيافة الغير وتُحسن ضيافتهم. فمن الأفضل أن تمارس هذا في العلن، طبعاً بعد الكثير من الدراسة الخاصة ما استطعت إليها سبيلاً، وذلك لتعوّد نفسك على الأجواء الاجتماعية. شخصياً، نلّ أنا مساعدة جمّة من كوني خجولاً بطبعي حول الناس، ومما لم يحتج مني أيّ تمثيل، حيث كنت لا أدّعيه إدّعاءً. ساعدني هذا الخجل على الملاحظة، وقلة الحديث، وفُسّر بعض تصرفاتي غير اللبقة.

إن كان الهدف مجرد زيارة مكة المكرمة، أو أي مكان آخر، سرّاً، عليّ القول إنّ أسهل وسيلة لذلك هي التنكّر بزيّ فقير، بثياب رثة، وخمس جنيهاً في جيبه فقط لا غير. أما إذا كانت الرحلة ستمتد إلى فترة من الزمن، فلا مجال إلا للاعتراض على هذه الفكرة، فلن يكتسب المسافر أيّ خبرة تذكر. ومعظم الناس يفضلون تمضية وقتهم بطرق أخرى.

كم هتأث نفسي على لختياري دمشق بدلاً من مصر كمركز لإقامتنا في المرحلة الأولى من الرحلة. إنّ فرص اكتشافنا ستكون كبيرة هناك، حيث أنّ الناس أكثر فضولاً وأكثر انفتاحاً في الحديث مع الغرباء وبمظاهر وعادات أوروبية أكثر منهم في آسيا الصغرى. وحيث أنّهم سُمر البشرية، فإني سأظهر دائماً بمظهر الغريب بينهم، بينما في دمشق، وفي الزيّ المحليّ، لم يكن هناك أيّ شيء يميّزني عن أهل البلد. أخطأني البعض باعتقادهم أنّي من أهل المدينة المنورة، حيث أنّ الكثير منهم يزور دمشق بعد الانتهاء من إنشاء السكة الحديدية، وخصوصاً في هذا الوقت، قبيل موسم الحجّ.

بما أنّنا لم نعد على سفر، لم يكن هناك أيّ عذر لإفطار أيام رمضان. إنّ الصيام أحد أعمدة الإسلام الأربعة المفروضة على جميع المؤمنين. إنّما يعطي الشرع عذراً للإعفاء من الصيام، مثلاً إن كنت على سفر، أو في حرب، أو مريضاً ممن يضرّه الصيام. لم يتعاطف الرسول مع الزهد، ولاحظت أنّ الصيام متّبع عموماً. وقد قيل لي إنّ هناك بعض الإهمال للصيام في الجزء الأوروبي من تركيا، إنّما مظاهر الصيام في الأماكن التي زرناها كانت واضحة جداً.

كنا بالطبع شديدي الانتباه لتجنّب كشف سترنا إنّ لم نقم بكلّ الواجبات الدينية. أما عبد الواحد فقد اعتاد أن يمتّع نفسه ببعض حلوى الزلاية ضمن غرفتنا بغضّ النظر عن أيّ اعتراض منّا، وكان الاعتراض وافرّاً. حتى أنّ مقاطع من الآيات التي تظهر مصير كلّ منافق يتظاهر بالصيام جهراً لم تكن لتردعه عن الإفطار دون عذر. بقدر ما ذكرنا عذاب جهنّم واليوم الآخر، بقدر ما كان عبد الواحد يستمتع بحلوى الزلاية.

لم أجد في الصيام مشقة تذكر، الحرمان الرئيس كان الحرمان من التدخين بالطبع، وطالما كان لدى الفرد حرية المأكّل ما بعد الغروب، فلم أجد فيه صعوبة، وقد كنت أنام

جزءاً لا بأس به من النهار. اتّخذنا لأنفسنا العادات التالية خلال رمضان: كنا نستيقظ حوالي الساعة التاسعة والنصف، نتوضأ ونقرأ بعض الصحف أو الكتب إلى الحادية عشرة، ثم عادة ما نخرج. بعد التجوال في الأسواق حوالي ساعة من الزمن، نلجأ إلى المسجد الكبير بانتظار صلاة الظهر، ونبقى، أنا ومسعودي، في المسجد نقرأ أو نستمع إلى حلقات الذكر والمحاضرات إلى حين صلاة العصر في الثالثة والنصف، أما عبد الواحد فيكون قد توجه إلى تناول غدائه. ومن ثمّ، نقفل عائدتين إلى الفندق، نبتاع ما نحتاجه على الطريق من حلوى أو فواكه وما إلى ذلك باعتبارها «إفطار رمضان». والغروب، الذي يعلن الأذان، يحيى بإطلاق نار مدفع. بعد تأدية صلاة المغرب، والتي تحتاج إلى دقيقتين، باستطاعة المؤمن أن يبدأ بتناول الطعام. عادة ما ندخن النرجيلة في المقاهي، بعد سدّ الرmq، لمدة ساعتين من الزمن، ثم نتوجه إلى أحد المطاعم لتناول وجبة كاملة، والمزيد من القهوة والنرجيلة، ومن ثمّ الحمام التركيّ. نمتّع أنفسنا أحياناً بمشاهدة بعض العروض الغنائية في المقاهي، وكان هناك الكثير من الفرق الغنائية، أو نذهب إلى بعض المقاهي الخالية من الصخب، حيث نستمع إلى الحكواتية أو نقرأ لتمضية الوقت. حوالي الساعة الواحدة أو بعدها بقليل، نتناول «السحور»، الوجبة الثانية، ونأكل قدر استطاعتنا، وليس ذلك لأننا نشعر بالجوع، بل حتى نستطيع أن نبقي بلا طعام خلال اليوم التالي. وقبيل الفجر، يدوي المدفع مرّة أخرى كإنذار، ثم بعد دقائق عدّة يدوي ثلاثة منذراً بالإمساك لصيام يوم آخر.

تستمر الأعمال في دمشق خلال رمضان كال المعتاد. في الصيف، عندما يكون النهار طويلاً وحاراً، لا بدّ أن يضيفي العطش بعض المعاناة على العاملين، وأعتقد أن الكثيرين ممن لا يقومون بأعمال يدوية مرهقة لا وبدّ وأنهم يستمتعون بـ رمضان ويحزنون عندما ينتهي. حيث أنّ الليالي تنبض بالحياة، وهذا موسم لأصناف معيّنة من الأطعمة تُطهى في معظم المنازل، وتباع أطعمة شهية أخرى في الحوانيت لا تجدها في أوقات أخرى غير رمضان. والجميع يشعر بحقّه في الإسراف على نفسه.

* * *

في اليوم التالي لوصولنا حملنا رسالة تعريف من إنكلترا بعبد الواحد إلى أحد التجار المحليين. وجدنا مكتبه في أحد الأسواق الرئيسية، حيث أنّ تجارته كانت تجارة جملة. بعد قراءته الرسالة، رَحَّب بنا أجمل ترحيب، واستعلم عن أحوالنا ورغباتنا، وعرض علينا أقصى ما يمكنه من المساعدة. بقينا عنده حوالي نصف الساعة نتبادل أطراف الحديث معه، وعندما عرف رغبتنا في شراء بعض الحاجيات، رافقنا لعدة حوانيت وعرفنا على أصحابها. هذه الأسواق متنوّعة ومزدحمة إلى درجة أنّ المرء لا يعرف طريقه فيها. وكما هي العادة في الشرق، فإنّ كل باب من أبواب التجارة له سوقه أو شارعها الخاص. فمثلاً، هناك سوق الحرير، وسوق متخصص بالسروج، وسوق الخيل، وهكذا. وتحتوي بعض الأسواق الكبيرة على أكثر من شارع، وقد تتضمن مئة دكان. وما من سلعة لها ثمن محدّد، فلا بدّ من المساومة. وعادة ما يبدأ الشاري في اقتراح السعر، وقد أثبت عبد الواحد أنّه مساوم بارع، فبينما لم يدفع فلساً واحداً زيادة بغير حقّ، كان دائماً قادراً على إبقاء البائع في مزاج حسن. إنّ هؤلاء الناس يتمتّعون باكتفاء ذاتي، فعند أدنى إشارة إلى تعكير مزاجهم، يطلبون منك المغادرة أو شراء حاجتك من مكان آخر. انهم يختلفون اختلافاً كبيراً عن التجار الهنود، الذين هم قلة في دمشق. إنّ التجار الهنود يحتملون أنواعاً من سوء المعاملة على أن يخسروا زبوناً، واليهود على شاكلتهم. إنّ هذه الطريقة تحتوي على مخاطر مضيعة الوقت، إنّما من الواضح أنّها من صميم طبائع الناس وجزء من الحياة في المجتمع، مع أنّ الجميع يعترفون بتفاهتها وعدم ملاءمتها للتجارة.

ورد وصف حوامع دمشق، وأكبرها الجامع الأموي، كثيراً في تاريخ المنطقة ووجهها الهندسي، لذا سأقتصر هنا على ذكر استعمالات المساجد على وجهها الحقيقي. وأقول إنّ النظرة إلى الجامع على أنّه مجرد كنيسة إسلاميّة تحتاج إلى تغيير.

لا بدّ من الاستنتاج إلى الآن أنّ الإسلام هو تشريع اجتماعي كما هو ديني بكل ما لهاتين الكلمتين من معنى. هناك قوانين مقيّدة للأفراد، كما هو الحال في الماسونية، فمن يدخل فيه لا يحقّ له الخروج منه ويكون عقابه الموت. وهناك بعض المقيّدات

على الهندام، وبعض عادات التحية، وبعض السلوك المميز يعرف بها المسلمون بعضهم البعض. ومن خلال المنطلق ذاته، تبعد المقارنة بين الكنيسة والجامع أكثر ما تبعد عن مقارنته بهيكل ماسوني. فلا يُعدّ المأكّل والمشرب غير مستساغين في الجامع، وبالمثل، الحديث عن الأمور الدنيوية أو مطالعة الجرائد أو الكتب. وتخدم الجوامع كملجأ لعابري السبيل، وملتقى لأهل المدينة، مع توفير السلام والهدوء في أي وقت لمن يرغب بهما، طالما روعي الاحتشام.



تُقام الصلاة خمس مرات في اليوم الواحد وفي أوقات محدّدة، وهي الفجر، الظهر، العصر، المغرب، والعشاء. تؤمّ هذه الصلوات بإمام معيّن لهذا الغرض، أو من قبل أي شخص يتواجد ويكون أكبرهم سنّاً. يكون هناك أكثر من إمام واحد في الجوامع الكبيرة ينتمون إلى مذاهب مختلفة، وتقام الصلاة في مجموعات مختلفة إذا حضر الناس. ليس هناك من أثاث في المسجد، بل تغطّى أرضه بالسجّاد وقطع صغيرة للصلاة، وهناك مكان مخصص للوضوء. ولدى النساء عادةً مسجد صغير مخصّص لهنّ بمحاذاة المسجد الكبير، وفي مسجد المدينة المنورة، هناك قسم منفصل خاصّ بالنساء، إنما في مكّة المكرمة يصلّين مع الرجال في أحد جوانب الباحة. إنّ الجوامع، مع اختلاف تصميماتها، تتشابه في البنيان، فالحرّم فيها يمتدّ طويلاً وبزوايا قائمة متّجهاً إلى مكّة المكرمة أو «القبلة» باستثناء الجامع الكبير في مكّة نفسها.

ليس من الضروري التواجد في المسجد للصلاة، إنما تعتبر الصلاة فيه صلاة جماعة وأكثر بركة. وقد تقام الصلاة أينما كان، في مقهى، أو في الباحة الخارجية لحمام العام، أو خلال الزحف، أو في مخيم أو أي مكان آخر. حيث يعيّن الحاضرون لأنفسهم إماماً ويصطفّون وراءه، ويتبعونه في ركوعه وسجوده. ويجهز الإمام في صلاتي الفجر والعشاء⁽¹⁾، ويبقيها سرّية في الصلوات الأخرى. وكنت قد أممّت المصلّين بنفسني عدّة مرات حين لم يكن هناك شخص آخر يليق بهذا المقام حين حانت الصلاة.

(1) ونسي المؤلف أيضاً صلاة المغرب، التي هي جهرية أيضاً.

أما المؤذن، وعادة ما يكون ضريراً، فينادي المؤمنين للصلاة في أوقاتها من على منبذة المسجد. إنّ أصوات المآذن في المدن الكبيرة مثيرة للإعجاب خصوصاً عند الفجر. ويقوم المسؤول عن ترتيب الكتب وتنظيفها في المسجد مقام المؤذن في حال غياب المؤذن المعين.

أما صلاة الظهر يوم الجمعة، وصلوات الأعياد، فهي صلاة جماعة. ويخطب في الناس عالم دين معين لهذا الغرض، يلقي خطبته بعد الصلاة من على منبر مواجه للمصلين. ويعالج موضوع واحد شهرياً في كل المساجد، تكتب الخطبة في مكة وتعمّم على كلّ المساجد في العالم الإسلامي. بعد العظة، يُرفع دعاء طويل لنصرة الإسلام، وهداية الضالّين وغيره. ويحتوي على دعاء بطول العمر والصحة لأمير المؤمنين، السلطان عبد الحميد حينذاك. وهذا الدعاء طبعاً لا يُرفع في مساجد الشيعة، حيث أنّهم لا يعترفون بالسلطان العثماني أميراً للمؤمنين.

تتضمن الركعة الواحدة قراءة السورة الأولى من القرآن الكريم (والتي تماهي الصلاة الإلهية عند المسيحيين) تليها سورة أخرى، وعادة ما تكون من السور القصيرة في آخر القرآن. ثم يأتي الركوع الأول، إذعاناً لعظمة الله، ويُختم الركوع بالسجود والدعاء للرسول والإسلام بشكل عام، وتضرّعات أخرى. إنّ الصلاة تتضمّن عدداً معيناً من الركعات، أكثرها أربع وأقلّها اثنتان. تتلى التسابيح في آخر الصلاة باستعمال مسبحة مكوّنة من تسعة وتسعين حجراً، على عدد أسماء الله الحسنى والتي يقتنيها معظم الناس، ومن ثم ترفع الأكفّ إلى الأعلى ويدعو المصلّي بما شاء وبلغته الخاصة. إنّ صلاةً من أربع ركعات تحتاج إلى حوالي ثماني دقائق، أو أكثر إن كانت وراء إمام. إنّ هذه الصلوات الخمس مفروضة. إنما ليس من الضروريّ إقامتها في أوقات محدّدة. فلا حرج أن تؤخّر الصلاة إلى وقت آخر مناسب إن كان المصلّي مشغولاً عندما تحين. يصلي معظم الناس عندما يستيقظون صباحاً، وظهراً، ويجمعون العصر مع المغرب، ثم قبل الخلود إلى النوم.

إنّ الوضوء نوعان، بحسب طهارة المتوضّئ. أوّلهما الغسل وهو الأعظم، والوضوء

في حالة الطهارة، وهو غسل اليدين، والرجلين والوجه، وهو لازم قبل الصلاة ويمكن القيام به في المسجد حيث دائماً ما يجد المصلّي الماء اللازم لهذه الغاية.

إنّ هذه الممارسات الدينية تلعب دوراً كبيراً في حياة الشرقيّ (المسلم) لدرجة لا بدّ أن تذكر بالتفصيل.



توالت الأيام المتبقيّة من رمضان على هذه الحال وبغير أحداث تذكر. إنما في اليوم الأخير، قامت فتنة كادت تؤدي إلى نتائج خطيرة. ولا بدّ من رواية الأحداث تلك لأنّها تلقي ضوءاً على شخصية الناس وعلى حكومتهم.

سبب هذه الفتنة كان بسيطاً. فأحد أتباع المذهب الوهابي والذي يعدّ منشقاً⁽¹⁾، كان في المسجد الكبير بينما كان بعض الناس يزورون ضريح النبيّ يحيى، المفترض أنّه مدفون هناك. تتضمّن هذه الزيارة الوقوف أمام الضريح وتلاوة تحية طويلة للمتوفّى. ويعتقد الوهابيون أنّ زيارات من هذا النوع هي من أعمال الجاهلية. فبدأ الوهابي بوعظ الناس لترك هذه العادة، وتجمّع حوله عدد كبير يستمعون إليه، وكان أحدهم من أهل مكة، من علماء الدين المعروفين، فأوقف وعظ الوهابي حين ضربه على رأسه. وصادف أن تواجد حاكم دمشق في المسجد في ذلك الوقت وشاهد تلك التصرفات غير اللائقة، فأمر بإلقاء القبض على عالم الدين دون التحقيق في الأمر.

لم يحصل أيّ شيء آخر حتى المساء، حين بدأت جمهرة من الناس في التجمّع أمام مكاتب الحكومة، مقابل الفندق الذي ننزل به في الساحة الكبيرة للمدينة. كان هذا نتيجة لأحداث ما بعد الظهر، والهدف من الجمهرة إطلاق سراح المسجون الذي تعاطف معه الكثير من العامة. عندما بدأ الناس في التجمّع، ظننا أنّ الهلال قد رُوي

(1) هذا غير صحيح، فحركة الإصلاح السلفي (وليس الوهابيّة) تلتزم المذهب السنيّ الحنبلي، وفي أيام رحلة وافل كانت الدولة العثمانية تتهم السلفية بالانشقاق لمخالفتها في ممارسات العقيدة، وكانت الدولة تميل كثيراً إلى الصّوفية بعكس السلفية الأصولية التي ترفض الصّوفية وبدعها.

ممّا يعني نهاية الصيام وبداية عيد الفطر. كان مسعودي مريضاً في الفراش، لكني وعبد الواحد هرعنا لمعرفة ما يحصل، فألفينا أنفسنا وسط المعمة حين حدوثها. هاجم الناس باب المبنى وفتحوه عنوة ودخلوا المبنى من شرفة كان فيها واعظ قصير القامة يحاول التكلّم معهم. لكن وصول عدة فرق من الشرطة وضع نهاية لخطبته فيهم، واستعادت الشرطة السيطرة على المبنى وإخراج من دخل اليه عنوة.

كانت هناك محاولات لتفرقة المتجمّعين بغير جدوى، إذ كانت أعدادهم تتزايد باستمرار. ثم وصلت إمدادات لقوة الشرطة معززة بالسلاح الأبيض، لكنهم استعملوا أعقاب البنادق فقط. وردّ المتجمهرون على أفراد الشرطة بالحجارة والعصى وأي غرض يُحمل، وأصيب العديد، لكن بحسب معرفتي كانت الإصابات طفيفة. هدّدت فرقة الشرطة بإطلاق النار، لكن لحسن حظنا لم تفعل. استمرّ هذا الصّخب إلى منتصف الليل حين أسقط في يد حاكم المدينة وأطلق السجين الذي حُمل إلى منزله منتصراً وسط بهجة عامة. لقد عوملنا بعنف خلال هذا الشغب الذي لم يكن باستطاعتنا تجنّب التواجد وسطه. فقد أصابني ضربة قوية من فوهة بندقية على الكتف الأيسر ألمتني كثيراً.

في طريق العودة إلى المنزل، توقّفنا للاستماع إلى موظف تركي طاعن في السنّ يخطب في الناس. قال، «إذا كان هذا رأيكم في الحرية، فإنّي أحذركم أنّ الدستور لن يدوم طويلاً، وسنخسر ما ناضلنا من أجله. قبل يوم الحرية، لم تكونوا لتجروا على التصرّف بهذا النحو، وهذا التصرّف يعلن للملأ أنّ هذا البلد ليس مخوّلاً لاستقبال المؤسسات الحرّة». وتطرّق إلى فكرة أنّ الرجل كان سيُطلق سراحه في صباح اليوم التالي، أو على الأكثر عند معرفة السلطات لحقيقة ما جرى في المسجد.

* * *

لقد سمعنا الكثير عن الحرّة في دمشق. في ذلك الوقت كان الحماس للنظام الجديد في أوجه، ولم يتقبّل أحد رأيي الرجعي في الأمر. كنت أوّمن أنّ المشاكل في البلقان كانت بسبب النعمة ضدّ النمسا. اقترحت مقاطعة البضائع النمساوية وطبقت

في القسطنطينية. وأو من أيضاً أنّ النظم الانتخابية لا تنجح طويلاً في الشرق، حيث أنّ شخصية الناس تتطلب حاكماً قوياً لا يدين بمركزه لأهوائهم.



تمتاز نهاية رمضان باحتفالات فيها الكثير من إطلاق النار ومظاهر الفرح. ويزدان الناس الموسرون بملابس جديدة، وتقفل الأسواق وتخلو المدينة من الحركة اليومية. إنّ الزي السوريّ ليس بالمزركش قدر أزياء أماكن أخرى في الشرق، حيث يرتدي معظم الناس سراويل واسعة من القطن، وقميصاً طويلاً يصل إلى الركبتين، وثوباً ملوناً من الحرير مفتوحاً من الأمام ويلف إلى وراء. وفوق ذلك، يرتدي البعض معطفاً أوروبّي المظهر في الأيام الباردة، والبعض الآخر يختار «الجبة» وهي ثوب عربيّ الطراز يشبه الثوب، مصنوع من أي مادة وأي لون. ويعتَمرون الطربوش الذي يُلَفّ حوله قطعة من الحرير. أما الغرباء فهم يتزيّون بأزياء بلادهم ممّا يضيفي مظهراً مبهجاً في الشوارع، خصوصاً عند اقتراب موسم الحج حين يكون هناك الكثير من الغرباء في زيارة للمدينة قبل التوجّه إلى المدينة المنورة. كانت الملابس التي ابتعناها خفيفة لهذا المناخ، ولذا فقد تزيّنا بالملابس المحليّة، إنّما لم يكن عبد الواحد ليسمح لي باعتمار الطربوش خوفاً من الاعتقاد بأنّي تركي الأصل. ولذا فقد ارتديتُ قفطاناً وجبة سوداء، فظهرت كأنني من أهل الحجاز.



في يوم عيد الفطر قمنا بزيارة صديقنا التاجر عبد الله وريدي في منزله في الضواحي، حيث يملك حديقة غناء صغيرة فيها نوافير مياه. إنّ قاعات الاستقبال في المنازل الشرقية عادة ما تكون متطاولة كالبهو، وتنتهي بمصطبة مرتفعة تكثر عليها المساند، حيث يجلس سيّد المنزل وضيوفه بينما يقف الخدم أو يجلسون في القسم المنخفض من المنزل قرب الباب. لقد أكرمت وفادتنا وأمضينا بضع ساعات هناك كما هي العادة. ولقد ردّ الزيارة في اليوم التالي، وبذلك أصبحنا على علاقة طيبة معه.

في اليوم الثاني من العيد شهدنا مغادرة المحمل إلى مكّة المكرمة. اعتادت قافلة

الحجّ التحرك في هذا الموعد قبل افتتاح السكّة الحديدية، تحتاج الرحلة إلى أربعين يوماً من المعاناة حتّى للأغنياء للوصول إلى المدينة المنورة، أما الفقراء فهم يعانون الأمرين مشياً على الأقدام. والمحمل عبارة عن هودج مطوّز على ظهر الجمل، يُرسل من المدينة مع هدايا أخرى سنوياً إلى الحرمين الشريفين تعبيراً عن الاحترام. ويُرسل محمل آخر من مصر، وكان يُرسل ثالث من بغداد لكنّه توقف في السنوات الأخيرة لسبب أو لآخر. يتجمهر الناس ليودّعوا المحمل قبل سفره، ويرافق الحاكم وبعض وجهاء البلد الموكب إلى مسافة غير قليلة. والجمل المختار لشرف السفر يكون جملاً كبير الحجم وأعتقد أنّه من الهجن الأصائل.



بعد ذلك بعدة أيام تعرّفنا على أخوين يدرسان الشريعة في مدرسة كربلاء، متوجّهين إلى الحجّ. لقد سُرا بالتعرّف إلينا حيث لم يكونا يعرفان أحداً في دمشق، وقد أمضينا وقتاً كثيراً أبرفقتهما في ما تبقى لنا من الزمن. دعوناها إلى حفل عشاء وسهرة موسيقية، وبالمقابل رافقانا إلى المسجد الذي يضمّ قبر السيّدة زينب بنت علي⁽¹⁾، مع أنّي أشكّ بصحّة هذا الاعتقاد. كانت الرحلة إلى المسجد ممتعة وقد أعطتنا فكرة جيّدة عن جمال المنطقة وخصوبتها. وعند وصولنا إلى المسجد الذي يبدو حديثاً، قمنا برفع دعاء الزيارة بالصوت الشجي للأخ الأكبر، الشيخ حسن. وبما أنّه لم يكن هناك أحد في المسجد، اتّخذنا لنا مكاناً ودخنا بعض السجائر، وكان خطأً منّا فعل ذلك. وعند خروجنا حفرنا أسماءنا على الجدار الخارجي، كما هي عادة العرب الغربية.

في المساء تناولنا طعام العشاء مع الأخوين في منزلهما في دمشق الذي اتّخذاه لمدة بقائهم، وكنتُ تميّت لو فعلت مثلهما بدلاً من البقاء في الفنادق. ومن الخطأ الاعتقاد أنّ الطعام في الشرق لا يتناسب والذوق الأوروبي أو أنّه يحتاج إلى وقت للاعتياد عليه. لقد وجدت الطعام رائعاً، مع أنّه كثير التوابل. ومع أنّ الشرقيين لا يتناولون المُسكرات، فإنهم لا ينزعجون من جوّ مرح على مائدة الطعام.

(1) كتب المؤلف: زينب بنت الرّسول، وهو غلط.

لقد اعتزمنا أن نسافر سوياً إلى المدينة المنورة، لكن هذه الخطة فشلت بسبب وقوع الشيخ حسن في الحب. لقد أعجب بآبنة أحد التجار المحليين، وعلى الفور تقدّم لخطبتها، وبما أنّ مفاوضات الخطبة قد لا تنتهي قبل موسم الحج فقد تعيّن تأجيل السفر. لقد تفاجأت أنّ أخاه احتمل هذا الهراء وعبر عن رأيه، لكنهما كانا قد قرّرا تأجيل السفر، وأستطيع القول إنّ هناك أسباباً أخرى لهذا التأجيل لم نسمعها منهما.

* * *

حوالي ذلك الوقت كنّا ملزمين أن نغيّر مكان إقامتنا، حيث أنّ الفندق الذي نزل فيه كان على وشك أن يُزال. اخترنا فندقاً آخر إنما ما فتّنا أن غيّرناه في صبيحة اليوم التالي لأسباب جيّدة. لا زلت أشعر بالحاجة إلى الحكاك كلما تذكرته. أصبنا نجاحاً في اختيارنا الثالث مع أنّ الكلفة كانت أكثر ممّا أردنا. وكانت الغرفة التي حصلنا عليها مريحة ونظيفة.

وخلال إقامتنا تعرضنا إلى محاولة إضافة إلى فريقنا حين اعترضت سيّدة في منتصف العمر طريق عبد الواحد على السلالم تخبره أنّها آتية من حلب مع ابنتها وأنهن في طريقهنّ إلى الحجّ. كنّ ينزلن في غرفة تحت غرفتنا وسمعنا أنّنا متوجّهون إلى الحجّ أيضاً، ولفقدانهنّ وجود محرم معهنّ، سألت إن كان بإمكانهنّ مرافقتنا في السفر حتى المدينة المنورة. لم يلتزم عبد الواحد بالاحتياط حين أعرب عن سعادته برفقتهنّ في السفر، إنما عليه والتزاماً بالعُرف، أن يستأذني في الأمر.. لكن خانه قلبه أن يذكر لي أيّ شيء عن الموضوع. وفي اليوم التالي، وبنفس الطريقة، اعترضت السيّدة طريقي على السلالم تطلب رأيي، فأجبتها مذعوراً، بنفس ما أجابها عبد الواحد، فقالت: «إنّ صديقك موافق، فقد أخبرنا بذلك، إنما ينتظر قبورك». فررت من أمام السيّدة صاعداً السلالم وأمرت عبد الواحد بصرامة أن ينزل إليها ويخرجنا من هذا المأزق. ودكرته بمصير حنانيا⁽¹⁾ Ananias وأكّدت له إن حاول أن يزجني في مواضيع كهذه مرّة أخرى

(1) هو الحواربي الذي لقّن الديانة النصرانية لشاؤول الطرسوسي إبان زيارته لدمشق، وذلك سرّاً في كهف تحت الأرض بمعزل عن أعين الرّومان، ولقي بذلك حتفه إعداماً على أيديهم. أما شاؤول فصار اسمه بولص وأضحى أشهر ناشري الديانة في أوروبا.

فإنّ مصير حنانيا سيكون يسيراً مقارنة مع مصيره. وأبدى مسعودي دهشة عارمة لقحة عبد الواحد. نزل عبد الواحد بخوف إلى الطابق الأسفل، بينما تسللنا نحن إلى الحافة نسترق السمع. بدأ بقوله إنه يأسف لحرمانه متعة رفقتهم، إنما المسافر الثالث في المجموعة وهو من علماء الدين يعترض على سفر غير المحارم معه. استقبل هذا الكلام بموجة من الضحك، وحسبت أنّهنّ قد رأين مسعودي معنا من قبل وعرفن الحقيقة. رجع عبد الواحد محبطاً وعليه الآن أن يواجه مسعودي الذي كان حانقاً. توصلنا إلى نتيجة أنّ الصدق والأمانة لا يصدران من رجل ينغمس في ملذات الطعام في رمضان. وعندما التقينا بالسيدات مرّة أخرى أخبرناهنّ أنّ عبد الواحد ذو سمعة لا تسمح للسيدات بالتعامل معه.

وفي الحقيقة لم نكن في حال تسمح لنا بمساعدتهنّ، مهما رغبتنا في ذلك. ولم يكن من العدل أن نعرضهنّ لأخطار قد نواجهها إن كشف أمرى. لكنهنّ اعتقدن أنّ رفضنا كان فظاً بعض الشيء.



اقترب وقت الرحيل، وبدأنا بالاستعداد للسفر. ابتعنا ملابس الإحرام، وهي أثواب بيضاء نحتاجها لدخول مكة ولأيام الحجّ الثلاثة. وابتعنا أيضاً خيمة، وحصراً، وجراباً وضعنا به أمتعتنا، وبعض أدوات الطهي، ولم ننس النرجيلة ومؤونة من الشاي والتبغ، فهي أرخص ثمناً في دمشق منها في المدينة. أودعنا ما بقي معي من مال، مئتي جنيه، مع صديقنا عبد الله الذي أعطانى حوالتين، واحدة لحسابه في المدينة المنورة والأخرى في مكة. ولم يكن هناك مصارف في المدينتين.

عزمنا على السفر في الخامس عشر من الشهر، إنما كان علينا أن نؤجل إلى الثامن عشر منه بسبب الزحام في القطارات، حيث أنّ تعزيزات من فرق الجيش كانت مرسلة إلى المدينة المنورة التي وصلت منها تقارير تفيد بكثرة الوافدين إليها. إنّ القلاقل التي أثارها البدو في رمضان بدأت تتحوّل إلى حرب محتملة واسعة النطاق. وانطلقت الإشاعات بقوة في المدينة عن هذه الحرب، لكن لم يكن مسموحاً للصحافة أن تتداول

الخبر ولم يكن المسؤولون متعاونين في هذا الأمر، لذا كان من الصعب معرفة الحقيقة. ما كان مؤكداً هو أنّ فرق الجيش قد أصيبت بهزيمة نكراء منذ البدء، وأنّ المدينة في حالة حصار. كان هذا جيداً بالنسبة لي، لأنّي ظننتُ أنّ هذا سيجعل رحلتي أيسر. ففي حالة الحرب والشغب، ينشغل الناس بأمورهم الخاصّة ويفقدون فضولهم. بالإضافة إلى أنّي لا أمانع في التواجد وسط أحداث مثيرة، ولذا كنت متحمساً للسفر.

* * *

الفصل الثالث

الخطّ الحديدي الحجازي

تقع محطة الحجاز الحديدية في الجهة الشرقيّة من المدينة في نقطة نائية⁽¹⁾، استغرق الوصول إليها ساعة كاملة من الفندق. ينطلق القطار في الساعة الحادية عشرة صباحاً، لكننا أؤدنا بوجوب وصولنا قبل ساعتين بسبب الزحام. هناك درجتان، الأولى والثالثة، وبما أنّ الرّحلة ستدوم أربعة أيّام على الأقل، وكنا موسرين، فقد ملت إلى السفر في الدرجة الأولى، خصوصاً أنّ الفرق لم يكن كثيراً. لكن أصدّقائنا الدمشقيّين اعترضوا على هذا البذخ بقوّة قائلين إنّ حتى «أفضل القوم» يسافرون في الدرجة الثالثة، فهي مريحة كالدرجة الأولى. أقلّعت عن هذه الفكرة عندما علمت أنّهم سيحجزون لي عربة خاصة، وكنت أودّ الوصول بأقصى سرّيّة ممكنة. كنت ممتناً أنّي قبلت هذا الاقتراح عند الوصول، فدخلنا إلى المدينة المنوّرة كان مثيراً بحدّ ذاته.

وصلنا إلى المحطة في وقت مبكر وحجزنا أماكن لنا، تركنا مسعودي هناك للحراسة بينما ذهبنا نحن لحجز التذاكر وتسجيل الأمتعة. كلّفتنا التذاكر ثلاثة جنيهات وعشر بنسات للشخص الواحد، لم يكن هذا المبلغ كثيراً لسفر يتعدّى الألف ميل. وكان لدينا متّسع من الوقت، ساعتان ونيّف، فتوجّهنا إلى أحد المقاهي الصغيرة مع صديقنا عبد الله الذي قدم لوداعنا. ولاحقاً رافقته بعض المسافة عند مغادرته واستغل الفرصة ليعطيني نصيحة ثمينة قائلاً: «تذكّر أنّ أهل الحجاز ليسوا دمثين كما نحن هنا، فلا تتشاجر معهم أو تجعل نفسك في مأزق. إنّهم معتادون الاعتياش من الحجّاج، فلا

(1) هي قرية القَدَم إلى الجنوب من دمشق، ولا تزال فيها إلى اليوم محطة القطار التركيّة القديمة.

تؤخذ على حين غرة ولا تتهمهم بالغش. ولا تسرف في البداية فقد تحتاج إلى مالك لاحقاً. وإن هوجمت في القطار، أو في القافلة، فلا تحاول القتال، تخلّ عمّا معك بهدوء فلا يصيبك أذى».

وإثر ذلك حثني على أن أكون ملتزماً بمواقيت الصلاة خلال الحجّ، مهما كانت عاداتي، وأن أتصدّق بالقليل قبل البدء. فوعده أن أصلي ركعتين نيابة عنه في مسجد الرسول في المدينة المنورة. وعندما حان وقت الرحيل، ضمّني بمحبّة، وهذا تعبير عن العواطف مقبول في أيّ مكان سوى إنكلترا.

عندما عدتُ إلى القطار وجدت فوضى كبيرة. داخل العربات، يفصل المقاعد الخشبية ممرّ، وكنا قد حجزنا أربعاً منها متقابلة، لكنّ المسافرين الذين صعدوا إلى القطار أخلوا حقائبنا بالقوّة من اثنين من المقاعد بالرغم من اعتراض مسعودي. ازدحمت العربّة التي كنّا فيها كما ازدحمت باقي العربات. لم يكن هناك متّسع من المكان لأيّ شيء، فجلسنا متكديسين مع أمتعتنا بطريقة مزعجة. بقي على موعد تحرك القطار ساعة كاملة لكنّا لم نكن نجرؤ على المغادرة، فجلسنا في أماكننا منتظرين بدء السفر. وبالطبع، صعد الكثير من الذين وصلوا متأخرين إلى القطار ولم يجدوا أماكن لهم، فاضطروا إلى مغادرة العربّة. وأخيراً تحرّك القطار متأخراً نصف ساعة كاملة.

كان برفقتنا في العربّة العديد من الجنود الأتراك، وبعض الحجاج السوريين، وبعض المغاربة الذين يفتقدون للنظافة. جلس في الجهة المقابلة منا تركيّان، أب وابنه، ويظهر أنّ كلّ ما يحملانه من أمتعة غراموفوناً فقط. إنّ هذه الآلة متوفرة لدى الجميع في الحجاز، ومن السهولة الحصول على أسطوانات عربية، بعض منها تحوي تلاوات من القرآن. لم أضيّع فرصة في التعبير عن اعتراضي على هذا الاختراع الذي أسمّيه «الشريّر».



سافرنا في حقول مزروعة إلى أن حلّ الليل. ولا زالت قمّة جبل الشيخ تطلّ على دمشق

في صباح اليوم التالي. اجتزنا عدّة محطات كبيرة للسكّة الحديدية في اليوم الأول، إنما في اليوم الثاني دخلنا في الصحراء ولم نعد نرى الكثير من المناطق السكنية. كانت التربة بيّنة اللون وجافة، مع القليل من النبات المتناثر هنا وهناك يقلّ كلّما توجّهنا جنوباً. جلبنا معنا ما نحتاج من طعام، معظمه يتألف من البيض المسلوق، والخبز والكعك، ولم نتناول الكثير منه بسبب الغبار والطقس المزعج. خلدنا إلى النوم خلال الليل بتقطّع، فقد كان النوم صعباً في مكان ضيق. وأصابني في اليوم التالي نوبة من حمّى الملاريا ولم تزل عني إلى أن وصلنا إلى المدينة المنوّرة، وأضفت عليّ هذه الحمى المزيد من الإزعاج. وقد غمرني المسافرون بلطفهم عندما رأوني مريضاً فاصبروا، على ضيق المكان، أن يفسحوا لي المجال حتى أستطيع أن أستلقي على راحتي. أما الجنود الأتراك فقد طهوا لي بعضاً من الطعام على ما جلبوه معهم من كانون الفحم وأطعموني بعضاً من الفواكه حيث قد استهلكنا ما معنا منها. وقد رددنا المعروف لهم باستعمال ما معنا من «البريموس» Primus (وابور الكاز) السريع في تحضير الشاي لمن أراد.

كان هناك مقصورة صغيرة مغلقة في نهاية الممرّ شغلها كهل تركي مع ابنه، وزوجته وابنتيه. كنت أشعر بالأسى للابنتين حيث إنهما كانتا الفتاتين الوحيدتين على القطار. وأمضت الفتاتان معظم وقتيهما بانشاد مقاطع من المولد النبوي الشريف "Maulid".



في اليوم الثالث وصلنا إلى محطة في الساعة التاسعة صباحاً ولم نتحرّك إلا في الخامسة مساءً. كان السبب في التأخير قائد القطار، الذي تحدّى الركاب جميعاً في تركه لنا دون سبب واضح. أعلمنا سائقنا الخاص أنّه مرهق جداً ويحتاج إلى قسط من الراحة. وبما أنّنا سمعنا أنّ سكّة الحديد في حالة يرثى لها اعترضنا على التأخير، لكن كُنّا سعداء بأن ننزل من القطار ونسير قليلاً. تتكوّن المحطة، مثل معظم المحطات الأخرى، من مجرّد كوخين معدنيين وخزان للماء. وسرعان ما اضطررنا العودة إلى العربة للحماية من الشمس. إنّ تربة الجزيرة وسوريا الصحراوية حمراء ولا تؤذي العينين كما هي الحال في مصر، ولا تعطي الهضاب من حولنا نفس شعور العزلة مثلما تشعر في الصحراء.

بعد أن نال قائد القطار قسطه من الراحة، انطلقنا من جديد. ومَرّت علينا ليلة طويلة أخرى، اجتزنا فيها أرضاً تقسّمت إلى هضاب رائعة المنظر مغطاة بصخور عظيمة غريبة الأشكال، انتصب بعضها كمسلّات كليوباترا، وذكّرني بعضها الآخر بالصخور الغريبة (ستون هنج Stonehenge) في أوروبا، ولمدّة ساعة من الزمن مررنا بمنبسط مغطّى على مدّ النظر بصخور تضاهي «صخرة العلجوم» Toad Rock في تَنبريدج ويلز Tunbridge Well. دخلنا الآن جزيرة العرب، وكلّما توغلنا فيها أقفرت الأرض أكثر. ظهرت جبال على الجانبين وزاد التواء قمم الجبال وغرابتها. وراحت سكة الحديد تنعطف خلال ممرات ضيقة موحشة تتوسّدها صخور عظيمة من علو.

وصلنا حدود مقاطعة الحجاز عند مدائن صالح حوالي منتصف النهار، ولم يكن مسموحاً لأي شخص غير مسلم أن يتخطّى هذه النقطة. وعندما شُيّدت سكة الحديد، سُرّح جميع المهندسين الأوروبيّين هنا واستُكمل العمل من قبل الأتراك والعرب. هذا المكان مكوّن من كوخين معدنيين حقيرين لكنه مبهر بالمساكن المحفورة في الصخور، وقد ألهمت مخيّلة المسافرين منذ عصور قديمة. وقد ورد وصف لها من قبل المستكشف داوتي Doughty وغيره. لقد جُوفت الصخور المنفصلة الضخمة التي تغطي المكان وحُوّلت إلى كهوف بأبواب، تماماً مثل معبد أبو سمبل في النوبة العليا. لم يكن بمقدوري استطلاع هذه الكهوف عن قرب، لكن كان منها المئات، ويبدو أنّها بديعة الصنع. تبعاً للرواية العربية، يدلّ اسم المكان عليه، فهو المدينة حيث كان النبي صالح. وكما ورد في القرآن الكريم، أنّ سكان هذه المدن كانوا قساة القلب ورفضوا الانصياع لتعاليم النبي، بالإضافة إلى أنّهم عقروا ناقته العجائبة، فكان قصاصهم أن زلزلت الأرض تحت أقدامهم تماماً مثلما هاجت الطبيعة وقضت على زوجة لوط. ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ﴾ (٧٨) (١).

* * *

بعد ظهر اليوم الثالث وصلنا إلى قرية كبيرة محاطة بالنخيل، وهي أول ما رأينا من

(١) سورة الأعراف 78.

المساكن مذ تركنا سورياً. قضينا فيها ساعة من الزمن وتزوّدنا بما نحتاجه من مؤن وتناولنا بعض القهوة. إنّ جميع المحطّات جنوب مدائن صالح محصّنة بمواقع عسكرية وأسلاك شائكة، ممّا يذكرني بجنوب إفريقيا وقت الحرب. كان هناك قتال في كلّ مكان حين تشييد السكّة الحديدية، ولا زالت هذه المواقع تغزى من قبل القبائل المتنقلة. مررنا بعدة قطارات محطّمة لأن السكّة الحديدية لم تكن سليمة، وكان لزاماً على قطارنا السير الهويناً. وأُعلمنا بإمكانية مهاجمة القطار، لا من القبائل المولعة بالحرب، بل من قطاع الطرق، بين هذا المكان وبين المدينة المنوّرة. ولذا فقد استحضرنّا أسلحتنا عندما تحرّك القطار من جديد. لن نصل إلى المدينة المنوّرة إلاّ ظهر اليوم التالي، الأحد.

لم يحصل أيّ أمر خلال الليل، وكنا فرحين أن الرحلة على وشك الانتهاء. وكنت أشعر بتحسن، بالرغم من (أو ربما بسبب) عدم تناول أيّ دواء. تأخّرنا قليلاً، ولم نصل إلاّ في الساعة الواحدة، وعلمنا بوصولنا عندما سمعنا صوت المدفعية عن بعد. تؤمّن الحماية للمحطّات عن طريق متاريس ومواقع لفرقة عسكرية أو أكثر. لم أرتح لهذه الإجراءات الحمايةية ولا لمواقعها المختارة. وبعد برهة وجيزة، ظهرت من خلال فجوة بين التلال، مآذن مسجد الرسول المدينة، ومن ثمّ وصلنا إلى منبسط في الأرض ثمّ المدينة نفسها. أحد أصدقائي الأتراك، وكان واقفاً معي على حافة القطار الخلفية، أشار إلى بعض الأماكن بأسماء معروفة، جبل أحد حيث هزمت قريش قوّة الرسول، قبر عمّ الرسول حمزة، والبوابات المختلفة.

كلّما اقتربنا من غايتنا، علا صوت البنادق، وعندما وصلنا إلى المحطة، ظننت أنّي سأرى قتالاً دائراً على أبواب شبّاك التذاكر. لكن القتال كان في القسم الآخر من المدينة ولم تكن المحطة في خطّ النار، حيث كان القتال قد انتهى في الصباح، وجمهرة الناس الذين يأتون لاستقبال القطار حين وصوله، لم تكن هناك لحسن حظي.

* * *

إن الاستطراد ضروريّ هنا لأشرح أسباب الحرب في هذه المنطقة وكيف أنّنا مررنا بسلام دونها.

فهذا الجزء من جزيرة العرب يُعدّ مبدئياً مقاطعة تركية، ومن يسكن فيها يُعدّ مواطناً تركيا. وبما أنّ تركية هي أقوى البلاد الإسلامية في الوقت الحاضر، فإن على حاكمها أن يكون أمير المؤمنين، وعليه مسؤولية حماية الحرمين الشريفين، واستتباب الأمن فيهما. إنما بالحقيقة، ليس لتركية أية سلطة في منطقة الحجاز مع أنّها تحتلّ مكّة والمدينة المنورة. وما فتى البدو قبائل مستقلة، كلّ لديها أراضيها، وحكامها، وقوانينها وعاداتها الخاصة. إنّهم طبقة ارسقراطية بامتياز، ويحافظون على نسبهم، وهم يحتقرون من دونهم، ولا يستثنون من ذلك العرب قاطني المدن، الذين عادة ما يكونون مختلطي النسب، ولا يستثنون متكلمي العربية مثل المصريين أو السوريين. لا ريب أنّ القليل من الأعراق الأخرى باستطاعتها الفخر بنسبها مثل العرب، أو الفخر بتقاليدها. وخيار عائلات البدو لم تتعاط الأعمال يدوية قطّ، بل إنّ ديدنها القتال والغزو منذ بدء الخليفة.

هؤلاء العرب، المعروفون بالبدو، يعيشون في الصحراء، أي أنّ موطنهم جافّ وقاحل عامّة مع وجود بعض الواحات هنا وهناك. إنّهم لا يبنون مدناً، بل هم بدو رحّل. ويحتقرون التقاليد المدنية وأدواتها، حتّى المنازل. طعامهم بسيط ولباسهم ثوب قطني. وأفضل أعمالهم الحرب في سبيل قضية، أو القيام بغزو ولو كان بغير سبب. إنّهم فرسان ورعاة إبل، شجعان، مقدامون وواسعو الحيلة. ومع أنّهم شجعان، وكرماء ويقرون الضيف، فإنّ القسوة من صفاتهم ويحلّلون في الحرب ما قد يُعدّ مسلكاً غير نبيل في غير وقت الحرب. ولا يُعدّون متعصّبين للدين، بعكس ما يقال عنهم. فهم لا يصومون ولا يقيمون الصلاة، وفي الحقيقة إنّ إسلامهم اسمي.

ويعدّهم الحجاج همجيّين ولديهم أسباب قويّة لكرههم أو الخوف منهم، كما هو موقف السكّان الحضر في المدن العربية.

وجد الأتراك أنّ أفضل وسيلة لحماية قوافل الحجاج من هجماتهم هي دفع المال لشيوخ القبائل البدوية التي تمرّ القوافل في أراضيها، بدلاً من إرسال قوى مسلحة. ومع أنّ الخضوع للابتزاز لا يُعدّ عملاً مشرفاً للحكومات المتمدنة، فلا بدّ

من ذلك حيث أنّ احتلال جزيرة العرب والمحافظة على أمن المسافرين فيها عسكرياً يُعدّ من حيث قابليّته للتنفيذ عملاً يشبه غزو القمر. ليس الأتراك فحسب بل أيّ دولة أخرى لن تأمل بإنجاز هكذا مهمّة. إنّ طبيعة الأرض، وصعوبة التنقل، وقلة الماء لا بدّ وأن تُرضخ جيشاً أوروبياً، بالإضافة إلى أنّ البدو أنفسهم خصوم أقوياء أكثر من الرّعاع الذين قضينا عليهم في أم درمان وكانوا أقلّ تسليحاً من البدو. إنهم مسلحون جيداً ببنادق حديثة، وبالحكم على كمّيّة إطلاق النار حول المدينة المنوّرة فمن الواضح أنه ليس ثمة معضلة لديهم في الحصول على الذخيرة. وفي الحقيقة، وكما لاحظت، ليس هناك من محاولات لمنع بيع الأسلحة، فهي تباع في الأسواق علناً في مكة والمدينة المنوّرة.



ليس بالإمكان إحصاء عدد البدو العرب في جزيرة العرب إلا على وجه التقدير، وبملاحظة أنّ ثلاثة أرباعها غير معروف. لكن قيل لي إن اجتمعت قبائل الحجاز، فباستطاعتها أن تقدّم إلى ساحة القتال مئة ألف رجل.

مع الانتهاء من إنشاء سكّة حديد الحجاز⁽¹⁾ قرّرت الحكومة التركيّة وبتهور، وتحت هذه الظروف، وقف دفع مال حماية المسافرين لقبائل البدو. لم يؤثر هذا على سلامة الطريق بين سوريا والمدينة المنوّرة، إنّما إنتشر الخبر في أنحاء جزيرة العرب واستنفرت القبائل الأقوى بين المدينة المنوّرة ومكّة، وبين المدينة المنوّرة وينبّع. فإن لم يسمح لهم بالغزو، ولم يُدفع لهم المال للامتناع عن ذلك، فإنهم لن يقفوا مكتوفي الأيدي.

(1) كتب المؤلّف: كان المسؤول الاول عن هذا العمل السلطان المخلوع عبد الحميد. ووقعت عريضة لهذا الغرض في طول العالم الإسلامي وعرضه. ولقد وصلت سكة الحديد إلى المدينة المنورة في السنة التي ذهبت فيها هناك، أي 1908. ومن المفروض ان تكمل السكة إلى مكة، إنّما يبدو ان العمل متوقف لأجل غير مسمى. وكان الغرض من إنشاء السكة الحديدية المحافظة على سلامة الحجاج وتسهيل رحلتهم، وبالطبع فثمة غاية استراتيجية من ورائها أيضاً.

عندما وصل القطار الأوّل كان محطّ الأنظار والفضول. لم يقدّروا أهمّيّته في بادئ الأمر، وتساءلوا، «هل يستطيع هذا الشيء أن يحمل ما تحمله الإبل؟» وبعد أيّام قليلة، رأوا القطار يفرغ عدّة وعتاداً ومئات الرجال، ففهموا أنّ هناك شيئاً جديداً قد وصل إلى أرضهم وعليهم أن يرفضوه. كان من الواضح أنّ القطار سرعان ما سيجعل قوافل الجمال من أخبار الماضي، وبالطبع سيلغى من جرّائه ما يجنونه من تجارة الجمال، بالإضافة إلى المكانة المهمّة التي انتزعوها من جرّاء ذلك. أضف إلى ذلك أنّهم لاحظوا وبذعر أنّ قطع الطريق على القطار ليس بالسهل كما تصوّروا، ولم يصدقوا أنّه قطع المسافة من سوريا بأربعة أيّام فقط.

ولا شكّ أنّ شيوخهم أقاموا مجالس الشورى خلال الشهرين اللذين تليا. وتوالت الوفود على أبواب حاكم المدينة المنوّرة تعترض على السكّة الحديدية على أساس أنّها ستفتح الباب للأوروبيين بدخول البلاد. أعطى الحاكم السلطة لقطع وعد لهم نيابة عن الخليفة نفسه أنّ هذا لن يحصل. وقد أوضح لهم أنّ مراقبة المسافرين في القطار أيسر بكثير من مراقبة القوافل.

كانت فكرة البدو هي إيقاف إنشاء السكّة الحديدية، لكن لم يكن من اليسير أن يجدوا الذريعة لذلك. فلقد أنشئت السكّة الحديدية وبدأت بالانتشار في جميع أنحاء العالم الإسلامي، ونظر إليها الناس بكثير من الحماس، واعتبرت عملاً وطنياً وعظيماً ودفاعاً قوياً لتهمة أنّ الإسلام رجعيّ وغير حيوي. لقد حصلت السكّة الحديدية على مباركة علماء الدين من كلّ المذاهب، وقدم الأغنياء والفقراء على حدّ سواء ما عليهم بكلّ كرم.

كانت الفكرة البديلة للبدو هي توتير الأجواء للأتراك لينشغلوا عن إنشاء السكّة الحديدية بأمر أكثر أهميّة، ولم يخلوا من الفرص. يقع ضريح عمّ الرسول، حمزة، والذي استشهد في معركة أحد، على بُعد أربعة أميال شرق المدينة المنوّرة ويزوره كل الحجاج. أوكلت مهمّة حراسة الطريق إلى الضريح إلى قبيلة بني علي، وهي قبيلة كبيرة ذات أهمية تقطن ما حول المدينة، وكانت تتقاضى على ذلك مالاً. وفي آخر يوم

من رمضان قُتل رجلان في وقت متأخر من الليل من قبل قطاع الطرق، فأرسل الحاكم اعتراضاً إلى شيوخ القبيلة مطالباً إياهم بدفع غرامة. وكان ردّ شيوخ القبيلة أنّهم ليس بإمكانهم أن يكونوا مسؤولين عن سلامة الطريق ولن يدفعوا أية غرامات. استمرت المفاوضات بعض الوقت، لكن كان واضحاً أنّ شيوخ القبيلة مستعدّون للنزاع.

وفي الثالث من شوال أرسلت فرقة من حوالي 1000 رجل مع رشاش مكسيم Maxim لتفرقة جمع كبير من رجال القبائل الذين كانوا يهدّدون البلدة. تقدّم الأتراك بين أشجار النخيل بكل ثقة مدعومين بالمدافع من أسوار المدينة. ولم يمض وقت إلا وطّوَقهم الأعداء وأصبحوا في مرمى النار من كل جهة. وخلال محاولتهم التراجع كرّ عليهم البدو بطيشهم المعتاد، وغنموا رشاش المكسيم، وقتلوا مئة رجل، واضطروا الآخرين للتراجع إلى المدينة في أقصى فوضى ممكنة. ومنذ ذلك اليوم تتالت المناوشات الصغيرة، لكن لم يكن هناك مواجهات جدية. ولقد تنازل الأتراك عن كل شيء ما عدا المدينة نفسها وحصنين خارج الأسوار مدعّمين بالأفراد. وهرعت الإمدادات من تركيا وسوريا، بما فيها عدّة مدافع وزّعت على أسوار المدينة.

أعلن بنو علي الجهاد على الأتراك ودعوا أهل جزيرة العرب لمساعدتهم. وادّعوا أنهم لن يتعرّضوا للحجّاج الذين لديهم الحرية الكاملة في الحركة حتى من بين خطوطهم، حيث أنّ نزاعهم كان مع الحكومة التركية والحكومة فقط.

وسرعان ما وصل الدعم الذي طالب به البدو، فتوالت الإمدادات من كلّ صوب، وللمرّة الأولى أضحت القبائل يداً واحدة.

* * *

حين وصولنا كان الجيش التركيّ في المدينة المنورة يعدّ عشرة آلاف رجل وعشرين مدفعاً، ويعدّ العرب عشرين ألفاً بتزايد مستمرّ.

تقع المدينة في أرض مفتوحة على علو 3000 قدم فوق سطح البحر. وتحيط بها الجبال من ثلاث جهات، على بعد خمسة إلى عشرة أميال إنما تبقى مفتوحة من الجهة

الجنوبية. وتتطاوّل المدينة نفسها في الامتداد إلى نحو ميل واحد في أقصاها. وهي في الواقع تتكوّن من مدينتين متصلتين. فالمدينة القديمة والتي يحيطها سور، تحوي المسجد ومعظم المساكن والمتاجر، أما القسم الآخر فهو حضاريّ أكثر حيث تتجمع العمارات العامّة، والأسواق وثكنات الجيش. وهناك مساحة واسعة تتجمّع فيها القوافل عند الوصول أو قبل المغادرة. أحيطت هذه المساحة بسور داخليّ للحماية، فيه عدّة بوابات أطلق عليها أسماء مدن تتوجه إليها القوافل: أحدها مثلاً باب الشام، وآخر باب مكّة. ويُسقى الماء من عدّة آبار وفيرة عذبة. وهناك مزارع نخل وثمار تحيط بالمدينة وتمتدّ عدّة أميال. أما محطة سكّة الحديد فهي في غرب المدينة على بعد حوالي ربع ميل خارج الأسوار.

حينما كنت هناك لم تكن السكّة قد استكملت بعد، ولا زالت عدّة أبنية حجريّة قيد الإنشاء، وبما إنّها مضادّة للرصاص، فقد استفيد منها للحماية من الاشتباكات. أما المقبرة المعروفة باسم البقيع، فهي إلى الجنوب متاخمة للسور. وهناك دفن معظم المشاهير في التاريخ الإسلاميّ، بما فيهم آل البيت. وخلال إقامتي، كانت البقيع تحت خط النار باستمرار.

يعدّ أهل المدينة المنوّرة، ما خلا الجيوش والحجاج، ثلاثين ألفاً، جميعهم تقريباً يمتهنون حرفاً تمتّ بصلّة إلى الحجيج ويعتاشون من وجودهم. إنّهم يكدّون ثلاثة أشهر في موسم الحجّ، ولا يفعلون شيئاً آخر بقية السنة. وكلّ له مكانه في هذا النظام، فالطبقة الغنيّة تملك منازل تؤجّرها بأسعار باهظة. والشباب يعملون مطوّفين يؤجرون بكلّ كرم. أما التجّار فتنمو تجارتهم، ويستفيد الجميع من الزائرين حتى الحمالين وسقاة الماء.

لقد كان المطوّفون مصدر إزعاج لي في دخول المدينة المنوّرة ومكّة. وعملهم هو الاهتمام بكلّ حاجّ ميسور الحال يستطيع أن يشتري تلك الرفاهية، فيهتمون به، ويرشدونه إلى المناطق المهمّة، ويتلون له الأدعية والتحيّات عند الأضرحة المختلفة. إنّ اللفظ مشتقّ من الطواف وهو أحد شعائر الحجّ: أي السير حول الكعبة في مكّة.

ليس هناك من ثمن محدد لهذه الخدمات، ويعتمد المبلغ على كرم وثرء كل فرد، وعادة ما يكون الحجاج في قمة الكرم. ولذا فهناك منافسة قوية على كل زائر يبدو عليه الثراء خصوصاً إذا حمل أمتعة ومعه خدم. وجرت سابقاً عند وصول هكذا زائرين مشادات انتهت بحمل السلاح، ولإيقاف هذه الممارسات الفاضحة، عيّنت الحكومة عدداً معيناً من المطوفين لكل بلد يستقبلون زوارهم. وكل مجموعة تعين شيخاً يفصل في المشادات، وتصله شكاوى الحجاج إن وجدت. أثبتت هذه الطريقة نجاحاً حيث أنّ المطوفين يدرسون لغة وعادات البلد الخاصة التي عيّنوا لها وينعكس هذا على جعل الزيارة أكثر تثقيفاً. إنما كانت تجربتنا صعبة.

لم نسمع بهذه الإجراءات إلا حين اقترابنا من المحطة، وتوجّست خيفةً من هذا الأمر. ليس من المعقول أن نعمل مع مطوّفي زنجبار حيث سألزم أن أختلط بكل زائر من الساحل الأفريقي، فأكون تحت خطر الاكتشاف من قبل أي شخص يعرفني في مومباسا، إن لم تكشفني اللغة. كان ضرورياً اتخاذ قرار سريع لتفادي خطر هذا الأمر الطارئ. وبعد تداول سريع قرّرنا ما يلي: يدّعي عبد الواحد أنّه من بغداد، وأنا «درويش» عاش هناك بعض الوقت، وبما أنّ مسعودي أسود اللون، فهو عبد لي. والدوريش لقب يُطلق على فرقة من المتعبدين منتشرين في مصر والسودان، وهو لقب يستعمل من قبل أفراد لا يعترفون بهويّتهم الحقيقية. وقد يكون هذا بسبب معتقداتهم السياسية، أو فراراً من مشاكل في بلدهم أو مشاكل النسب.

عندما توقّف القطار، كانت المحطة خالية تقريباً إلا من بعض المطوفين الذين يُعرفون من قبّعات القش التي يعتمرونها وأثوابهم الزاهية الألوان. صعد المطوفون إلى العربات، وبما أنّنا كنّا الحجاج الوحيدين المهمّين من وجهة نظرهم، سألونا من نكون، وكانت إجابتنا كما اتّفق عليه. إنما سأل بعضهم غيرنا من الركاب عنا وقد ذُكرت زنجبار. لحسن الحظ، لم يكن هناك أيّ مطوّف من زنجبار أو بغداد، فاستطعنا أن نجمع أغراضنا ونترجّل من القطار دون مصاعب تذكر. استغرق استعدادنا بعض الوقت، وحين نزلنا إلى المحطة كانت خالية تماماً.

جلنا في المدينة يتبعنا الحمالون، فمررنا ببوابة السور الخارجي المعززة حراستها، وسرنا في الشارع المستقيم الطويل أمام ثكنات الجيش حتى وصلنا إلى الساحة أمام البوابة الداخلية. توقفنا هنا، وسألنا عابر سبيل أن يدلنا على نزل مريح نظيف وغير باهظ. طالعنا الرجل باهتمام، وبعد أن رضي بما رأى قال إن لديه غرفتين في منزله يؤجرهما لنا إن رغبتا برؤيتهما. قبلنا العرض، فتركنا الحمالين وأمتعنا بحراسة مسعودي، تبعنا أنا وعبد الواحد الرجل، دخلنا من البوابة وسرنا في شارع ضيق ملتو يقود إلى المسجد. ثم دخلنا زقاقاً إلى اليسار وانتهينا في آخره إلى منزله.

كانت الغرفتان في الطابق الثاني، وكانتا ما نرغب به تماماً: نظيفتان، مضيئتان ومفروشتان جيّداً، هذا ما كانت عليه غرفة المعيشة على الأقل، وكانت الأخرى حمّاماً ومطبخاً في نفس الوقت. أعرينا عن قبولنا وسألناه ما يرغب. بعد نقاش قصير، وافق على جنيهين ثمناً لهما، بشرط ألا تطول إقامتنا ما بعد مغادرة المحمل إلى مكة، وذلك بعد شهر من الآن. استغربتُ المبلغ الزهيد الذي طلبه، وكذلك عبد الواحد.. إنما كان هناك سبب لذلك تكشف لاحقاً. انتهت بعد حين إلى أن ملاكي الحارس كان حاضراً ذاك اليوم حيث أن مصادفتنا لذاك الرجل كانت لها أهمية كبرى.

انطلق عبد الواحد ليأتي بمسعودي وأحمالنا، بينما بقيت أنا في المنزل برفقة ابن صاحبه ذي الإحدى عشرة سنة. وصلا في ريع ساعة من الزمن يحملان أخباراً مقلقة.. فلقد أحيط مسعودي، الذي كان وحيداً مع الأمتعة، بمطوّفين يسألون من أن أتينا وأين توجّهنا. وكانت أخبار وصول حجيج من زنجبار قد انتشرت في كلّ مكان، فهبّ المطوّفون المعينون يطالبون بنا. كان مسعودي لا زال ينكر بغضب أنه رأى زنجبار، عندما وصل عبد الواحد وتدخل في الأمر. أوضح لهم عبد الواحد أننا مرهقون وقد أنهينا رحلة طويلة لتوّنا، وعليهم التوجّه إلى المنزل إن كان لديهم أيّ استفسار بعد نيلنا قسط من الراحة وبعض الطعام. كان ردّه مقنعاً إلى حد ما، فتركونا بسلام. أخبرت بهذه التفاصيل عند استلامنا أمتعتنا وصرفنا الحمالين، وكان مالك المنزل يستمع للحديث فتوجّهت إليه بزعمي أنني حقيقة من زنجبار لكنني حذرت من

استخدام المطوفين المعيّنين أو الذهاب إلى منازلهم، حيث أنّهم لصوص ومنازلهم قدرة ومكتظة. صرّحت أنّي أفضل مكانه وأرغب بالدراسة بينما أنا في المدينة المنورة ولا أحبّذ تواجد الناس حولي يدخلون ويخرجون طوال النهار. وسألته النصيحة.

قال مالك المنزل إنّهُ يتفهّم موقعي، ولم يكن غريباً للزائرين أن يحاولوا تجنّب استخدام المطوفين المعيّنين لهم، وعرض ابنه للقيام بكلّ ما نحتاج إليه بدلاً منهم، أو نستخدم أحدهم خلال النهار. نصحنّا أن ندّعي أنّنا جميعاً من بغداد⁽¹⁾ وعندما عرف أنّ عبد الواحد قد زار المدينة من قبل، اقترح أن ينكر أنّه من الحجاج، وأنّه هنا للدراسة أو في رحلة عمل، وأنّني اتفقت معه أن يعمل لديّ كمطوف. لكنّه حذّرني من أنّ المصاعب مؤكّدة الوقوع، فإذا عُرف أنّي من زنجبار، سيكون لدى المطوفين حجة في المطالبة بي.

يبدو هذا أفضل خطة في هذه الظروف، ولم نكن لنصل إلى نتيجة أفضل.

في خلال ساعتين، حضر ثلاثة مطوفين، فأدار دقّة الحديث معهم بامتياز. وكعاداته، كان كثير الكلام والحركة إلى درجة لم يفسح المجال لمحدثيه قول أيّ شيء، وبعد دقائق، أظنّ أنّهم فقدوا الرغبة في أن يكونوا في صحبته. رويّنا القصّة التي اتفقنا عليها، وحاولوا استعمال اللغة السواحليّة مع مسعودي، إنّما بالطبع ظهر أنّه لم يفقه كلمة منها. وأخيراً، وبعد خروج آخرهم، كانوا مقتنعين أن البلد الذي جئنا منه لم يكن من زنجبار. دخل علينا مالك المنزل حينئذ مبتسماً وقال إنّ هذا كان آخرهم. ومن ثم تناولنا بعض الشاي.

أعلمنا مالك المنزل أنّه حبشيّ الأصل، واسمه إيمان، وقد أتى من مكّة المكرمة واستقرّ هنا منذ عشر سنوات. تزوّج أرملة لديها ولد وحيد، إبراهيم، ولقد تعرّفنا إليه. وقال إنّ لديه بعض الدخل ويملك هذا المنزل، يؤجّر غرفه متى سنحت له الفرصة، ولم يكن بالعمل المريح حيث أنّ القليل من الأحباش يأتون إلى الحجاز فمعظمهم من

(1) كتب المؤلف: هناك الكثير من الشوام والبغداديين يعيشون في المدينة المنورة، فالزائر من سوريا أو بغداد إذا كان لديه اصدقاء مقيمون يهتمون به، يُسمح له ألا يستعين بخدمات المطوفين.

المسيحيين. وقد أطلعني على قصة حياته لاحقاً. كان قد خُطف في صغره من قبل تجّار النخاسة وبيع في مكّة، وكان محظوظاً أنه وقع في أيدٍ طيّبة، فقد استطاع أن يدّخر مالاً كافياً ليعتق نفسه وائر ذلك هاجر إلى المدينة.

كان رجلاً أسمر، ممشوقاً له من العمر أربعون عاماً، دائماً بشوش الوجه ومضيفاً. من المهم القول إنه ما من عار يلحق بمن كان عبداً في الشرق، بعكس الحال في أوروبا. فنرى في التاريخ من كان عبداً أصبح قائداً للجيش، أو سفيراً لبلاده أو حتى على العرش.



يُعرف مسجد الرسول بالمسجد الحرام، وهو لقب يُطلق على الجامع الذي تتوسّطه الكعبة في مكّة أيضاً، ومسجد عُمر في القدس وغيرها. تعني هذه الكلمة: المحظور غير الشرعي، إنما في استعمالها هنا تعني المقدّس، ويشتق من الكلمة، وفقط في اللغة العربية، لفظ الحريم، الذي هو مكان إقامة النساء ومن ثم أطلقت على النساء أنفسهنّ.

يقع المسجد في وسط المدينة، وله ثلاثة مداخل رئيسة. ويحيط بساحته المفتوحة في الوسط صفّ من الأعمدة. ويقع ضريح الرسول في الزاوية اليسرى مواجهاً القبلة في مكّة المكرمة. يعلو الضريح قبة تظهر فوق أسطح العمران، ويحيط به حاجز معدنيّ بطول خمسة عشر يارداً وارتفاع عشر ياردات. بالنظر من خلال الحاجز، يرى ستار معلّق من السقف يكوّن مساحة مقفلة. إنّ الستار أخضر اللون ومطرّز بمقاطع من القرآن الكريم. يحيط الستار بضريح الرسول وصاحبيه أبي بكر وعمر أول الخلفاء الراشدين. يجاور الستار شمالاً ضريح آخر، يقال إنّهُ لفاطمة بنت الرسول، إنما ليست الفكرة مؤكّدة، لأنّ تحيّاتها تتلى مرّتين، مرّة هنا وأخرى في البقيع، حيث يعتقد بعضهم أنّها دفنت هناك.



بعد تناولنا الشاي، اقترح إيمان أن نتوجه إلى الحرم لصلاة العشاء إن كنّا نملك النشاط لذلك، وسيدّلنا إبراهيم إلى الطريق. ذهبنا أنا وعبد الواحد وتركنا مسعودي وراءنا. في الطريق العام، توجّهنا إلى اليسار وبعد مسيرة دامت دقيقتين وصلنا إلى البوابة الرئيسية. أضفى الظلام تأثيراً مثيراً للإعجاب.. إذ تغيّر مشهد المنازل المتطاولة ونوافذها الشبكية المطلّة على الشوارع الضيقة المبلّطة، والتي كانت خالية وموحشة، على أعتاب درج واسع يقود إلى قنطرة عظيمة، يبدو من خلالها عواميد رخامية، وأضواء متلاثلة، ومئات المشاعل المعلقة. كلّما اقتربنا، تناهي إلى سمعنا أصوات همس مشوّش. تركنا أحذيتنا مع حارس البوابة ودخلنا، وتقدّمنا إبراهيم فجأة يتلو الدعاء المناسب لتردد خلفه. لن أترجم أيّاً من هذه الأدعية. فهي تماماً ما يتوقع المرء، وخلا الدعاء للرسول محمّد، فهي تطابق ما يدعو به المسيحيون عند أضرحة قدّيسهم.

مشهد غريب هذا، يقع في نفس الزائر الجديد. انتشر المصلّون في أنحاء المكان، وهناك من يقرأ القرآن بنغمة رتيبة خافتة متميّلاً بطريقة مميزة ترافق دائماً تلاوة القرآن. وتجمّعت هنا وهناك حلقات الدرس حول علماء الدين، يستمعون إلى تلاوتهم أو شرحهم. والبعض الآخر يناقش بصوت خافت أموراً دينيّة أو أموراً خاصّة. يقف حول الضريح المسيح صفوف من الرجال، يتقدّمها مطوّفها ينشد التحيّات بصوت مسموع، تردد خلفه مجموعته أو ترافقه. وحيث أنّ معظمهم لا يفقه العربية، تكون النتيجة مضحكة جداً. وهناك قصص كثيرة تروى عن إغفال المعنى، لكن لتقدير فكاهة الموقف لا بدّ من فهم اللغة العربية.

توجّهنا نحو مقام الرسول، حيث كان يؤدي صلاته. لقد بني عليه قوس وزيّنت جوانبه بالشموع. أمرنا أن نؤدّي صلاة تحيّة المسجد في هذا الموقع⁽¹⁾. وخلال

(1) كتب المؤلف: بالإضافة إلى الصلوات الخمس المفروضة، هناك عدة مواقف تتطلب صلاة نافلة «سنّة». مثلاً دخول المسجد (تحية المسجد)، ورؤية هلال جديد، حين تقديم الشكر لله، (صلاة الشكر) في حال الخطر (صلاة الخوف)، أو الجفاف (صلاة الاستسقاء) وغيرها.

صلاتنا، تلقينا بعضاً من التعليقات من قبل مجموعة من المطوفين حولنا. فقد تعرفوا على عبد الواحد أنه بغدادى، لكنهم فشلوا في تعريفى. قال بعضهم إنى عجمي، وقال بعضهم الآخر إنى من البصرة. عند انتهائنا من الصلاة سئلنا من نكون، فقلت إنى من الدراويش سائح في أرض الله الواسعة. حاول أحدهم التكلم معى بالفارسية فضحكت وهزرت رأسي. ومن ثم عرض أن يطوف بنا مقابل دولار واحد فقبلنا عرضه. حين تركنا المكان قال إنه سيتلو ابتهالاً خاصاً لا يتعارض مع الفكر الإمامي. شكرته وقلت له إنى لست إمامياً⁽¹⁾ ممّا حيرته، حيث أنه قرّر الرأي على أنى عجمي الأصل. إن الإمامية لا يذكرون أبا بكر وعمر، فلا يدخل اسمهما في الأدعية بل يقولون: «وعلى صحبه» جمعاً. بينما يتلو أهل السنة تحية طويلة لهما.

إلى بضع سنين خلت، كانت بدع الإمامية ممقوتة في المدن المقدسة لدرجة أن العجم وغيرهم من الإمامية كانوا تحت الخطر في تلك الأماكن، وعادةً ما كانت تساء معاملتهم أو يقتلون. فانتقموا بصبّ جامّ تحاملهم على من يخالفون. إنما ظهر بعض السلوك المعقول مؤخراً بين الطرفين. فلا يحتاج الإمامي أن يخفي نفسه، بل باستطاعته أن يعلن عن نفسه ولا يتخوّف الحراس من أي تخريب من جانبه. «لسنا مضطرين إلى الموافقة ولا نحتاج إلى أن نُشتم».



عندما وصلنا إلى السياج حول الضريح، نُصَحنا أن نمعن النظر. لم يبدُ شيء أكثر من الستار الأخضر المذكور سابقاً. ثم اعتدلنا وتلا المطوّف الدعاء الذي انتهى بالفاتحة وأكفّ مفتوحة إلى السماء. ثم انتقلنا إلى جهة الجنوب، وقرأنا التحية لأبي بكر وعمر ومن ثم لابنة الرسول فاطمة. إنّ ضريح فاطمة الزهراء واضح للعيان، حيث أنه خارج الستار الأخضر، مزين بالأحجار الكريمة. توجّهنا إلى الجهة الشمالية، واستقبلنا القبلة وصلينا ركعتين نافلتين. يقع مقابل الضريح في هذه الجهة مصطبة مخصصة لحراس المسجد المخصّيين. فترى منهم عشرين أو ثلاثين يجلسون القرفصاء، يتحدثون أو

(1) كتب المؤلف: انظر الملاحظة عن البدو.

يقرأون، ولا تخلو المصطبة منهم ليلاً أو نهاراً.

علا صوت الأذان من المئذنة، وبدأ الجمع في الاصطفاف للصلاة. فمن كان يتلو القرآن⁽¹⁾ أعاد الكتاب إلى المكتبة، وجمع المحاضرون كتبهم وأوراقهم وأي أوراق رفعت إليهم. بعد اتخاذ الإمام مكانه، أقيمت صلاة العشاء بأربع ركعات، ومن ثم دفعنا لمطوّفنا ماله وعدنا أدراجنا إلى المنزل.

* * *

بعد تناولنا بعض طعام العشاء الذي حضره مسعودي، دَخْنَا النرجيلة واستعدنا للنوم. دخل علينا مضيفنا إيمان يتمنى لنا ليلة هائلة ويسأل إن كنّا نرغب بإيقاظنا لصلاة الفجر. كان هذا السؤال في غير مكانه حيث لم يكن بوسعنا أن نرفض. بالطبع وافقنا لكن أعربنا عن عدم غضبنا إن هو أغفل الأمر، وهو قول أمتعته سماعه. ولقد نصحني أن أغيّر زيّ لما يشبه زيّ أهل البلد حتى لا ألفت الأنظار، وإلا فسأبقى معرّضاً للإزعاج بسؤالني عن موطني باستمرار.

* * *

(1) كتب المؤلف: إن لفظ «القرآن» يعني الكلام المقدس، وليس الكتاب بحد ذاته، الذي يطلق عليه لفظ «المصحف». إن القرآن بطول العهد الجديد من الكتاب المقدس، ومكتوب بلغة عربية فصحي، ولذا فهو لا يفهم بسهولة من قبل العرب في هذه الايام، حيث أن الكثير من الالفاظ غير مستعملة حالياً. وبعض مقاطعه نثرية مقفاة. هذا وإن نزول القرآن على لسان رجل أمي يعدّ أحد الدلائل على نبوة الرسول. ولقد انقسم المسلمون حول فكرة إن كان القرآن مخلوقاً أو أزلياً.

الفصل الرابع

المدينة المنورة

استيقظنا في الصباح التالي الساعة التاسعة والنصف، حيث أنّ إيمان نسي إيقاظنا لصلاة الفجر دون سبب. وكنا قد اتّفقنا على أن لا نرى أنا ومسعودي برفقة بعضنا، حيث قد نصادف أحدهم ممن يعرفه ويلفت الانتباه إلّايّ. لم أكن تحت خطر الاكتشاف إن كنت وحدي أو برفقة عبد الواحد حتى لو صادفتُ أحداً ممن عرفني قبلاً. لذا، توجه مسعودي إلى الحرم برفقة إبراهيم، بينما ذهبت أنا وعبد الواحد للتسوّق. لم يكن هناك ملابس جاهزة في السوق، فاستعنا بخيّاط رافقنا إلى السوق لشراء ما يناسب من الأقمشة. كانت مراقبة عمله ممتعة. ولحظة حصوله على العمل، أخذ على عاتقه كلّ مسؤوليّة، واختار الألوان والأقمشة التي ظنّها مناسبة دون أيّ مشورة منّا. والمرة الوحيدة التي غامرت فيها بإبداء اعتراض، قيل لي ألا أتدخل. وبعد أن ابتاع ما يحتاجه، عدنا إلى حانوته لأخذ مقياسي. لقد طلبتُ بدلتين، استلمتهما بعد يومين وكانتا كل ما ارتديت مذكّات الوقت.

إنّ هذا الهندام، مع قليل من التغيير، هو نفسه في كل مدن الحجاز، وعادة ما يرتديه الزائرون الغرباء. إنّه يتكوّن من بنطال قطني واسع، وقميص طويل يصل إلى الكاحلين، وثوب ملوّن وحزام يحمل خنجرًا مميّز الشكل بالإضافة إلى مسدّس ذي ست طلقات. وفوق كل هذا جبةٌ بأكمام واسعة مصنوعة من اي مادة أو لون. في أوقات القلاقل مثل هذه، يتمنطق معظم الناس بالسيوف، يحملونها تحت إبطهم الأيسر فوق الجبة، أو يحملونها بأيديهم مثل العصا. أما بالنسبة لغطاء الرأس، خصوصاً لمن أتمّ مناسك

الحج من قبل، فبعضهم يعتمر قبعة من القش مشغولة بحريير ملون يلقها زنار أبيض، وغيرهم يعتمر قبعة من القطن تغطيها قطعة قطنية مثل العمامة.

فما اكتسبت هكذا إلا وامحى من مظهري أيّ داع للفت الأنظار، ولم يعترضني أيّ من الحراس إلا مرة واحدة، أروي لكم تفاصيلها لاحقاً.

صلينا صلاة الظهر في الحرم وقضينا ما بعد الظهر في التجوال في المدينة. إنها مثيرة للاهتمام ومتنوعة المشاهد. كل ما حولك ينبض بالغنى والنظافة، بعكس ما تراه في معظم الأماكن الشرقية. تتحدّد الأسواق في شارعين طويلين ضيّقين. وبعد ثلاثة أسابيع، عند ازدحام الأسواق بالحجاج المهتمين بالتسوّق، لن تجد لك مكاناً تشقّه بينهم. إنّ بعض الدور في الأحياء السكنية تتكوّن من أربعة أو خمسة طوابق، مع حدائق خلفية صغيرة. وجميعها يحتوي على النوافذ الشبكية الغربية المميّزة في المساكن الشرقية. هذه النوافذ صمّمت خصيصاً لتسمح من في الداخل أن يرى الباب الخارجي إنما يبقى مستتراً. تحتوي هذه النوافذ على كوة تستطيع أن ترى الزائر من خلالها قبل أن تفتح الباب له، وأن تلقي عليه السلام أو تطلق عليه الرصاص، كما تقتضي الحاجة.

في طريق العودة إلى المنزل التقينا بأحد معارف عبد الواحد، وهو رجل عجمي كان يعمل سابقاً لدى أحد اصدقائه. كنّا بأمرّ الحاجة إلى طاهٍ، حيث لم يكن أحدنا بارعاً في الطهي أكثر تحضير ما نفتات به من البيض المسلوق الذي نتناوله مع البطيخ، وبعض الخبز والعسل. وكان البطيخ من النوع الممتاز ولم يكن باهظ الثمن، ولسوء الحظ انتهى موسم التمر قبيّل وصولنا. اتفقنا مع هذا الرجل أن يحضّر لنا الطعام في منزله وينقله إلينا بما يسمح لنا تسخينه بسهولة، ووعدناه إن كان عمله مرضياً أن نستأجره لرحلة مكة. كانت النتيجة أنه أثبت أنّه طاهٍ ممتاز، ومذاك الوقت تحسّنت نوعية طعامنا. وإني لمتأكد أنّ هذا الطاهي كان لينجح نجاحاً باهرأ في أي مطعم في لندن.

مرّت أيام قليلة دون أيّ أحداث تذكر. أمضيت وقتاً لا بأس به في المسجد، حيث

أجد مكاناً مريحاً أسند ظهري فيه إلى عمود، وأتظاهر أنني أقرأ كتاباً وأراقب الناس. كان الناس مصدر متعة لا تنضب، وكلّ يوم يحمل معه زائرين جددًا. وصلت قافلة كبيرة من ينبع تحمل معها زمرًا من الهنود، واليابانيين والصينيين. بإمكانك أن تتعرّف على كل الأعراق الشرقية المتواجدة وتتعرّف على أزيائها المتنوعة، حيث أنّ الجمع بألوانه يضاهي ثوباً مزخرفاً لأرقى الحفلات الراقصة. أما خلال الصلاة، فيصطفّ الأوروبيون، والأتراك بمعاطفهم الكبيرة وقباتهم العالية، والأناضوليون بسرّاءيلهم الفضفاضة وأسلحتهم الرائعة، والعرب من الغرب الذين يظهرون كأنّهم مستعدّون لحضور جنازة، والبدو برماحهم وسيوفهم المعقوفة، والهنود الذين ينجحون في الظهور بمظهر أشعث وكأنهم الأفقر مع أنّهم من أغنى الحاضرين.

وكان هناك أيضاً إيرانيون، وصينيون، وإندونيسيون، وماليزيون، ودزينة من الأعراق الإفريقية، ومصريون، وأفغان، وبلوش، وسواحليون، وعرب من جميع الأوصاف. ويمكن تمييز ممثلين عن نصف الأعراق على الكرة الأرضية في المسجد في أيّ يوم خلال الشهر الذي يسبق الحجّ. ويمكنك أن تتخيّل النتيجة المتنوعة وجلبة الألسن.

إنّ سلوك كلّ مجموعة حين دخولها المسجد لأوّل مرة يُعدّ دراسة ممتعة، كما أنّه يمثّل الخصائص العرقية الخاصة بكلّ مجموعة. فتباین عواطف الهنود الجياشة عندما يشاهدون بأمّ أعينهم الضريح الذي تعلّموا منذ الطفولة بأن ينظروا إليه بخشية أسطورية مع السلوك المنضبط للعرب الأكثر رباطة جأش، بينما يبدو الأندونيسيون والصينيون أكثر إصراراً على الاندهاش من كل شيء. وبالمحصّلة فالكلّ معجب بطريقته الخاصة ولقد انفجر العديد بالبكاء وأقبل بهيجان على تفصيل السياج. لقد رأيت أفغاناً وهنوداً يسقطون وكأنّهم غابوا عن الوعي. ويبدو أنّهم كانوا أكثر تأثراً هنا ممّا كانوا عليه عند الكعبة نفسها. في مكّة كان الشعور رهبة وتبجيلاً، وهنا تحضر العناصر الشخصية. يمكن أن يتخيّل الناظرون إلى الضريح أنّهم يزورون شخصاً عزيزاً كانوا قد عرفوه حقيقةً وأحبّوه في حياته. ويصغون إلى مرشدتهم وهو يصف ما يحيط بهم باهتمام بالغ. هنا المكان الذي كان النبيّ يصليّ فيه، والمنبر الذي يعظ عليه، والأعمدة التي

كان يستند إليها، وهناك يطلّ على المسجد شبّاك بيت أبي بكر حيث أقام ضيفاً لمدة طويلة، وخلفه حديقة صغيرة زرعتها ابنته فاطمة. كلّ هذه الأشياء من وحي الخيال حيث أنّه لم يبق أثر للمسجد الأصلي، ويبقى المكان على الأقل أصيلاً، وهذه الفكرة لا تقلّل من تقدير الحجاج لها.



إنّ الأفكار التي غالباً ما أعكسها عن الحجّ من بلدان هي الآن تحت النفوذ الأجنبي، حيث يعيش الإسلام حياة معاناة، وتقوم الطبقات الحاكمة بالتهكّم على عقيدته والعبث بها عندما لا تتلائم شرائعه مع تصوّرها الخاص بالحضارة. هنا في مدينة النبيّ على الأقل توجد جميع المؤشرات الخارجية على السلطة والثروة، والمعايير الإسلامية تطفو فوق الحصون حيث تحمي أبوابها صفوف من المدافع، ويصمد قانون القرآن بداخلها دون تغيير منذ ألف سنة، ولا يمكن لأحد من غير المومنين أن يدخل ممتلكاتها المقدسة. وتدلّ روعة المسجد على الأمجاد الماضية لإمبراطوريتهم. سيبقى ذلك كلّ كما هو، ودون أدنى شكّ سيذكرّ الكثيرون بأيّام الخلافة التي حكمت العالم المتحضّر، وللجميع الأمل بأنّ أيّاماً أفضل لا بدّ أن تشرق.



من باب التقوى عمد مسعودي إلى قراءة القرآن مع رجل آخر في ذكرى وفاة والده. وكان الرجل كالعادة أعمى ويحصل على معاشه بهذه الطريقة. وكم يبدو مدهشاً أن يكون أناس عديدون يحفظون القرآن كاملاً عن ظهر قلب ويعيدونه دون خطأ واحد أو نسيان مقطع واحد. إنّ العمى لسوء الحظ شائع في هذا الجزء من الشرق وهناك محاولات من جماعات محسنة لتوفير فرص وظائف للمصابين به. وفي الواقع فإن العمى من الرجال والمتسولين من جميع الأطياف يستمتعون بأوقات طيبة بالحجاز. وتعتبر الزكاة التي هي إحدى الأركان الخمسة الرئيسية للإسلام، مباركة بشكل رئيسي عندما تُمارس في أثناء الحجّ. لقد رأيت أناساً يرمون حفنات من الفضة أثناء خروجهم من المسجد. والعديد من المتسولين على أيّ حال هم من أسوأ أنواع الدجّالين ويجب مكافحتهم.

تحدّثت بعد ذلك في مكّة إلى رجل أعمى أخبرني أنّه فقد بصره قبل عشر سنوات من ذلك الوقت بعد أن أصيب بالرمد. وبالحال بدأ بتعلّم القرآن واستطاع حفظه بشكل متقن في غضون سنتين. وأخبرني بأن الثلاثة الأجزاء الأولى كانت هي الأصعب حقاً، أما ما بعدها فقد كانت أسهل نسبياً بحسب قوله.

* * *

سألت ذات مرة عن إمكانية دخول أيّ شخص داخل سياج الضريح، فعلمت أنّ بني هاشم من أحفاد فاطمة وعليّ وأن الخصيان المسؤولين هم فقط المسموح لهم بدخول محيط الضريح. ولا يعني أنّ دخول أيّ شخص إلى محيط الضريح سيوضح غموض ما خلف الستائر، وإذا لوحظ دخوله، فإنّ هذا يعني له هلاكاً فورياً. لقد عبّر البعض عن شكوكهم فيما إذا كان محمّد مدفوناً هناك أصلاً. ودون الادّعاء بتمحيص الحقائق المذكورة لدعم وجهة النظر القائلة إنّّه ليس مدفوناً هناك، أعتقد ولدرجة كبيرة انه من غير المحتمل أن يكون هذا الشك صحيحاً. لقد عاش النبيّ إلى أن اطمأنّ إلى أنّ الدّين أصبح ظاهراً على جميع البلاد العربية، وعملياً كان الأمر التّاهي عند وفاته، فمن غير المعقول (في حال كان دُفن بمكّة) أن ينسى قبره في مكان مثل مكّة والتي كانت دائماً حصناً للمذهب⁽¹⁾.

هناك حكاية تقول بأنّه قبل مئات من السنين اخترق اثنان من الأوروبيين المدينة متخفّين وحاولا الوصول خلال نفق من منزلهما إلى الضريح⁽²⁾، ولكن تمّ اكتشافهما فأعدما صلباً

(1) هذا جدل غريب ربما يدلّ على قيام بعض المزاغم في عصر رحلة وافل حول مكان قبر الرسول، عليه أطيب الصّلاة والسّلام. وإلا فالثابت ثبوتاً قطعياً، لدى القاضي والدّاني، ولدى جميع مذاهب الإسلام شرقاً وغرباً أن قبره الشريف في الرّوضة الخضراء بالمسجد النبوي الشريف بالمدينة المنورة يثرب، على ساكنها خير تحيّة وأطيب سلام. غير أن الجميل أن هذا ما يخلص إليه وافل، الذي يقدّم لنا على صفحات كتابه آراءً وانطباعات أمينة وصادقة وتسم باحترام الإسلام والمسلمين.

(2) هذه الرّواية صحيحة، وقد جرت في أيام حكم السّلطان الملك العادل نور الدّين محمود ابن زنكي (الشهيد)، الذي حكم بدمشق بين 549-569 هـ. ويرد فيها أن السّلطان أبصر في منامه

(يُستشهد بهذه القصة وغيرها من القصص لتبرير الاحتياطات العظيمة عند استقبال المغيرين لدينهم من الأصول الغربية). لقد سئلت عمّا سيحدث لأوروبيّ متخفّ والذي يُكتشف لسوء حظّه هنا أو في مكّة. ويُعتقد بشكل واسع بين السكان أنفسهم بأن لدى السلطات تعليمات بقتل أي شخص يُكتشف ودون طلب الإذن من إسطنبول. ومن المحتمل أنّه لا يوجد بالواقع أساس لهذا الاعتقاد، ومع أنّه مجرد نوع من الأوامر التي يمكن إصدارها في تركية. وإذا تمّ إخطار السلطات المحلية بهدوء فعلى الأغلب سيحاولون إخراج المتسلل بسلام من البلاد، ومن المؤكد أنّهم سيفعلون ذلك إن كان إنكليزياً⁽¹⁾.

وإذا تمّ كشف هوية الزائر لمطوّفه فإن المسألة تصبح مسألة «كم ستدفع»، والرّشوة واردة غالباً. وإذا تمّ كشف الرشوة من قبل أهل مكّة خارج موسم الحجّ، فمن المشكوك به حصول أي شيء إلا مغادرة المسافر على عجل. وإني أميل إلى الاعتقاد أنّهم في المدينة أكثر تعصّباً في هذه النقطة، حيث أنّ الضريح يدين بتميّزه إلى مقامه من حيث النظرة الإسلامية، وأيضاً فإن الهروب من المدينة ليس بالأمر السهل كما هو من مكّة.

ولكن لن تنفع جميع خيول السلطان وجميع رجاله لإنقاذ شخص أصبح معروفاً أنّه كان «إفرنجياً»⁽²⁾ متخفياً وفي المكانين كليهما من الغضب العام لحشود الحجّاج في هذا الموسم. وإنّ عبوراً سريعاً إلى العالم الآخر بضربة سيف أو بطلقة هو أفضل ما يمكن مقارنةً بالنهاية التي يمكن أن يواجهها. والفرصة الوحيدة في هذه الحالة الطارئة هي إعادة نطق الشهادتين للدين الإسلامي ومحاولة اللجوء إلى بيت أحد المتنفّذين مثل شريف مكّة.

يحصل من وقت لآخر أن يتّهم بعض المسلمين ذوي السلالة العريقة، بكونهم

رؤيا للرّسول عليه الصلاة والسّلام يقول له فيها: يا نور الدين أغثني من هذين. فما كان من السّلطان إلا أن توجه إلى المدينة المنورة وبحث في الأمر إلى أن ظفر بالفرنجين فقتلهم. والقصة مشهورة في مصادر التاريخ ككتاب الرّوضتين لأبي شامة المقدسي، والكواكب الدريّة في السيرة التّوريّة، والدّر الثمين في مناقب نور الدين، كلاهما لبدر الدّين ابن قاضي شُهبة.

(1) كتب المؤلّف: دوّنت هذه الفكرة سنة 1909، إنما هي ليست مؤكدة اليوم.

(2) كتب المؤلّف: يطلق هذا اللفظ، وهو مجرد تحوير لصفة «فرنسي»، على الغربيين المسيحيين.

مسيحيين متخفين. ولقد كاد الموظف التركي الذي التقط بعض صور هذا الكتاب⁽¹⁾ أن يفقد حياته على يد المغاربة العرب في يوم عرفات. وقد سمعت أن حاجاً روسياً، مع أنه وعائلته من المسلمين منذ أجيال خلت، قد أنقذ بصعوبة من قبل السلطات التركية في ينبع في مواجهة حشد غاضب أثرت حفيظته من عصابة الرأس التي اعتمرها والتي تشبه القبعة الأوروبية.

لقد حاولنا عدة مرّات زيارة البقيع، وهي المقبرة التي تقع خارج الأسوار، مكان دفن العديد من الشخصيات الإسلامية الشهيرة. لقد كانت البوابة مقفلة حيث أنها كانت تحت مرمى نيران الأعداء، ولم نستطع الدخول لفترة طويلة. كان هناك الكثير من الإصابات في بداية الحصار، وقد قرّرت الحكومة إغلاقها في الوقت الحاضر. لكن لم تحصل أية أعمال عدوانية من قبل الجانبين منذ وصولنا، ولم يكن هناك من مظاهر عدوانية غير اعتيادية عدا بعض طلقات بنادق عابرة.

* * *

كان صديقنا الدمشقيّ عبد الله قد عرّفنا على بعضهم، والتقى عبد الواحد بعض الأصدقاء من حلب وقد قمنا بتبادل الزيارات معهم. برد الطقس كثيراً وأمل الكثير من الناس أن يتعب البدو المخيمون حول المدينة فيرحلون، خصوصاً أن أغلبهم قد أتوا من الجنوب الدافئ. وترى نفس الاندفاع هنا في دمشق، إنما بحماس أقل. وتظهر المبادئ البرلمانية والليبرالية على تفكير العرب والأتراك على حدّ سواء. وقد اعتبر بغضي لكليهما رجعية يائسة وردّة فعل. أعتقد أنني نجحت في خلق الاعتقاد أن زنجبار بلد متخلف أو أنني نفسي غبي بشكل فريد. وقد كنت حريصاً على ادعاء عدم معرفتي بأيّة لغة أوروبية ممّا يُعدّ جهلاً مطبقاً حتّى في المدينة المنوّرة، حيث أن معظم عليّة القوم الذين اختلطنا بهم لديهم بعض الإلمام بالفرنسية وفي بعض الأحيان بالإنكليزية.

(1) في الطبعة الأولى من كتاب وافل التي أصدرتها دار كونستابل بلندن عام 1913 توجد بضعة صور فوتوغرافية قليلة، لكنها غير موجودة في طبعة 1918 التي رجعنا إليها.

تلقى إنكلترا ولغتها استحساناً في كل مكان، ولا تقارن بقيّة اللّغات الأوروبيّة بها. ولا يرجع السبب فقط للتعقيدات الأخيرة مع النمسا على ضمّ البوسنة والهرسك، إنما أيضاً للاحترام الحقيقي للمؤسّسات البريطانية وممارساتها⁽¹⁾.



هناك الكثير من المقاهي في المدينة المنورة اعتدنا أن نرتادها للتدخين في الأمسيات. إنما هذه المقاهي لا تمتاز بالنظافة وعامة تخسر في مقارنتها مع المقاهي في دمشق. وقد يثري أيّ إمريّ يفتح لنفسه مقهى أو فندقاً معتبراً. وثمة فرصة أخرى لعمل مربح قد يكون مخزناً للأطعمة المبرّدة، حيث أنّ اللحم غالي الثمن ولا يمكنك الحصول على السمك. لكنك تجد الكثير من الأطعمة الأوروبية في الحوانيت، ومن الغريب أن ترى في هذه الأنحاء إعلانات بضائع مثل شوكلاته كادبري المعروفة، وهتلي ويسكويت بالمر.

بحثت كثيراً لأحمل معي شيئاً يتضمّن خصائص المكان كتذكّار، إنما لم أعر على شيء ذي قيمة. فلم يكن هناك صناعة، ولا كتب مطبوعة. فابتعت بعض الصخور الغريبة، والتي تعرف عملياً بالغرانيت الملوّن، وتتواجد على إحدى الهضاب في الجوار⁽²⁾. وعند عودتي إلى مصر وجدت نفس هذه الأحجار تباع في القاهرة بنصف الثمن. ويبدو أنّ الكثير من الحجاج قد أخذوا على حين غرة مثلي تماماً. وقد سرّ عبد الواحد عند عثوره على بعض مخطوطات الكتب، والتي اشتراها بثمان باهظ على أمل أن يبيعهافي أوروبا مع ربح كبير حيث كانت إحداها مكتوبة بالخط الكوفي، ومن المفترض أن تكون قد كتبت في عهد الرسول ممّا يزيد من قيمتها. وفي أحد الأيام، حين كنت أمتّع نفسي بمحاولة فكّ رموزها، عثرت على ذكر لأحد الأشخاص الذي عاش بعد مئات من السنين من عهد الرسول، ووصلت إلى استنتاج أنّ من باع

(1) كتب المؤلف: لم يعد هذا السبب قائماً للأسف، حيث ان تأثيرنا قد اضمحل مذكّال. ولكي نفهم إنكلترا اليوم علينا ان نقرأ في السياسة الألمانية.

(2) كتب المؤلف: في الحقيقة، تتواجد هذه الصخور في اليمن.

المخطوطة تلك إلى عبد الواحد لم يكن مغفلاً إلى الحد الذي ظنه به.

أقمنا علاقة صداقة مع الشيخ المسؤول عن المكتبة الجميلة الملاصقة للحرم. قمت بزيارته عدة مرات هناك وقد أطلعت على عدة مخطوطات أصيلة ومثيرة للاهتمام. وكانت المكتبة على صغرها مفروشة بشكل مترف ومحافظ عليه جيداً. والدخول إليها مجاني، إنما كتبها ليست للإعارة.

هناك حمّامان تركيّان في المدينة، وكلاهما سيّء ومزدحم في هذا الموسم. ترى هذا التناقض في كل مكان، حيث تتناوب القذارة والخبائث مع الترف الفاحش. ومن الغريب أنّ هؤلاء الناس المعروفين باهتمامهم بالنظافة الشخصية يحتملون هذه الحالة القذرة في الحمّامات العامة هنا وفي مكّة.

أما طقس المدينة المنورة في هذا الوقت من السنة فهو مبهج، فالهواء دافئ خلال النهار إنما مثير للنشاط، وبارد خلال الليل، وكنا لا ننام إلا تحت طبقتين من الأغطية على الأقل. لا يستطيع أغلبية الحجاج تحمّل نفقات السكن في منازل، لذا فهم يخيمون في أي مكان خال يحصلون عليه، ومعظمهم يتمركزون في الساحة الكبيرة التي تتوسط قسيمي المدينة. ولا يحتمل القادمون من الجنوب البرد، وقد يكون هذا السبب لتعداد الوفيات العالي بينهم.



بدأت المشاكل تتصاعد مع البدو بعد أسبوعين هادئين مرّا علينا في المدينة المنورة. كان هذان الأسبوعان هادئين إلى درجة أنّ الناس اعتقدوا بانتهاء المشاكل وحاول بعضهم ممن يمتلك منازل وبساتين خارج النطاق المحمي أن يزوروا ممتلكاتهم، إنما دفعوا حياتهم ثمناً لهذه المجازفة. صبحونا في فجر اليوم التالي على أصوات إطلاق نيران كثيف إلى الجنوب من المدينة، وعلمنا أنّ البدو توجّهوا إلى القواعد الدفاعية الأمامية وبدأوا بإطلاق النار على جنودها. سرنا، أنا وعبد الواحد، بعد الإفطار إلى البوابة التي تفضي إلى البقيع فوجدناها مقفلة وعليها حراسة. فسألنا أحد الجنود إن

كان بإمكاننا تسلّق السور لإلقاء نظرة على ما يجري، فلم يمانع إنما حذّرنا من تعريض أنفسنا للخطر. تسلقنا السور وسرنا بمحاذاة الحاجز إلى أن وصلنا إلى طاقة المدفع التي تسمح برؤية واضحة لما يجري، فهي تقع في الزاوية الجنوب غربية عند نقطة التقاء السورين. يقبع هناك مدفع كبير، وبعض البارود الأسود، ويتأهب حوله ستة من الجنود بإمرة ضابط شاب. وكما فعلنا نحن، وجدنا اثنين من الخصيان قد أخذوا مكاناً محمياً يراقبان ما يجري. ترامت الأرض أمامنا إلى نحو آلاف من الياردات، تناثرت فيها المقابر وظهرت آثار جدران قديمة تحدّ من ورائها مزارع النخيل الوارفة. تمترس وراء أحد هذه الجدران وفي موقع متوسط إلى اليمين أكثر من خمسين مسلّحاً يطلقون النيران بابتهاج ودون هدف معين. تصاعد من وراء الأشجار نفثات من الدخان تدلّ على مواقع الأعداء. أرت بعض الطلقات من فوق رؤوسنا واستقرّ البعض الآخر بالحائط. أما مدفعنا فقد أطلق بعض القذائف المتفرّقة على الموقع المتصاعد منه الدخان الأكثف.

اتخذنا لأنفسنا موقعاً نستطيع منه أن نراقب جيداً دون التعرّض لأي أخطار، وقضينا الصباح ندخن ونتسامر مع الجنود. وللأسف، لم يكن القائد يتقن العربية لكن عبد الواحد استطاع أن يتخلّص من الكثير من الأخطاء في لغته التركية. وفي منتصف النهار، وبعد أن تبين عدم وقوع أية أحداث جديدة، توجّهنا نحو المسجد لإقامة صلاة الظهر ومن ثمّ لتناول بعض الغداء. ترامت الأخبار في ذلك المساء أنّ العديد من أفضل الفرق العسكرية في طريقها من القسطنطينية. يرافق هذه الفرق باشا ذو شهرة جديدة بالاعتبار في الحرب، سيستلم القيادة في المدينة المنورة⁽¹⁾. كما يبدو، توصّلت الحكومة إلى قرار يقول بحسم المسألة المشينة الحالية.

(1) يعني بصري باشا، لكن أشهر حكام المدينة المنورة كان فخر الدّين باشا الملقب بالتركية بـ: Çöl Kaplanı (نمر البرّ)، الذي كانت له لاحقاً صولات وجولات أثناء حصار لورنس للمدينة المنورة أواخر الحرب العالمية الأولى (1916-1918)، فقد فخري باشا الدفاع عنها بشكل بطولي استرعى احترام الإنكليز كثيراً. وسيرد خبره في كتابين قادمين ضمن هذه السلسلة: ثورة في الصحراء، ومغامرات مع لورنس في جزيرة العرب.

لقد أثرت سياسة المسؤول السابق على الحاكم لاتخاذ إجراءات نشطة. فمنذ بدأت الأحداث الكارثية، قنع هذا المسؤول بتبني موقف دفاع سلبي، ومن الأكيد أنه كان يتمنى في قرارة نفسه أن البرد، الجوع والمشاكل الداخلية ستؤدي بجماعات البدو إلى التفرق دون مواجهات دموية. أما الآن، فقد قرّر أن يقوم بعمل مدهش خلال الأيام القليلة المتبقية له، وكسابقة أولى من نوعها قرّر أن يعتمد العملية العسكرية المعروفة «قوة الاستطلاع»، أي اقتحام الخطوط الأمامية للعدوّ بهدف اكتشاف موقع الجسم الرئيس له وما يفعل. وإن أسعفتني الذاكرة جيّداً، فقد حدّد التدريب العسكري أنّ هذه الخطة غير مقبولة وخطرة في الحصول على المعلومات، إنما يسمح بها تحت ظروف خاصّة فقط، وقد أثبتت هنا خطورتها.



إنّ المدينة محاطة بمزارع النخيل من ثلاث جهات، أما من جهة الغرب فإنّ الأرض مفتوحة، وتعلو قليلاً عن بعد، ثم تتناثر فيها بعض الهضاب التي تحوي بساتين نخيل. تسيطر على هذه الأرض المفتوحة مدفعية متمركزة على الأسوار والحصن المنفرد في جهة الشمال الغربي للمدينة. في فجر الصباح التالي، تقدمت فرقة من حوالي أربعة آلاف رجل بشكل متفرّق. وما لبثت أن واجهت مقاومة، وفي الساعة العاشرة، كان الجميع منهمك بإطلاق النار. علمنا أنّ هناك شيئاً ما يحصل فأسرعنا بالتوجّه إلى بوابة البقيع لاتخاذ موقعنا السابق. إنّما، خاب أملنا حيث لم يُسمح لنا بالصعود إلى السور. فرجعنا أدراجنا رغماً عنا، إنما بعد الغداء، أصبح صوت القتال أكثر جذباً، فأصررت على المحاولة مرة أخرى. ومرة أخرى منعنا من تسلّق السور، إنما لم يكن لديّ أيّ نية بالاستسلام للرفض. فما شرعنا بالتقدم حتى تأهّب الحارس بسلاحه. نزلنا وأخذنا نجادله، فخرج القائد المسؤول وقال لنا إنّنا أغبياء، وأنّ موقع الدفاع من هذه الجهة تحت مرمى النيران. فأقسمنا أننا سنكون حريصين ولن نعرض أنفسنا للخطر إن سمح لنا بالصعود. التزم القائد موقفه قائلاً إنّ الأوامر التي تلقاها صريحة وأنّه من المستحيل أن يأذن لنا. خلال هذا الجدل كنّا نصعد الدرج خطوة بخطوة إلى حين وصلنا إلى

إنحناء في الدرج فأسرعنا الصعود واختفينا من أمامه. توقعت أن يلحق بنا ويرجعنا بكل خزي، إنما يظهر أنه قد يئس منا على أساس أننا أغبياء من الأفضل السماح لهم بالصعود ومن ثم يصابون بطلقات نارية إن أرادوا ذلك حقاً. عند وصولنا إلى القمة، أخذنا طريقنا بمحاذاة السور إلى موقعنا السابق، إنما لم نجد المدفع في مكانه. تابعنا السير على السور الدائري إلى أن وجدنا المدفع في موقع آخر يحمي الجهة اليسارية من خط الدفاع، وحوله أصدقاؤنا القدامى تحت إمرة قائد جديد. كنا في موقع جيد لمراقبة ما يجري دون التعرض لأي خطر، ووجدنا ستة مطوّفين وبعض الخصيّان هناك لنفس الغرض. إنّ الخصيّان طبقة من أهل المدينة الذين يتمتّعون بامتيازات خاصة، ويعاملون بكل احترام، أما أهل المدينة أنفسهم فهم غير معتادين على أن يتحكّم فيهم أحد، ممّا يفسّر وجودهم في هذا الموقع.

إنّ البنادق المستعملة من قبل الجانبين، كما بقية الأسلحة، تستعمل البارود الأسود، ولذا كان من السهل تتبّع خط سير المعارك. لم يكن هذا الأمر سهلاً في المعارك التي قامت في جنوب إفريقيا. بينما كشف الدخان الأسود مواقع المهاجمين والمدافعين بوضوح وكأنها مترسمة على خارطة.

عندما وصلنا إلى الموقع، كانت الفرق التركية قد تقدّمت حوالي ثلاثة أميال في السهل المفتوح في مواجهة مع البدو المسيطرين على الواحات والبساتين المتناثرة. كان الأتراك يطلقون وابلاً من الرصاص والكثير من الذخيرة، أما البدو فكانوا يتحتمون الفرص للنقص. أما المدفعية فكانت تطلق بطريقة غير منهجية وتراءى لي أنّها تمرين على القتال. واستعملت القذائف والقنابل التي تشظّي، حيث أنّي لم ألحظ استعمال فتيل لها. تواجد إلى الجهة اليمنى مدفعان من النوع العامل ببارود عديم الدخان smokeless powder، ولم تسنح لي الفرصة بأن أدقّق فيهما عن قرب، إنما كان يبدو واضحاً أنّهما من عيار كبير.

لم يكن الهدف من هذه العمليات واضحاً، حيث أنّ إطلاق القذائف من هذا البعد لا يحقق النجاح المطلوب، وكأنّه لم يكن المقصود به دحر الهجوم. اقترح البعض ان

الطريقة الوحيدة لتحقيق آية نتائج حاسمة هي التقدّم في مزارع النخيل، ودحر العدو، والسيطرة على ماوراء هذه المواقع. فعلق القائد المسؤول بقوله إنّ هذا هو الرأي السديد، إنما للأسف لم يكن أحد لاتبعه. ففي الحقيقة، تكوّنت الفرق من مجتدين حديثي العهد قليلي الخبرة بالالتحام المباشر.

بقينا في موقعنا عدة ساعات، لم يحصل خلالها أيّ تقدّم يذكر، بل بعض الجولات من إطلاق النار على من يدخل في مجالها. وكان أقصى ما حصل إيقاع بعض أشجار النخيل. قدّم لنا عبد الواحد والخصيان، الذين يعرفون الكثير عن المعارك، عرضاً طويلاً عن الاستراتيجيات والخطط الحربية بشكل عام، وتفاصيل الحملة التي نراقبها، إن صحّ إطلاق هذا التعبير على ما يحصل أمامنا. بدأت بالتساؤل عمّا سيحصل عندما يتوقفون، ولا بدّ من التوقف. كان واضحاً أنّهم لن يستطيعوا التوقف دون اعتداء عليهم بالنظر إلى مواصفات عدوّهم وطبيعة الموقع.

أردنا الحصول على رؤية أوضح، فقررنا تغيير موقعنا إلى البوابة المواجهة للمحطة. فنزلنا من على السور الذي أصيب في بعض أجزائه وسرنا إلى بوابة جانبية قادتنا إلى داخل المدينة، إلى أن وصلنا الشارع الرئيسي. كانت البوابة الكبيرة مفتوحة تجمع حولها حشد من الناس يراقبون المعارك. وكانت المباني التي ما زالت تحت الإنشاء والبوابة والسور محصنة حيث وضع مدفعان فوق المباني. لم أجد حرجاً من السير قدماً إلى حيث جلس البعض في ملابس مدنية. كان هناك العديد من المقاهي ما بين البوابة والمحطة تواجد فيها الناس. فانضممنا إلى المجموعة وكانوا خمسة مطوّفين يراقبون ما يجري منذ الصباح. لم تترك المعارك تأثيراً طيّباً عليهم حيث أنّه لم يحصل أيّ تقدّم يذكر مع استمرار مرور الجرحى والقتلى أمامهم طوال النهار. كنّا قد صادفنا أربعة جرحى في طريقنا، وقال لنا أحدهم لا زال يحمل بندقيته أنّه من المتطوّعين إنما استغرق في النوم فترك في موقعه وحده. انضمّ المتطوّعون إلى المحاربين قبل عدّة أيام، وحصلوا على بنادق لحراسة الأسوار خلال الليل وحماية مواقع ضرورية خلال النهار. وطبعاً من الضروري إبعادهم عن أيّ التحام مباشر مع العدو خصوصاً

في ظروف هذه الحرب. لم تُصرف لهم ملابس عسكرية ولم يغيّروا ملابسهم المريحة والملوّنة مع أنها لا تلائم ما يفعلون. أما فرقة حُرّاس المدينة المحاربين فكانوا يشبهون حقلاً من الزعفران في شهر آذار، ومن السهل جداً رؤيتهم عن بُعد. سألتهم إن كان من المقبول انضمامي إلى صفوفهم، فرحّب بي، وتطوّع أحدهم بأن يعرّفني إلى الشيخ المسؤول في اليوم التالي، ولم ألقِ بالآ إلى اعتراض عبد الواحد.

أصبحت الساعة الآن الخامسة بعد الظهر، وقد توقفت المعارك منذ بعض الوقت. بدأت الفرق العسكرية انسحابها بطريقة منظمّة تقليدية، حيث يرجع بعضهم القهقري ثم يستديرون لحماية البقية.

عندما وصل الجنود إلى مسافة نصف ميل منّا، بدأنا بالتفكير أنّه حان الوقت للرجوع، إنما كانت الأمور تسير بنظام ولم نكن في عجلة من أمرنا. وفجأة قامت بعض الفوضى بين الناس المجتمعين في المقاهي، حيث هبّوا واقفين وأسرعوا نحو البوابة. كان رجل يتناول قهوته قد أصيب في رأسه فقتل على الفور. وتحول صوت إطلاق النار البعيد إلى لعلعة بنادق قريبة منا مختلط بأزيز الرصاص. وبنفس الوقت هرع حُرّاس مباني المحطة إلى مواقعهم.

كان من الواضح أنّ موقعنا الحالي خطر، فشرعنا بالتراجع إنما لم نكد نصل إلى البوابة حتى أصبح صوت إطلاق النار هديرًا مفاجئًا. نظرت خلفي فرأيت الجنود يسارعون إلى مواقعهم واشتعلت الهضبة بسحابات الدخان، وظهر حشد من الرجال على جمالهم وجيادهم يلوحون ببنادقهم ويطلقون الصرخات العالية. سيطر الرعب على الناس الذين يحاولون العبور من البوابة، وأصيب بعضهم وتأذى البعض الآخر في الزحام. وعندما أطلقت المدافع فوق البوابة شظاياها والبنادق المتمركزة على الأسوار وبقية الدفاعات توقّف تقدّم البدو وأعطيت الفرق الوقت اللازم لتنظيم نفسها. اغتطنا فرصة الهدوء جميعنا للعبور من البوابة وتخلّف شجاع واحد مع بندقيته للاشتراك في المعارك.

كان هناك مشهد فوضوي خارج البوابات. جنود يهرعون في كلّ مكان، وتعالّت

أصوات الأبواق تعلن إنذار الخطر أو الانتظام في الصفوف. وما لبثت أن خفت أصوات البنادق القديمة وهدير القنابل بعد الارتجاج الشديد الصادر عن قنبلتين مرّتا من فوق رؤوسنا وغطّتنا بالغبار والدخان. وهرعت فرقة مع سلاحها الأبيض خلال البوابة. كانت الإثارة شديدة جداً.

أما الحجاج فقد كانوا حكماء في التزام منازلهم، وترك أهل المدينة المنورة الأتراك والبدو يحلّون مشاكلهم. وقد هرع كل من يمتلك سلاحاً من أهل البلد في الدفاع عنها حيث كان يبدو واضحاً أنّ البدو قد قرّروا دخول المدينة.

حلّ الليل سريعاً، ولم يبادر العدو إلى هجوم آخر، بل اكتفى بإطلاق النار على مسافات قريبة. وسمعنا لاحقاً أنّ بعض الاقتال وجهاً لوجه قد حصل في بعض الأماكن.

عندما قدّم الظلام بعض الأمان، تمّ سحب الجرحى والقتلى. لم يكن هناك الكثير من الجرحى في جانبنا مع أنّ السلاح المستعمل يسبب إصابات خيثة. وبالطبع، أسعف الجرحى الذين وقعوا قريباً من البوابة، وكان من بينهم العديد من المتطوّعين للحراسة.

لم أقدم أيّ تعليق لأهل المدينة عند رجوعي، ولم أكن مستعداً لمناقشة نظرة البدو إليهم. ولم يكن هناك أيّ تفسير لقلة احتمالهم منظر إهراق الدماء في حالة الطوارئ هذه. وظهرت ومضات من روح القتال المتأصلة في نفوسهم. بدا الغضب والرغبة في الانتقام واضحين فيمن يحيط بي، واقترح العديد منهم هجمة مباغته على العدو للإيقاع عليه.

حان الوقت للذهاب إلى المنازل حيث أنّ الظلام أصبح دامساً وفرصة حصول هجوم آخر قد اضمحلت. وكان عبد الواحد قد توجه إلى المنزل منذ فترة طويلة بعد أن أعرب عن اعتراضه على سفك الدماء، خصوصاً دمه. في طريق عودتي، التقيت بمسعودي الذي كان حاضراً للمعركة، كان يبحث عني في كل مكان خوفاً من أن أكون

لا زلت خارج البوابة. عدنا سوياً إلى المنزل لنجد صاحبه وعبد الواحد يحضران طعام العشاء.

تركنا إيمان بعد ذلك ليساعد في تحصين السور، كما فعل كل أصحاب المنازل المحترمين تلك الليلة. وعرضنا عليه أن نرافقه إنما استطاع أن يقنعنا بعكس ذلك لأننا لا نملك أسلحة. وبرغم أصوات القصف المستمر، نمت بسلام تلك الليلة خصوصاً أنني كنت مرهقاً.

في الصباح وجدنا البدو قد تراجعوا إلى مواقعهم السابقة واستأنفوا عمليات القنص عن بُعد. وكانوا بالطبع قد أدخلوا قتلهم وجرحاهم الذين يعدّون بالآلاف، كما يفعل العدو دائماً. ولم يكن بحوزتنا إلا أسرى ثلاثة من عمليات اليوم السابق، الذين أعدموا بالسيف وعلقت رؤوسهم على بوابة دمشق ليكونوا عبرة لمن يعتبر من أعداء حكومة جلالة السلطان. إنما حتى لو تسلح الثوار بمناظير قوية، ما كانوا ليتعرّفوا عليهم، وبما أنّ الرؤوس الثلاثة لم تثر أهمية كبرى لدى الناس، فقد أنزلت من على البوابة ودفنت في السوق، الأرض التي لوّثها الغزاة المغيرون الذين وجدوا متعة بكل ما يحصل. وجدت هذه الإجراءات عبثية في طبيعتها وغير صحيحة، وقد عبّرت عن رأيي هذا لأحد الموجودين فقال: «صحيح، لكن هذا الأمر سيزعج الغزاة إلى حد كبير عندما يعلمون به». وافقته الرأي في ذلك، حيث أنّ أي إجراء يخدم هذه المصلحة، طبعاً غير الخيانة نفسها، يصبح مسموحاً، ويتحوّل الأمر إلى مقبول في المدى البعيد.

مهما كانت خسائر العدو، فإن خسائرنا كانت للأسف واضحة، مع أنني لم أكن لأصل إلى الرقم الصحيح، حيث تراوحت التقديرات من مئتين إلى ألف إصابة. لا بدّ لي من أن اعتمد المئتين في تقدير سريع، وهناك عدد كبير من القتلى، حيث أنّ الجرحى الذين تُركوا في الميدان قد قتلوا خلال الليل.

وبعيداً عن أيّ تشييط للعزيمة بعد هذه النتائج، كان هناك حميّة للانضمام إلى الجيش من قبل السكان. لقد تطوّع الجميع، وسلّم معظمهم أسلحة حيث أنّ السلطات كانت مستعدة للدفاع عن سلامة المدينة. لم يتدخل الحجاج إذ أن هذه الحرب ليست

من شأنهم. إنما اعتمد المطوفون مظهرًا يناسب الحرب، فتسلحوا بأحزمة عريضة للرصا ص على اكتافهم، وحراب، ومسدسات صغيرة وخناجر. وانطلق المتطوعون بطلعات مباغته بغير أوامر من أحد خلال الأيام القليلة التي تلت، واشتبكوا مع البدو عدة مرات، وقد قيل لي إنهم حاربوا ببسالة، على الأقل هذا ما كانوا يعتقدون.

لم أكن ومسعودي مستعدين أن نُترك جانباً، ولم نكن لنصغي لاعتراض إيمان باشتراكنا في الحرب وأنه من الغباء أن نتدخل فيها. وبما إنني قد اطمأننت أن لا أحد في المدينة قد يتعرّف علينا، فلم أكن قلقاً من أن أرى معه. استفسرنا من عدّة أشخاص عمّا باستطاعتنا أن نفعل حتى ننضمّ إلى الجيش، وكذا فعل بعض الحجاج، إنما لم يفدنا أحد. وأخيراً صادفنا أحد الجنود الأتراك الذي رافقنا في رحلتنا من دمشق فطلبنا منه المساعدة. فرافقنا إلى القيادة العامة ونجح في تدبير مقابلة لنا مع المسؤول عن تسجيل المتطوعين، الذي كان متعاطفاً معنا ومسروراً، إنما يأسف أنه لن يستطيع أن يفيدنا بشيء حيث أن الأوامر كانت صارمة، فلا حجاج مسموح لهم بالاشتراك في القتال. أما السبب فكان واضحاً، لو فتح المجال للحجاج للاشتراك بهذه الاشتباكات، لكان للبدو كلّ الأعذار لاعتبارهم من المحاربين وسيشرعون بالاعتداء على القطارات أو القوافل في الطريق. أما الحكومة التركية فكانت شديدة الاهتمام بالظهور بمظهر السلطة القادرة على حماية السّلام والأمان في جزيرة العرب، وأن تكون حامي الحمى بالنسبة لإقامة الحجاج في هذا الموسم. فإنّ منع أعداد كبيرة من الحجاج من الوصول إلى المدينة المنورة يشكّل عاراً جدياً عليها، فما بالك إذا قُتل أو جرح من وصل إلى المدينة؟ وقد يحمل الناجون معهم آراء غير مطرية لقدرة السلطان على أن يكون جديراً بحماية الحرمين الشريفين.

على أيّ حال، لم يكن هذا المسؤول ليساعدنا فيما أردنا، وذلك أن يرسل معنا كتاباً لأحد الشيوخ يسمح لنا بالانخراط في قوّاته. وأعلمنا حينها ألا نتسرّع بالقرار، حيث أن المفاوضات كانت قد بدأت مرة أخرى هذا الصباح وقد لا يكون هناك المزيد من المواجهات، وكان لزاماً علينا أن نكتفي بهذا القدر.

ابتدأت المفاوضات فعلاً ذاك الصباح إنما وصلت إلى طريق مسدود. كانت مطالب البدو خارجة عن المعقول، وبعد نجاحهم الأخير لم تكن غطرسة شيوخهم لتحتمل. بالرغم من ذلك، لم تكن هناك أية مواجهات أخرى خلال إقامتنا في المدينة. فقد حصر العدو عملياته بالقنص على الأسوار، وحصر الأتراك نشاطهم في نيران المدافع والسيطرة على الأراضي ما حول المدينة.

وبعد أيام قليلة، وصل الحاكم الجديد برفقة كتيبتين وبعض المدافع. راقبناهم وهم يترجلون من القطار، وكم أدهشني ترتيبهم وهيئتهم العسكرية، فهم يختلفون عن الفرق التي صادفناها إلى الآن. أما أسلحتهم فكانت من نوع ماوزر⁽¹⁾ Mauser 256 والحراب الكبيرة.



مرّ الأسبوع التالي دون حوادث تذكر، خلا مشادة مع المطوّف حمزة، وهو شاب كردي ينحدر من عائلة ثرية، مختص بالحجّاج العجم وعادة ما يكون نصيبه مجموعة لا بأس بها منهم في موسم الحجّ. وكما علمت عنه فإن والده يمتلك منزلاً جيّداً للإقامة. وعليّ هنا أن أشرح أنّ لدى العجم سمعة في البلاد الشرقية كسمعة الإنكليز في القارة الأوروبية، فلا بدّ أن يكون واحد منهم دائماً ثرياً، ويدفع ثمناً مضاعفاً لكلّ شيء. ولا غرو أن يدّعي العجم أنهم من العرب خلال إقامتهم في تلك الأماكن، أولاً لدرء سمعة الثراء، وثانياً للخلاف القائم بين السنة والشيعة والذي لا زال يسبّب بعض المشاكل من حين لآخر. أما حمزة ووالده فلديهما مكتبة في الشارع الذي يؤدي إلى الحرم الشريف، حيث ابتعت منه عدة مرات. ولسبب غير معروف، يعتقد حمزة ووالده أنّي عجمي الأصل وأنّ عمل عبد الواحد معي يحرمهما من حقهما القانوني. ولا زال

(1) بارودة الماوزر الألمانية معروفة، ولا ريب أن تصميم مغلقها يبقى الأفضل في ميكانيك الأسلحة الفردية حتى اليوم، ويسمّى Mauser Action، لكن الشائع في عيار هذه البارودة هو عيار 8 مم (أي 8x57) أو بصورة أدق 7.92 مم. أما عيار 256. جزءاً من الإنش المعادل 6.5 مم (أي عيار 6.5x57) فهو يؤدّي إلى سرعة أعلى للمقذوف، واستواء أفضل للرمايات البعيدة.

حمزة يناقش هذا الموضوع متى التقينا، ودائماً باللغة الفارسية. كنت دائماً أصر أنني لا أفهم الفارسية إنما دون فائدة. وفي أحد الأيام وعلى سبيل النكتة، ألقىت تحية الصباح عليه بالفارسية: «خُدا حافظ»، وهما الكلمتان الوحيدتان اللتان أعرف. يبدو أن لهجتي كانت جيدة جداً، فمنذ ذلك الوقت لم يكن هناك أي شيء يقنعهما أنهما لم يخطئاً في اعتقادهما الأول. وبسبب المشاكل التي حصلت في بلاد فارس نفسها، والمواجهات مع البدو، ثم انتشار وباء الكوليرا في السنة التي خلت، أتى عدد قليل من العجم إلى الحج، ولم يعمل حمزة مع أيّ منهم. ممّا زاد في انزعاجه من حرمانه من العمل معي. بالحقيقة كنت أميل إليه، ولن أمانع أن يعمل معي إن كان هذا ممكناً. في أحد الأيام استوقف عبد الواحد في الطريق وشتمه بعنف، فقال له عبد الواحد أن يذهب إلى الجحيم. ومذاك الحين، انكفأ والده يشيران عليّ بالبنان أمام الناس أو يتصرّفان بطريقة فظة في العلن، وكان لا بدّ من وضع حدّ لهذا التصرف.

بعد المداولة، قرّرنا، عبد والواحد وأنا، أن نتعامل مع الموقف وجهاً لوجه. فتوجّهنا إلى المكتبة وتكلّمنا معهما. أخبرتهما أنّ زيارتي فسدت بسبب الإزعاج المتكرر من قبلهما بسبب اتّهامي بالانتماء إلى مكان لم أطأه في حياتي، ومعرفتي بلغة لا أعرف منها إلا ما سمعاه مني قبلاً. أضفت أنني سأتوجّه إلى شيخ الحرم لأقدم شكوى وأشهده على جواز سفري، وأن موطني الحقيقي ليس يعنيهما في شيء. أنهيت كلامي وخرجت من عندهما وكأنني أنفذ ما هدّدتُ به. وكما قدّرت، فقد استسلما للحال، وهرع حمزة وراءنا معتذراً بشدّة ومتوسلاً أن أعود أدراجي. عندما ألّنت لهما، شرح والده أنهما لم يقصدا أي ضرر وأنهما يأخذان كلامي بأنني لست عجبياً على محمل الجد، وما إليه من اعتذارات. ويعلم حمزة أنني لو نفّذت تهديدي لكان في مأزق جدّي. فلم يكن الشيخ ليقبل بأيّة ترّهات، والإشراف على الدلائل ومتابعة الشكاوى عنهم تأتي أكلها بالنسبة للسلطات. أما في حالتي فكانت شكواي مجرد تهديد طبعاً.

ما لبثنا أن أصلحنا الأمور فيما بيننا ووعدت حمزة أن أدعه يأخذنا إلى البقيع يوماً ما، وإلى أماكن أخرى، متى كان الأمر ممكناً.

وقد كان ذلك ممكناً فعلاً بعد بضعة أيام. إذ لم يجر أي قتال في تلك الناحية من المدينة مؤخراً، وبناءً على طلبات عديدة، فُتحت أبواب المقبرة لدخول الحجاج. قدم إلينا حمزة بعد الغداء ورافقنا إلى جميع المقابر هناك، وسيكون وصفها مملاً في هذا المقام، إنما ما هو أجدر بالذكر هو مظهر المباني المتواضع وحالة الإهمال التي تهيمن على المكان. بالحقيقة إنَّ هذا الشيء مستغرب حينما تفكر بالملايين التي أنفقت على المباني الدينية في بلاد إسلامية أخرى، مثل المساجد الفارسة في القاهرة ودمشق، والقبّة الذهبية في كربلاء، والرفاية المطلقة التي يصفها المسافرون الهنود. بينما هنا، وفي مهد الدين نفسه، فإن أضرحة زوجات النبي، وابنه الرضيع إبراهيم، وحفيده الحسن، وغيرهم كثير ممن لا تذكر اسماءهم إلا مُقترنة بالدعاء والرّضوان، لهي هزيلة الحجم والجمال، ولا تُرّم مثلما ترّم أماكن خاصة أخرى. وليس لديّ أي تفسير أو تبرير لهذا الأمر بالذات.

وجدنا حمزة دليلاً جيداً. لقد قرأ أدعية الزيارات بصوت جيّد ولفظ واضح، وكان على مقدرة أن يجيب على كل سؤال وجه إليه. لكن كان لديه تأتأة مزعجة خلال الحديث.

لم يُسمح لنا بدخول أضرحة أيّ من النساء، حيث كان يشغلها حارسات نسوة تحسباً لأمر مثل هذا. فلزم علينا بوجودهن أن نقوم بالزيارة والدعاء عن بعد، واستغرقت الرّحلة تلك عدة ساعات.



في اليوم التالي، رافقنا حمزة إلى عدّة أماكن مثيرة للاهتمام في الطرف الآخر من المدينة، أحدها ضريح عبد الله، أبي الرّسول. وقد أثار هذا الضريح أزمة لعلماء المسلمين. فإن عبد الله توفي عندما كان الرّسول طفلاً، ومن الواضح أنّه لم يكن مسلماً، بل كان على دين أهل مكّة. فهل يجب أن يُعامل معاملة الأولياء؟ أعلمنا حمزة حقيقة أنّ الرّسول قد طلب له الغفران، وللحال استجاب له ربه فأعاد أباه إلى الحياة أمامه، حين نطق الشهادة وآمن بالدين الذي يدعو إليه ابنه على أنه الدين الحقيقي ثم عاد إلى

قبره^(١). إن المسلمين يؤمنون أن كل ما على الأرض يموت قبل يوم الحساب، حتى ملك الموت نفسه. ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۝﴾.

أطلعنا حمزة على رأينا في هذا الموضوع، فإن منطقنا لا يقبله. فكان أن قال إنه هو نفسه لا يصدّق هذه القصة إنما هي قصّة جميلة تخطت الواقعية ولا يمكن إثبات عكسها، لذا فلم الجدل في مصداقيتها؟ إن تعليقاته عادة ما تعكس فلسفة خاصة، وفيها سرعة بديهة.

توجّهنا لنرى ما تبقى من الخندق الذي حفره أتباع الرسول للدفاع عن المدينة في حربهم مع قريش. يعترف الكثير من الناس أنهم يشكّون في هذا، إنما على غرار حمزة، لست أرى أي سبب في عدم التصديق. فمن الأكيد أنّ مشاهدة موقع مثل هذا صعب النسيان.

* * *

وفي يوم آخر زرنا مسجدين يبعدان ميلاً تقريباً عن البوابة الشمالية، وقد كنّا في خطر لفت انتباه بعض القناصة، إنما لم يحدث شيء. دُفن في أحد هذين المسجدين ابن عم الرسول، وقد نسيت اسمه، وقد اعتاد أن يصليّ العشاء في المسجد الآخر بعد مشاهدة مباريات السباق، والتي يظهر أنّه كان مداوماً عليها. يضاف إلى مزايا الرسول محمّد أنه النبي الوحيد الذي كان فارساً وبأسمى معاني الرجولة والفروسية، حيث أنه منع المراهنة على نتائج السباقات.

من إحدى عادات حمزة الدائمة أنّه يكحلّ عينيه، والكحل هو مسحوق أسود مرغوب الاستعمال عند العرب منذ ما قبل الرسول الذي قيل إنّّه قد استعمله^(٢). يُنسب

(١) ترد في المرويات الشفاهية بذلك العصر أفاويل وأساطير كثيرة لا علاقة لها بالواقع من قريب أو من بعيد، لكننا نبقى عليها في النص من باب أمانة الترجمة على لسان راويها، لا من باب الأخذ بها كمسلّمات. وإن أفادنا ذلك بشيء فهو مجرد الاطلاع على عقلية أبناء ذلك العصر وانتشار الجهل والخرافات بينهم.

(٢) كتب المؤلف: يروى عن الرسول انه قال إن الكحل أحد ثلاثة لا تعار، بجانب مساوئ الأسنان والزوجة. لكن هذا حتماً لا علاقة له بالحديث الشريف، ومصدر هذه الطرفة لا بد أن يكون العصور الوسطى.

إلى الكحل أنه يحافظ على النظر ويحمي من التهاب العينين. لقد جرّبت استعماله عدة مرات، إنما وصلت إلى نتيجة أنني أتشبه بالفتيات في جوقات الغناء. أما عبد الواحد فقد استعمل منه كمية كبيرة في عينيه كاد يطفئهما، وعندما حاول تنظيفه بقطعة من الإسفنج، لوّث كامل وجهه باللون البنفسجي الفاقع، وقضى بقية النهار يحاول إزالته بالصابون دون فائدة تذكر، حيث أن هذه المادة تلصق التصاقاً عجيباً.



مرّ علينا إلى الآن في المدينة المنورة ثلاثة أسابيع وبدأنا بالتفكير في الرحيل، واتباع الخطة الأولى للسفر إلى مكة مع المحمل الشامي، أو إن لم نستسغ الفكرة مرة أخرى، مع أية قافلة متوجهة إلى هناك. تتحرك القوافل في هذا الموسم من كل عام كل بضعة أيام، إنما ونتيجة للحرب الدائرة هذه السنة، لم تخرج أية قافلة إلى مكة، وقد لا يخرج أي منها لبقية الموسم. وقد أشيع أن المحمل قد يسلك طريق البحر وهو أمر لم يعرف حدوثه من قبل.

لقد أقلقني فكرة بقائي في المدينة المنورة. وتبلور لدي يقين بأن موقف البدو الحيادي تجاه الحجاج لن يصمد طويلاً، خصوصاً إن قامت الفرقة العسكرية القادمة بأي عمل عدائي وهو ما كثر اللغط حوله. فقد نرى أنفسنا تحت الحصار في أية لحظة ولا نتمكن من الخروج أبداً. لم أحبذ فكرة فشلي في الحجّ إلى مكة والذي هو هدفي الرئيس.

ما تيسّر من مخارج لنا كان الآتي: أولاً البقاء في المدينة المنورة وانتظار فرصة خروج قافلة إلى مكة، أو مرافقة قافلة إلى ينبع ومن ثمّ إلى جدة عن طريق البحر، أو أخيراً الرجوع إلى دمشق. كان المخرج الأخير آمناً ومؤكداً، لكنني لم أحبذ تجربة الرحلة في القطار مرّة أخرى، ولم أكن لأفوّت تجربة السفر مع قافلة في جزيرة العرب. كثر الكلام عن قافلة متوجهة إلى ينبع قريباً، إنما لم يكن هناك أي شيء مؤكّد عنها. وكل من سأله عنها أعطانا إجابة مغايرة. فقد ضحك البعض من مخاوفي، وقال إنّه من غير المقبول أن نمنع من الحجّ، فقد كان هناك حدود حتى للجاجة البدو. ونصحني

البعض الآخر أن أغتنم الفرصة وأخرج من المدينة طالما الفرصة سانحة.

أما الأحداث التي تلت فقد أتت بالقرار على عُجالة. إذ رجع مسعودي إلى المنزل في أحد الأيام وقت الظهيرة محملاً بأنباء غير سارة، وروى أنّه كان في المسجد للصلاة عندما شعر بيد على كتفه، فاستدار ليرى نفسه وجها لوجه مع خمسة من أهل مومباسا السّواحليين، والذين تربطهم به معرفة حميمة، والأسوأ من هذا، أنّ اثنين منهم كانا قد وطئاً منزلي في مومباسا بحجّة عمليات شراء أراضٍ. بالطبع، غُمر بالترحيب والتساؤلات عن موعد وصوله، وعن إسم صاحب النزل، وعن أحواله في إنكلترا، وعن المكان الذي تركني فيه.

ولقد أظهر مسعودي حضور بديهة جيداً، فقد ادّعى أنّه تركني في إنكلترا، وأنّه لن يحظى بفرصة أفضل من الآن للقيام بالحجّ خصوصاً وأنه قد أدّخر بعض النقود. وأضاف أنّه عند وصوله إلى مصر عمل مع بعض الحجاج المصريين وأقام معهم. وعلم أن هذه المجموعة وصلت من ينبُع قبل يومين، وتنزل في دارة مطوّف زنجبار، إنما لا تكُنْ له أيّ استلطاف لشخصه أو لدارته.

بعد الصلاة، سار مسعودي مع الجمع في طريق العودة، إنما كان قد ترك مسبحته في المسجد عن قصد. وعندما سألوا عن منزله وعدهم أن يدلّهم عليه ثم ادّعى أنّه تذكر مسبحته التي أضاعها في المسجد، فانطلق عائداً أدراجَه إلى المسجد، ونجح في أن يختفي في الحشد، وعاد إلى المنزل من طريق آخر.

لم أكن لأعلّق أهمية كبرى على ما حصل، فلم أظن أن أيّهم سيذكّرني إن التقينا مصادفة في المسجد أو في السوق. إنما عليّ أن أكون حريصاً في المستقبل، بالطبع، في ألا أتواجد مع مسعودي في أي مكان، وعليه أن يتجنّب إحضارهم إلى المنزل تحت أي ظرف. كنت أدرك الخطر المتربّص، ومن الجليّ أن السفر معهم في نفس القافلة إلى مكّة غير مُجدٍ. أما عبد الواحد فقد كان أكثر رصانة في التفكير، إذ أعرب عن رأيه أنّ حياتنا أضحت لا تساوي شيئاً، وكان رافضاً لفكرة مرافقة مسعودي لنا منذ البدء.

لحسن حظنا، نودي في المساء أن القافلة إلى يَنْبُع ستتحرك في خلال يومين، وكان هذا خلاصنا من المأزق ولا بد أن نتحَيَّن الفرصة.

أمضينا اليوم التالي نتحَضَّر للرحيل. دَبَّر عبد الواحد جمالاً ثلاثة أحدها للركوب وباقيها لحمل الأمتعة. وابتعنا زادنا المكوّن من الأرز، والتمر والخبز الجاف. واتخذنا العجمي جعفر⁽¹⁾ Jaffa طاهياً لنا وقرّيبه إبراهيم العجمي خادماً. وقبضت مالي نقداً، مئة جنيه إسترليني، فدفعت ما عليّ وسدّدتُ الإيجار وابتعت بندقية وخمسين مشطاً من الذخيرة. انتهت التحضيرات بعد الظهر فأرسلنا إلى حمّالين لينقلوا متاعنا إلى حيث تتجمع القافلة. عندما دخل مَنْ في المقدمة من الحمّالين إلى غرفتنا، أطلق صرخة وهرع مهرولاً في الشارع. استغربنا تصرفه فأسرعنا إلى النافذة ننادي عليه ونسأل عن السبب فقال إنّه لم يرافقنا ليحمل جثة هامدة إلى مئوّاها الأخير. نظرنا إلى بعضنا البعض في تعجّب مطلق، وعندما درسنا الغرفة توضّح الأمر. كانت الخيمة المطوية والموضوعة فوق الصناديق تحاكي منظر جثة مكفّنة. شرحنا الأمر لبقية الحمّالين الذين وصلوا حينذاك فضحكوا لهذه النكتة ولا أشك أنّ الهارب اضطر أن يزرع تحت وطأة الاستهزاء من خوفه لمدة طويلة.

نقلنا أمتعتنا في عربة إلى حيث اجتمعت القافلة. وأمضينا ليلتنا هناك. وقبل الرحيل، تولّى مسعودي مسؤولية ملاحظة الأمتعة في حين أنّي توجهت مع عبد الواحد إلى الحرم الشريف لزيارة وداعية. وهي عبارة عن تكرار للأدعية إنما يضاف فيها أدعية خاصة أكّد لي انها مستجابة. رافقنا حمزة لقضاء هذا المنسك وعند انتهائنا نقدناه خمسة دولارات سرّ بها. وابتعنا بالتمنيات ودعا لنا برحلة آمنة وأعرب عن أمله بإقامتنا عنده في زيارة أخرى. وعند توجّهنا للمخرج لآخر مرّة لم أستطع أن أمنع نفسي من التفكير أنّنا على الأقل سنخرج من المدينة المنورة بسلام. وكما هي العادة في تهنئة النفس، كان شعوري سابقاً لأوانه.

(1) كذا يرد الاسم بالحروف اللاتينية في أصل الكتاب: Jaffa، وأظنه محرّفاً عن جعفر فأثبتّه كذلك.

بالرغم من حلول الظلام كانت بعض الحوانيت لا زالت تعمل. كنّا نسير نحو معسكرنا حين خطر لي أن أبتاع بعض الحلوى، فطلبت من عبد الواحد أن ينتظر قليلاً وتوجهت إلى حانوت ظننت أنه يبيع ما أطلب. وقف أمام الحانوت دليلاً وعندما مررت من أمامهما، قال أحدهما «انظر، إنه هو». من الواضح أنهما كانا يتحدثان عني. كانا يتهامسان طوال وجودي في الحانوت وعندما إستدرت للخروج اقتربا مني وسألني أحدهما «من أين أنت؟ نعرف أنك لست بغداديًا. ولم كل هذا الغموض عن بلدك؟». فأجبتهم «ما دخلكما بهذا الموضوع؟». فكان ردّهما أن قالا: «الكثير، لكل منا حقّ في بلد معيّن، ونريد أن نعرف من أي بلد أنت». فقلت لهما أنني لن اشبع فضولهما في المعرفة وسرت بعيداً. لحقاي وأمسكني أحدهما من ذراعي فأبعدته وأغلظت له القول وشتمته، فردّ باتهام أجدادي بالكفر والعصيان. ومع أن الجزء الأول من اتّهامه كان صحيحاً، فقد بدأت أشعر بالغضب، وبدا لي أنّ استعمال الأسلحة لا بد منه، فشهر كلّ منا سلاحه. عندما رأى من حولنا ما كان معي من سلاح وهو من نوع كولت أسرعوا بالتدخل وكأنهم يعلمون من سابق خبرة الأذى البالغ الذي يمكن أن يسببه سلاح كهذا. حينئذ، وبرعاية إلهية خاصة، وصل صاحب المنزل إيمان مصحوباً بصديقين له وتدخلوا في الوقت المناسب. تجمهر الناس حولنا بسرعة، ولحسن الحظ ضاع السبب الأساسي للجدال في المعمة. في نهاية المطاف، حصلنا على محاضرة في مساوئ الشجار في الشوارع، وذكرنا بحسن حفظنا حيث لم يصدف أن مرّ أيّ من الحرس في تلك اللحظة وإلا فكنا سنواجه متاعب أكثر حينها.

وحيث أنّنا كنّا قد هدأنا قليلاً، فلم يكن أحداً نادماً على التخلّي عن ترضية. كان خصومي على علم تام أنهم مخطئون، وعلى كل حال فإنّ ضربهم أو سجنهم لم يكونا ليعوّضا فكرة أنّي سأواجه نفس المصير، بغض النظر عن فرصتي في إعطائهم بعض الفجوات في أجسادهم من الرصاص المنطلق من مسدس كولت الذي أحمله. ولذا، فقد تراجعنا وكنا لا زلنا نرمر من الغضب.

في طريقنا إلى وسط المدينة، سأل إيمان عن سبب الشجار فأخبرته، وظهرت

مراسم حيرة على وجهه. لا بدّ وانه قد بدأ يشكّ بحقيقة الأمر.

عندما وصلنا إلى حيث تركنا أمتعتنا، ودّعنا إيمان وابنه إبراهيم. كنت قد أعطيت مسعودى ساعة فضية ليقدمها هدية لإبراهيم والذي أبدى سعادة لحصوله عليها. أعتقد أنّهم كانوا يأسفون لمغادرتنا، وقد قال إيمان بكلّ لطف أنه يتمنى أن يكون محظوظاً بمن سينزل بعدنا في منزله تماماً كما كان الحال معنا.

عند عودتنا، أحلّ مسعودي من التزامات الحراسة، فأسرع إلى الحرم الشريف ليقدم احتراماته ويرفع أدعية الوداع. وبعد عودته، تناولنا وجبة بسيطة وأخلدنا للنوم على قدر الاستطاعة.



أصبحت الساحة الآن تضجّ بأمتعة المسافرين، والجمال، والخيم، وكلّ ما تحتاجه قافلة مسافرة. لم يكن هناك متسع لأحد ليتحرّك في الساحة، وكنت مشغول الفكر بكيفية تحرّك القافلة مع هذه الفوضى في الصباح، فلن يكون بالإمكان ترتيب هذا كله قبل موعد الرحيل.

أمضينا ليلة باردة وغير مريحة، ووقعت الخيمة التي كنت أنام فيها حوالي الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. هذه الخيمة هي نوع من الهودج الذي يوضع على ظهر الجمل مؤلفة من صحنين مركّبين في إطار خشبي يعلوهما سقف من القماش الكتّاني أو الخيش الخشن، يجلس المسافران أو يضطجعان فيها متقابلين بتوسّطهما ما يحملان من أمتعة. أما حركة الجمل المتأقل في المشي في المروج الوعرة، فلا تشبه إلا حركة قارب صغير محمّل بالطورييدات في عاصفة نوّ. لا بدّ وأن يكون المسافران بنفس الوزن تقريباً وأن يدخلوا قتب الهودج أو يترجّلا منه في نفس الوقت وإلا فإنه سرعان ما ينقلب. أما إذا تعثّر الجمل في مشيه، أو نخّ أو ركع دون سابق إنذار، فإنّ على المسافرين أن يغادروا الهودج من فوق الأقواس برفقة أمتعتهم الواحد تلو الآخر. أما في حين سفر عسكريّ تركيّ بدين في هذه المركبة مصطحباً مع عائلته المكوّنة من

زوجة وثلاثة أولاد في ملابس الإحرام، فإنّ مراقبة خروجهم تكون ممتعة إلى حدّ ما. وثمة نوع آخر من مستلزمات السفر على الجمال هو مجمع نفايات معلق على عمود مثل الكرسيّ ما بين جملين، وشيء مثل صينية الشاي مربوطة بحبال على ظهر الجمل. يستعمل المجمع من قبل السيّدات المسافرات وقد قيل إنه مريح في الاستعمال، أما الثاني، فيستعمل من قبل الذين لا يتحمّلون تكاليف أقتاب الجمال. ويسافر العديد جلوساً على أمتعتهم، وقد ثبت أن هذه أفضل طريقة للسفر. والقليل يمتلكون جمالاً خاصة للسفر وسروجاً، إنما لا تسير هذه الجمال بالسرعة المرغوبة لسير قافلة.

تُرتّب الأمتعة بطريقة تضمن التوازن على ظهر الجمل، وتثبت الصناديق مع بعضها عن طريق لفّها بخيش خشن ثم ربطها بالحبال، فلا تستطيع الوصول إلى شيء فيها إلا بعد انتهاء الرحلة.

استفقتنا في الفجر على صوت تمرين المدفعية الذي تعودنا عليه وبالكاد لاحظناه. بالطبع وفي البدء، سيطر الارتباك على الجميع، إنما وفي وقت قليل جداً وتحت كل الظروف، انتهى تحميل الجمال وكان بإمكاننا التحرك. تركنا المدينة من بوابتها الشمالية، وتجمعنا خارجاً ننتظر انتظام القافلة للمسير.

* * *

يملك العرب البدو جمال القوافل، فهم يؤجّرونها ويقودون القوافل ليكسبوا قوتهم. ولديهم منظمة فيما بينهم تشرف عليها الحكومة، ويدفعون رسوماً سنوية ثابتة متفق عليها، ولا تتغير إلا تحت ظروف خاصّة. في كل مدينة يتولّى شيوخها مسؤولية عدد معيّن من الجمال والرجال أمام السلطات المحلية، ويصدرون بطاقات للحجاج، يُقطع طرفها ويُحفظ وتكون ضماناً لوصول آمن. وتُقدّم أيّة شكاوى أو احتجاجات على تصرفات مسيئة أو جمال غير صالحة بنفس الطريقة. يثنى على الحكومة التركية في هذه الإجراءات حيث قد قللت الكثير من التعسّفات. إنما في هذه السنة، لم يكن التأثير قوياً بالنظر إلى الفوضى الحاصلة من جرّاء القتال الدائر.

إن القوافل الكبيرة في السنوات الاعتيادية، وخصوصاً التي تتضمن محمل مكة المكرمة، جيدة التنظيم حيث يرافق القوافل فرقة مسلحة بالبنادق، وفرقة من الكشافة في النهار وحراس في الليل. ينظم سوق لبيع وشراء المواد الغذائية والخطب في كل مساء في وسط المخيم وذلك مقابل تعرفه متفق عليها. ويقوم قاضٍ بمحاكمة وعقاب المجرمين بشكل فوري ويفصل في الخلافات، فيجد أي حاج من يستمع له في حال وجود أي شكوى من المسؤولين عن الجمال. وتتوقف القافلة عندما تحين الصلاة ويعلو الأذان. تسير الأمور بنظام كأنه نظام عسكري. إنما هذه القوافل عالية التكلفة للمواطنين متوسطي الدخل، فلا يستعملها إلا الطبقة الغنية من الحجاج، حيث أن التكلفة قد تصل إلى عشرين أو حتى ثلاثين جنيهاً للمسافر الواحد.

اتصفت قافلتنا بمواصفات مختلفة، حيث كان المسافرون تقريباً كلهم من الطبقة الفقيرة لأن قليلاً ما توجه غيرهم إلى المدينة هذه السنة، ومن فعل فقد خرج من المدينة المنورة عن طريق دمشق حتى لا يواجه مصاعب الرحلة إلى ينبع. إن الطريق إلى ينبع من أكثر الطرق مشقة، فهي أكثرها خطراً وأصعبها طريقاً. إنما تتميز برخص الثمن ويسقط فرض الإحرام الواجب على من يغادر المدينة المنورة إلى مكة المكرمة. ولم تكن هناك أية مرافقة أو تواجد لرجال الشرطة حولنا ولم يقم السوق في وسط مخيمنا، فكان على كل مسافر أن يحمل معه زاده وماءه الخاص. وصل تعدادنا إلى خمسة آلاف جمل تحت مسؤولية شيخ من البدو يساعده عشرون من قومه تحت إمرته يركبون جمالاً سريعة وهم مسلحون بالبنادق والسيوف وبنسبة واحد إلى كل ثلاثة جمال. إنما معظم الحجاج يحمل سلاحاً.

عند الساعة الثالثة دخلنا في الجبال ولم نعد نرى المدينة المنورة، وفي خلال ساعة أخرى من الزمن رأينا لآخر مرة قبة ومآذن الحرم الشريف من خلال الفجوات ما بين الهضاب.



الفصل الخامس

من المدينة المنورة إلى ينبع

وصلنا إلى ينبع الساعة العاشرة تقريباً، بعد أن تمّ تفتيشنا من قبل عسكريّ تركيّ وقّع إمضاءه على تذاكر سفرنا. وقد رافقنا والد إبراهيم الذي سلك هذا الطريق عدّة مرات من قبل إلى البوابة وقَدّم لنا نصيحة مهمّة، لقد طلب منا أن نكون جدّ حذرين بالتعامل مع الجمّالين وألا نستسلم لمرأواغاتهم في زيادة أجرة الرّحلة، وألا نتبعد عن القافلة تحت أيّ ظرف، بالإضافة إلى تجنّب التواجد في مؤخّرتها خلال الليل. وأوصانا أن نضع كلّ أمتعتنا داخل الخيمة وأن ننام بعين مفتوحة وسلاح جاهز.

وجدنا أنفسنا تقريباً في مقدّمة القافلة، فلم يكن في البدء أكثر من اثني عشرة جملاً أمامنا. أما خلفنا، فقد امتدّت القافلة أميالاً عدّة. لم يغادر آخرها المدينة إلا بعد ساعة كاملة من مغادرتنا. جلس مسعودي وعبد الواحد في الخيمة على ظهر الجمل أما أنا فقد ركبت أفضل الجمال المعدّة لحمل المتاع، وأكثرها راحة. أما إبراهيم وجعفر فقد تناوبا على ركوب الجمل الآخر. كان جمّالنا، واسمه سعد، بدويّاً قصيراً نحيلاً لوّحته الشمس والهواء. تنمّ ملامحه على سلالة ساميّة لم تختلط بسلاّات إفريقية. أما زيّه فيشبه زيّ رعاة الماعز. وليفوز بنا أغدق علينا وعوداً وآمالاً بما سيقدمه لنا خلال الرّحلة بكلّ تهذيب، إنما سرعان ما اختفى هذا السلوك عندما خرجنا من المدينة.

أجبرت آخر قافلة خرجت من المدينة أن تحوّل سيرها لتجنّب مجموعة من قطعّ الطرق الذين احتشدوا لها لسرقتها. لا بدّ أنّ هذا كان متعباً جدّاً للحجّاج المساكين الذي اضطروا للمسير حوالي ثمانية ساعات بلا توقّف في طريق وعرة. إذ أنّ الطريق

المعتادة صعبة للغاية فما بالك بطريق موعلة في قلب الصحراء؟ لم يكن بوسعنا إلا التمني أن هكذا ضرورة لن تقع لنا، لكن أعلمنا أنها واردة. انعطفنا نحو الغرب على بعد ثلاثة أميال من المدينة المنورة، فقطعنا سكة الحديد وابتدأنا بتسلق الهضاب. مررنا بين خطوط العدو دون أي اعتداء حيث لم تُطلق رصاصة واحدة نحونا، بالرغم من أن المدفعية من الحصون الواقعة على بعد نصف ميل إلى يسارنا كانت تطلق بعنف. عند الساعة الثالثة بدأنا بتسلق الجبال ولم نعد نرى المدينة المنورة، وفي خلال ساعة أخرى من الزمن رأينا لأول مرة قمة ومآذن الحرم الشريف من بين الشقوق في الهضاب.

واصلنا طريقنا ببطء ودأبت الطريق تسوء مع كل خطوة أخذناها. كنا نترجل من وقت إلى آخر لنسير على الأقدام ونرتاح من الحركة الرتيبة للجمال. عندما توقفنا خمس دقائق لصلاة المغرب كنا قد تسلقنا ألف قدم كاملة في الجبال، وازدادت برودة الطقس كلما أوغل الليل فاقشعرت أبداننا من الريح القارسة. ثم وصلنا إلى مكان لم تعد تظهر فيه الطريق بوضوح، فكأنه حوض تجمع للسيول، ولحسن حظنا أسعفنا ضوء القمر وإلا لواجهنا العديد من الحوادث.

أما الحجاج الذين كانوا هادئين طوال النهار فقد حاولوا رفع معنوياتهم بالغناء والصراخ وإطلاق الرصاص. عندما بدأت هذه الضجة اعتقدت أننا في خطر ما، إنما يظهر أنها طريقة معتمدة في تمضية الوقت، وطوال الطريق إلى ينبع، كانت النار تطلق في الهواء ابتداء من مقدمة القافلة إلى آخرها. يقول البعض إن السبب في هذا هو بعث رسالة إلى البدو أن القافلة مسلحة، إنما أعتقد أنا أن إطلاق الرصاص بهذه الطريقة كأنه استدراج لمعركة. أصبح الجميع متعباً وجائعاً حوالي الساعة الحادية عشرة، فهدأوا قليلاً، وما إن انتصف الليل حتى ضاق صدري ولم أكن أرى نهاية لهذا التعب. لقد مر علينا أربع عشرة ساعة متواصلة من السفر ولم نتناول أيّاً من الزاد إلا بضع حبات من التمر ابتلعناها ونحن على ظهر الجمل، وهو أمر ليس بالسهل ومن المؤكد أنه يسبب عسر هضم عنيف.

عقب نصف ساعة بعد منتصف الليل تقدّم الشيخ المسؤول أمام القافلة ليختار مكاناً للتخييم، وكم سررنا لسماع هذا الخبر، وما هي إلا دقائق معدودة حتى توقفت الجمال في المقدّمة وحططنا الرحال في وادٍ فسيح بين الجبال الشاهقة. تكوّن المخيم بأبسط الطرق حين ناخت جمال المقدّمة وكوّنت نواة للمخيم تحلّق حولها الباقون حين وصولهم مؤلفين معسكراً دائريّ الشكل في أقلّ مساحة ممكنة.

كانت الفوضى عارمة وأصبح المشهد مفعماً بالحياة، وتحول سكون المسيرة في الساعة السابقة الذي لم يكسر إلا بأصوات عويل أو صراخ الجمّالين من وقت لآخر إلى صخب حقيقيّ بأصوات الجمال عندما أمرت أن تنوخ وأوامر أصدرت بمختلف اللغات وصراخ متداخل، واعتراضات وضحك. اندلعت نيران المخيم في كلّ مكان كالسحر مضيئة حياة على المشهد. وانهمك الجميع بإعداد الطعام الذي كان ملحقاً جداً. أما أنا فقد كنت متجمداً من البرد ولم أستطع الوقوف بسهولة بادئ ذي بدء. ولحسن حظنا جلبنا معنا كمية كافية من الحطب، وسرعان ما كانت النار تشتعل أمامنا. لقد أثبت مسعودي والخادمان أنّهم ماهرون في العمل ونصب الخيم، بينما حضّر عبد الواحد مستلزمات الشاي، أما الجمال سعد ومن رافقه من المصريين فقد جمعوا جمالهم في دائرة وجلسوا في وسطها ظهراً إلى ظهر يطعمون الجمال تبناً مرصوباً كالحبال، وقد حصل كل جمل على نصيبه من التبن بالتساوي وظهر عليها الاستياء من هذا الأمر.

أدهشني تحمّل الجمّالين البدو للبرد القارس، فلم يقترب أيّ منهم من النار مع أنّ ملابسهم كانت من القطن الرقيق، بل جلسوا داخل دائرة الجمال يتحدثون ويضحكون ولم يبذّ عليهم التعب ولا الجوع ولا العطش ولا البرد بعد مسيرهم أربعة عشرة ساعة متواصلة في برد قارس ودون طعام. لا غرو أنّهم يصلحون لهذا النوع من العمل فمن الأكيد أن لا جندي متحضر يستطيع تحمّل هذه الظروف لفترة طويلة.

بينما كنت أدفع نفسي تعثّر بي رجل مارّ وكاد يرميني في النار فأحترق. استدرت لألقي نظرة عليه فتفاجأت به مغمساً بالدم من رأسه إلى أخمص قدميه من ضربة

سيف في رأسه. استسقاني فتوجهت إلى داخل الخيمة لأحضر له الماء لكن عندما خرجت كان قد اختفى. سمعنا في اليوم التالي أنه لا أقل من ستة رجال قتلوا خلال الليل وجرح الكثير. واستمرّ الحال هكذا إلى أن وصلنا ينبع. كانت هذه الإصابات بين الرجال الذين لم يقدرُوا على دفع تكاليف رحلة على الجمال فاضطروا إلى السفر سيراً على الأقدام مع القافلة. وعندما ابتعدوا عن القافلة بحثاً عن حطب للنار هوجموا من قبل اللصوص الذين يلحقون بأطراف القافلة يغتمون أي فرصة ليغنموا ممن يتعد ويقتلون من يقاوم.

كنا نحتمي الشاي في خيمتنا في خلال ربيع ساعة من وصولنا، أسرّتنا حاضرة وتغلغل الدفء والراحة تغلغلاً إلى أجسادنا. حضّر لنا جعفر الطاهي وجبة من الأرز واللحم وكانت جاهزة في خلال ساعة أخرى، قلّما استمتعتُ بوجبة مثل هذه. ولم نكن لنضيق أي وقت في الإخلاء إلى النوم حيث أنّا عرفنا أنّنا سنعاود المسير عند الفجر، وكانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل عند انتهائنا من الطعام.

وما إن خلدنا إلى النوم حتى سمعنا جلبة الجميع ينسحبون إلى داخل خيمهم معلنة وقت الخلود إلى الراحة. كان الظلام دامساً، والريح الباردة تهبّ بقوة. أما القمر فقد غرب وتلاّأت النجوم كما لم أرها من قبل. بينما كنّا نوضّب أغراضنا من قبل، تشاجرنا مع سعد الجمال حيث أساء القول بغلظة لعبد الواحد لأننا لم نكن سريعين كما كان يرغب. لم يردّ عبد الواحد عليه حينذاك إنما بعد بدء الرحلة احتجّ أمامه بنفس الحدة. استمرّ جداهما ساعات طويلة إلى أن قبل سعد بالمصالحة. تسلقت إلى الهودج على ظهر الجمل مع مسعودي بيما أخذ عبد الواحد دوره على الجمل الآخر وأكملنا نفس الطريق الوعرة صعوداً، وحوالي الساعة العاشرة عمّ الدفء علينا إنما أصبح الطقس حاراً عند الظهيرة. عندما بدأنا في الصباح الباكر كنّا ملتحمين جيّداً ضد البرد لدرجة أن الصعود إلى الخيمة كان عملاً شاقاً، إنما وجدنا تخفيف الملابس إلى مجرد قميص عملاً جيّداً. إحدى سلبيات هذا النوع من السفر أنّه إذا اضطر أحدهم إلى النزول لأيّ سبب كان فمن المستحيل إيقاف الجمال لمعاودة الصعود إلى ظهره، وعلى الراكب أن يصعد والموكب

في حركة. إنّ الصعود إلى تلك الخيمة ليس بالأمر السهل في أي وقت، لكن حين يكون الجمل في حركة، يحتاج الصعود عليه إلى لياقة بدنية عالية وهي ممّا لا أملك. إنّ الطريقة الوحيدة هي إجبار الجمل على إناخة رقبته لتكون مسند قدم للقفز على ظهره. وإن لم يكن الراكب الآخر ذكياً في الحفاظ على موقعه في الهودج فإنّ المصيبة حتمية لا محالة. وعندما يصبح داخل الهودج عليه أن يجثم على ظهر الجمل ولا يميل إلى أيّ جانب تحت أيّ من الظروف، وإلا فإن الهودج المبارك سيهوي بأكمله.



في فترة بعد الظهيرة استعاد سعد مزاجه الجيّد، وأتحفنا بوصف حياة الجمّالين. لقد سار هذه الطريق جيئةً وذهاباً منذ نعومة أظفاره ولم يتسنّ له أن يفعل أيّ شيء آخر. لقد كان أمياً وبدا عليه أنّه لا يعرف حتى أصول دينه. لم أر أياً من هؤلاء البدو يصلّون ولا أعتقد أنّهم يعرفون كيفيتها. ولدى سعد نظرة متميّزة إلى العالم الخارجي، وكم كانت دهشته عظيمة عندما عرف أنّ هناك مدناً أكبر من المدينة المنوّرة حول العالم. لقد كان مهتماً جداً بتوصيف عبد الواحد لمدينتي برلين وباريس، مع أنّي لاحظت أنّه قد آمن منذ بدء الحديث أنّ عبد الواحد كاذب من الدرجة الأولى. يظهر أنّه كان يؤمن أنّ معظم الأوروبيين هم من آكلي لحوم البشر. أما لغته العربية فكانت صحيحة وكلاسيكية تماهي لغة القرآن، وقد حاولنا، عبد الواحد وأنا أن نقلد لفظه للحروف العربية المميّزة بلا جدوى.

استمرّت رحلتنا إلى الساعة التاسعة مساءً، حين حططنا الرحال في مخيم جديد كما الليلة السابقة. أطلقت على القافلة عدّة طلقات نارية خلال المسيرة وعند التخييم إنّما لم تكن مباشرة. كما قتل المزيد من الشاردين عن القافلة وحصلت بعض السرقات داخل المخيم إنّما لم يُعر لها أهمية لأنها حوادث طريق اعتيادية.



في اليوم التالي استمرّت مسيرتنا من الفجر إلى المغرب مجتازين سهلاً واسعاً بين سلسلة جبال تتراوح من الشاهقة إلى شديدة الانحدار. إنّ طبيعة هذه الأرض

موحشة مقفرة فلا ترى أثراً للنبات وتتخذ الصخور أشكالاً غريبة رائعة، ولا عجب في هذا، فالاختلاف في الطقس من الشديد الحرارة إلى الشديد البرودة يسبب شقوقاً في الصخور في جميع الجهات. رأيت إلى جهة الجنوب قمة شاهقة تستدرج الثلوج. لقد اختفت القمة بين الغيوم يحرسها جُرف شاهق بعلو ألفي قدم على الأقل، ويحيط بها أرض واسعة مقابلة لنا وتؤلف حاجزاً عالياً من الداخل.

تعتبر هذه الأرض موضوعاً قابلاً للمستكشفين، إنّ أرض جزيرة العرب لها طبيعة مجهولة المعالم حتى في المعنى الجيولوجي للكلمة، فلا يُعرف الكثير عن ثرواتها الحيوانية والنباتية أو خصائصها الفيزيائية. لقد مرّ بجزئها الشمالي الرحالون الغربيون في أوقات مختلفة وتكوّنت فكرة معقولة عنها من خلال رواياتهم، وبالإمكان رسم خرائط تقريبية لها. إنما يتطلب العلم الحديث أكثر من هذا من المستكشف، حيث عليه أن يحمل كمية معيّنة من الأدوات الضرورية والتي لا يستطيع نقلها من كان مسافراً على عجل وتحت التنكر من مكان إلى آخر. لقد عاش تشارلز داوتي⁽¹⁾ Charles Doughty بين البدو في هذا القسم من جزيرة العرب ما بين 1875 و 1877 وتجوّل في مساحات كبيرة منها معهم. لقد كان قادراً على ذلك لأنه لم يكن يحمل معه ما يمكن سرقة، إنما كانت النتيجة أنّ رحلته المشوقة تلك لم تنتج تدويناً دقيقاً للمعلومات التي يحتاجها العلم الحقيقي. ولا يُقصد بهذه الملاحظة تحقير أحد أهم الإنجازات في تاريخ الرحلات، إنما للإشارة إلى الصعوبات التي تواجه من يودّ الاستكشاف في جزيرة العرب. فإذا ترك أدواته وراءه فقد يرجع بخفيّ حنين، وإن أخذها معه فقد لا

(1) تشارلز مونتيغو داوتي Charles Monagu Doughty شيخ رّحالي الإنكليز وأعمقهم معرفة بحياة البدو وطبائعهم، قام برحلة مطولة دامت سنتين (1875-1877) إلى مدائن صالح (الحِجر) وتيماء وخيبر، وتجوّل ملياً في الحرّة الواقعة إلى جنوب صحراء النفود، ثم زار حائل في أيام أميرها محمد بن رشيد. كان من أوائل من أشاروا إلى حجر تيماء الأثري، ورغم أنه لم ينسخ نصّه فقد كان تقريره عنه هو من جلب الرحالة الفرنسي شارل أوبير Charles Huber (هوبّر بالألمانية) إلى تيماء وحصل على الحجر وشحنه إلى متحف اللوفر في باريس. وقد دوّن داوتي أخبار رحلاته وخبراته بحياة البداوة في كتابه الكبير Arabia Deserta في قرابة 1400 صفحة.

يرجع أبدأ، هذا إن استطاع الشروع في هكذا رحلة.

إن حقيقة أنّ الرّحالة داوتي لم يخرج عن دينه أو جنسيته خلال إقامته في جزيرة العرب قد أثارت زوبعة. وقد يكون هذا الأمر أقلّ ما حققه. لا يكثر البدو لهذه الأمور وهو لم يحاول الدخول إلى المدن المحرّمة عليه. وبالطبع إن كان الغريب مسيحياً فهذا دائماً سبب وجيه لتوجيه ضربة إلى رأسه، وإن لم يفعلوا فهناك دائماً مسيحيّ آخر، ولو لم يفعلوا فلن يؤثر ذلك عليهم. أعتقد أنّ عليّ أن أذكر قرّائي الكرام أنّ الكلام السابق ينطبق على العرب الأصليين في الصحراء العربية، ولا ينطبق على بقية مناطق الشرق الإسلامي.

خلال النهار كان سعد قد أعلمنا أنّه من العادة المتبعة إعطاء بقشيش يومي بمقدار دولار واحد على مدى الرّحلة، وطالب بباقي المبلغ المتبقّي في ذمتنا له. كنت على وشك أن أكيل له الجواب على طلبه الوقح هذا إنما كبج جماحي عبد الواحد اللبق حيث أعلمه إنّنا لا نملك المال نقداً ولن نستطيع أن ندفع له إلا عند وصولنا إلى ينبع حيث نصرف حوائتنا. اعترض سعد بشتى الأشكال، وادّعى أنّه لا يحبّ الطعام الذي قدمناه له، ثمّ هدّد أن ينسحب وجماله ويتركنا في المحطة التالية. لقد أصبح صلفاً إلى درجة أنّي قرّرت إطلاق النار عليه. وعندما علم بنيتي هذه اقترح أن نتنازل بالسيف عندما نخيم. سمع الحجاج من حولنا جدالنا فتمتّوا علينا أن لا نلجأ للعنف وقالوا في حال قتل هذا الرجل فإنّ قبيلته ستتجمّع وتطالب بدّيته وقد يهاجمون القافلة. على كلّ، لم أكن لأقبل بالوضع الراهن وكنت قد عزمت النية على أنّ شجاراً حاصل لا محالة إن استمر الوضع على ما هو عليه. إنما لدهشتي العظيمة، انقلب سعد إلى رجل مهذب والتزم بهذا السلوك إلى أن انتهت الرّحلة. عندما وصلنا إلى المخيم تلك الليلة ساعدني بالترجل وأمور عدة أخرى، ولم أفهم كنه التغيير. كان التفسير بسيطاً للغاية، فقد أعلمه إبراهيم، الذي كان دائماً رائق المزاج ومستعدّاً للكذب، أنّي ابن أخي حاكم ينبع. وقد عملت الكذبة عملها ومما أضفى عليها المزيد من الرونق الطريقة التي يعاملني بها الآخرون.

لم يكن الجميع محظوظاً بالتعامل مع هؤلاء العُتاة كما كنت أنا. فبعدة طرق، نجح الجمالون في إرهابهم وسرقتهم إلى أن جَبُوا ما اتفقوا عليه أضعافاً مضاعفة. ومع ذلك ما كانوا ليرعوا، وما فتئوا يهددون بسحب جمالهم وترك الحجاج في وسط الطريق ما لم يُدفع البقشيش الذي يطالبون به. إنّ هذا التهديد، إنّ نُفَذَ، يعني أنّ المسافرين سيفقدون كل ما يملكون ويسIRON على الأقدام بقية الطريق. والتخلف عن القافلة في مكان المخيم يعني كارثة محققة. لقد شجعت مجموعة المصريين السابقين الذكر على دفع ما يتوجب عليهم منذ بدء الرحلة، إنما أزعجوا باستمرار لدفع البقشيش وضيق عليهم بعدة طرق حتى استسلموا للابتزاز. وحين وصلتهم إشاعات ما حصل معي، قدموا إليّ يشكون أمرهم. فبعثت بطلب الجمالين المشاكسين وحاضرت لهم، مهدداً بنفس الوقت لتقديم تقرير «لعمي». كنت أحبذ أن أصدر أوامر بقطع رؤوسهم في تينك اللحظة، إنما سيكون هذا تفريطاً في التمثيل.

إن كان مسلك الجمالين سيئاً مع الحجاج العرب فإنّ مسلكهم أسوأ مع غير العرب خصوصاً من لا يفقهون العربية، فقد عانى الهنود خصوصاً الأمرين وهم لا يمتلكون الجرأة الكافية للدفاع عن أنفسهم. وبالطبع، يحصل أحياناً أنّهم يكشفون أمر أحد هؤلاء الطغاة، ودائماً ما تجد بدوياً يتصف بغطرسة بالغة. إنما يدرك الحجاج تماماً النتائج المعتادة لهذه المواقف، وعادة ما يستكين أكثرهم صلافة. في إحدى المرات شهدت رشق هنديّ طاعن في السن بالحجارة رفض أن يدفع الدولار المطلوب منه بإصرار إلى أن وقع من على جملته. اضطررنا أن نتدخل عدة مرّات لنجدة الضعيف والعاجز من سوء المعاملة تلك أو حتى أسوأ منها.

إنّ هذه الحوادث بالطبع لا تتوافر في القوافل جيّدة التنظيم، إنما تجدها على هذه الطريق فقط والتي ترتادها الطبقة الفقيرة من الحجاج. وأعتقد أنّها كانت الأسوأ هذه السنة، فعادة ما تكون إجراءات التذاكر والتسجيل المتخذة من قبل الحكومة كافية لضمان السلامة من أي انتهاكات فادحة.

* * *

مررنا وسط قرية للبدو تتضمن أكواخاً من الطين وبعض أشجار البلح، وقد كانت أول مظاهر الاستيطان مذكرنا المدينة المنورة. يتواجد في هذه القرية بئر إنما قيل لنا إنه لا يكفي مستلزمات القافلة. ستحصل الجمال على حاجتها من الماء بعد توقفين اثنين. وكان يومنا الرابع مشابهاً للأيام السابقة، إنما قطعنا فيه منع الأمطار (الخبرة) ونحدر الآن بقوة نحو الساحل. كانت الطريق وعرة في بعض الأماكن وفاجأتنا الجمال برشاقة حركتها فوق الصخور والجلاميد. لم أر في الأفق أية حوادث مع أننا اجتزنا طريقاً لم أكن لأجد الشجاعة على أن أقطعها على ظهر جواد، ووصلنا إلى موقع المخيم باكراً، نصف ساعة قبل المغيب. وكانت الفرصة الأولى لي لأتفقد المخيم في ضوء النهار، حيث كنت مندهشاً للغاية لما علمت أن مجموعتنا هي الوحيدة التي تملك خيمة أو على الأقل صرفت جهداً لجلب إحداها. توجد بئر كبيرة في الموقع بعمق مئة قدم تعلوها رافعة (محالة) تفرغ الماء المسحوبة منها في أوان مقعرة غريبة الشكل مبطنة بصلصال مجفف تحت الشمس تستعملها الجمال. لم أدر كم من الجمال روت عطشها هنا، إنما من الأكيد أنها لم تفعل جميعها.

تقام السوق هنا بنصب سقفيات مؤقتة يبيع فيها بدو قساة المظهر اللحم والسمك المقدد. من المفترض أن يكون هذا المكان خطراً جداً وقد حذرنا من التوغل فيه كثيراً. كانت أرض المخيم في حال قدرة إبان اجتلائها في ضوء النهار. أما ما تبقى، فقد كان الحال مقبولاً، وبما أننا لن نغادر المكان إلا في الساعة العاشرة صباح اليوم التالي، فقد كنا متشوقين لنيل قسط جيد من الراحة.

* * *

كان علينا الآن أن نسير قدماً إلى ينبع دون توقف متذرعين بقلّة الماء. انطلقنا الساعة العاشرة في الصباح ووصلنا الساعة السادسة صباح اليوم التالي. ركبت على الجمل الإضافي إلى أن غربت الشمس، ومن ثم صعدت إلى الهودج. تركنا الهضاب إلى أرض مستوية قفراء واسعة تتصل بالبحر في الساعة الرابعة بعد الظهر. وبانت أضواء السفن الراسية على طول الطريق إلى ينبع بعيد منتصف الليل. وصلنا إلى الأسوار قبيل

الفجر، إنما طبقاً للقوانين المتبعة لا تفتح البوابات إلا بعد شروق الشمس فكان علينا الانتظار خارجها. وكان هناك قافلة إلى المدينة المنورة تنتظر وقت الانطلاق مع أول ضوء النهار.

بما أننا كنا محظوظين بوجودنا في مقدمة القافلة، فقد كان بإمكاننا أن نتراحم للدخول عندما فتحت البوابة. ولو كنا في غير المقدمة لتأخرنا ساعات طويلة للدخول. دخلنا إلى شارع واسع وأوقفنا في ساحة مفتوحة قرب قلب المدينة. لم يكن مؤكداً إن كان بالإمكان الحصول على سفينة في ذلك اليوم، فقرّرنا أن نستأجر غرفة لنيل قسط من الراحة وبعض الطعام الذي كنا بأمرّ الحاجة له. انطلقت وعبد الواحد لغايتنا بينما تخلف الباقون لإنزال الأمتعة من على ظهر الجمال.

تحققنا من بعض الغرف المعروضة للإيجار وكانت قدرة بشكل لا يوصف، أما التي اخترناها فلم تكن أفضل حال بكثير، لكن كنا جد متعبين وجائعين إلى درجة لم يكن إرضائنا صعباً، فقبلنا بدفع رويّة يومية للغرفة التي كانت في الطابق السفلي من منزل يقابل الساحة التي أنزلنا أمتعتنا فيها، وقد أخلت للتو من سكانها السابقين. غطى أرض الغرفة قشر البرتقال ونفايات أخرى، والغبار يكسو المكان. وكمن في إحدى زواياها آثار نار الفحم. تسللت أشعة شمس الصباح إلى داخل الغرفة وأضاءت كآبة المكان بغير ما تجميل. ومما لفت أنظارنا أنّ ذلك المنزل أثر بنا جميعاً بنفس الطريقة حيث كان البناء ملوثاً بوباء ما.. وقد يكون هذا صحيحاً. من الغريب أن لا تجد مكاناً مناسباً للسكنى في هذا البلد، فأيّ امرئ ينشئ فندقاً هنا أو في جدّة لا شك أنّه سيثري.

نناولنا إفطاراً شهياً مكوناً من البيض المسلوق وأقراص الخبز الساخنة لكننا قرّرنا أن لا نأخذ أي قسط من الراحة قبل أن نؤمن سفرنا إلى مكة المكرمة، فتوجّهنا إلى الميناء حيث تتواجد معظم مكاتب الشحن والسفر. كان هناك حوالي ستّ من السفن من مختلف الجنسيات راسية في المرسى مقابل المدينة. اصطفت المكاتب بجانب بعضها البعض ووقف مُنادٍ خارج كل باب يعدّد محاسن سفينته وثمان التذاكر وساعة الرحيل. ولم يكن هناك العديد من الاختيارات، فرسونا على أحدهم وإن يطالب بأعلى

صوته دعماً من المؤمنين لسفينته والتي هي تحت رعاية العلم التركي، ممّا كان كذباً فاضحاً اكتشفناه لاحقاً. كانت السفينة يونانية قديمة الطراز بُعثت للعمل في موسم الحجّ من قبل مجموعة من العجم. لم يكن هناك درجات مختلفة على السفينة وكانت التذاكر بنفس الثمن للجميع، ثمّن يتغيّر من لحظة إلى أخرى بحسب المنافسة في العرض والطلب. عندما يكون هناك فرصة للحصول على عدد كبير من المسافرين، يرتفع السعر، وإن لم يتوفّر المسافرون، ينخفض سعر التذاكر. كان الهدف الوحيد لأصحاب السفينة أن يحصلوا على حمولة كاملة بأيّ طريقة.

كنا متشوّقين للسفر في ذاك اليوم ولذا قبل ابتياع تذاكرنا أخذنا وعداً قاطعاً من الدلال أن السفينة ستبحر قبل المغرب. وفي الحقيقة أصابنا وقت عصيب ودفعنا مالا أكثر من المسافرين الذين قدموا بعدنا، دولارين للشخص الواحد. وقيل لنا إنّ لا يسمح لأحد بالصعود إلى السفينة إلا بعد الظهر، وكان هذا مناسباً لنا. عدنا إلى المنزل ونقدنا سعداً ماله المتبقي والمتفق عليه وأضفنا إليه مبلغاً زهيداً من البقشيش. وبالطبع، هنا في ينبع كان تحت رحمتنا، ولم أعرف أبداً إن اكتشف الخدعة الصغيرة التي مارسناها عليه، لكنني لا أشك أنّه لم يقابل في حياته المزربة فريقاً مربحاً مثلنا. على كل حال، اغتنم سعد الفرصة على أكمل وجه واعترف أنّه راضٍ بالنتيجة ثم غادر. وقبل أن أختم هذا الموضوع لا بدّ لي من ذكر أنّ الطريق التي سلكنّاها لم تكن الوحيدة إلى ينبع، فقد كان هناك اثنتان أخريان على الأقل تستعملان في أوقات مختلفة من السنة، إنما لم أكن قادراً على الحصول على معلومات عن أيّ منهما.

حملنا أمتعتنا إلى المرفأ وتركنا مسعودي هناك لحراستها، وتوجّهنا إلى السوق لتزوّد للرحلة. إنّ ينبع من أكثر المدن التي زرتها إهمالاً، فييوتهّا منحرفة، وتقف مئذنة الجامع الوحيد فيها على زاوية تحاكي برج پيزا المائل. وهي أيضاً من أكثر الأماكن التي زرتها تشعثاً، فتتشرّ بأسواقها الهزيلة شتّى أنواع البضائع الرديئة والروائح المنبعثة منها متنوعة ومزعجة. لكن لا يخلو الأمر من بعض الحوانيت الجيدة التي تسدّ الرموق. يحمي المدينة سور يحيط بها من جهة مزارعها ومن الضروري وجود الفرقة العسكرية

الكبيرة هنا. أما الماء، فهو المشكلة الكبرى، إذ أنه نادر ومالح جداً، ويقال إنه ضار جداً. وقد أنشئت محطة لتكرير المياه مؤخراً ممّا يحسّن الوضع قليلاً.

عندما انتهينا من التسوّق، بحثنا عن مقهى لتناول بعض القهوة وندخن. وأفضل ما وقعنا عليه كان مقهى مثل باقي المدينة، إنما لم نكن لندقق في الأمر، فجلسنا إلى طاولة صغيرة على الرصيف، بعد أن استأذنا من شيخ بدوي كان يجلس هناك، وتلك عادات اللياقة في البلد. طلبنا النرجيلة وبعض القهوة، وفي تلك اللحظة أحضرت نرجيلة الشيخ البدوي فأخذ منها نفساً وبدت على وجهه علامات الامتعاض، وتوجّه إلى النادل قائلاً: «أيّها الجبان، إنّ هذا الماء ليس جديداً». فتعجّب النادل وقال: «ليس جديداً؟ لقد أبدل الماء من يومين خلياً». كان هذا كثيراً على الشيخ فتناول النرجيلة ورمّاها على النادل، لكن لم يصبه فخرجت النرجيلة من الشباك المفتوح وتحطمت أشلاء في الداخل. أما أنا فأسرعت بالغاء طلبي وقررت الاكتفاء بالسجائر.

وبالرغم من كل ما حصل، قرّرنا أن ننظر إلى الحياة بعين المرح وهذا ما لم نفعله سابقاً. كان الطقس دافئاً ومنظر أشعة الشمس تتلألأ فوق المياه الزرقاء كان مشهداً أكثر بهجة من وهج الصحراء وعجاجها. كما أنّ من الممتع ارتداء ملابس نظيفة والشعور بالراحة بعد إرهاق السفر على ظهر الجمال. ولم نبال بالمشقّات الصغيرة بالمقارنة مع المعاناة السابقة. بالإضافة إلى أنّ النصف الأوّل من المغامرة قد مرّ بسلام وأقمنا الدليل على أنّ رحلة من هذا النوع ممكنة.

جاء تركيّان (أو قد يكونا أناضوليّين) ضخمين وجلسا إلى طاولتنا. كان مظهرهما مضحكاً حيث جمعا بين مظهر قطاع الطرق المسرحي والملاحح اللطيفة لطيب عائلي. كانا يرتديان بنطالين فضفاضين معقودين ما تحت خصريهما وكأنها سيقعان في أيّ لحظة. ويحمل كل واحد في حزامه ما لا يقل عن ثلاثة مسدسات متوسطة الحجم، وبعض السيوف القصيرة المعقوفة وبعض الخناجر المتنوعة. لقد كانا ماردين، فكلاهما أكثر من ستّة أقدام في الطول (أكثر من 180 سم)، بدينين وبلحيتين رماديتي اللون وشاربين. تظاهروا أنّنا مذعوران من مظهرهما المخيف وناشدناهما ألا

يتقاتلا. لم يفهما مزاحنا بادئ ذي بدء، لكن عندما وُضِحَ لهما الأمر وكان ذلك بعد برهة طويلة، انفجرا بالضحك الشديد وطفقا يرتان على أكتافنا بقوة، ثم دعوانا إلى مشاركتهما في بعض الليموناضة.

تناولنا طعام الغداء سمكاً مقلياً، وكان شهياً جداً كما هي الحال مع سمك البحر الأحمر، ولم يشب المذاق شائبة. تناولنا إياه بالأصابع وقوفاً وراء العربة اليدوية التي كان يباع عليها، إنما كان الذباب الحائم مزعجاً حقاً، فلقد كان يعدّ بالملايين. توجهنا إلى مكاتب السفر أكثر من مرة نسأل إن كان باستطاعتنا الصعود إلى متن السفينة لكن الجواب كان دائماً سلبياً لسبب أو لآخر. بدأنا نشكّ أنّهم لم يكن لديهم النية في الإبحار ذلك النهار وكان الشكّ في محله. خلال فترة بعد الظهر انطلقت أكثر من سفينة إلى عرض البحر لكن حوالي الساعة الرابعة بعد الظهر أعلن المسؤول عن سفينتنا انهم لم يحصلوا على الإذن للإبحار إلا في اليوم التالي ولذا فلن نستطيع الصعود إلى متن السفينة إلا في الغداة. طبعاً لم يصدّق أحد هذه الذريعة فقد كان واضحاً أنّهم يأملون بالمزيد من الركّاب وأنّهم اقترحوا ببساطة أن ينتظروا الغداة لتمتلي السفينة.

أخبرنا ساعتئذ أنّ موعد رحيلنا قد يتأجّل ثلاثة أو أربعة أيام، فأسقط بيدنا واضطررنا أن نستأجر غرفة أخرى وننتظر فلم يكن بالإمكان أن نخيّم في المرفأ. أسأنا إلى أصحاب المكتب إلى أن تعبنا ثم استأجرنا غرفة في منزل قريب من المكاتب وكانت أنظف وأفضل من الغرفة الأولى إنما أغلى ثمناً بدولار واحد. لم يؤثر هذا سلباً عليّ وكان لدينا متسع من الوقت فلم أبال إن قضينا يوماً أو يومين في ينبع فنحن بحاجة إلى بعض الراحة. ولم يكن الجميع محظوظاً مثلنا حيث لم يكن باستطاعتهم دفع المزيد من الدولارات لتأمين مسكن مدفوع مسبقاً، فتجمّع جمهور غاضب أمام المكتب يطالب بتحرك السفينة. كنت أغير ملابسي في غرفتنا الجديدة بقصد الاستحمام عندما صدرت أصوات شغب من الخارج جذبتني ومسعودي إلى النافذة. شاهدنا المكتب محاصراً من قبل حشد المسافرين الغاضبين يصرخون بأعلى أصواتهم بينما الفُرس أصحاب المكتب المساكين يحاولون أن يسمعوا صوتهم. تفاجأنا برؤية عبد الواحد

في مقدّمة المشاغبين يصرخ بصوت أعلى من غيره.

هرعنا إلى الخارج وشققنا جمهرة الناس لنصل إلى عبد الواحد خوفاً من أي يقع في أية مشاكل، فوجدناه كثير الانفعال وينظر إليه الآخرون على أنّه قائدهم. وبناء على أمر منه، قبضنا على الفُرس ما عدا واحداً يرتدي عمامة خضراء اللون على أساس أنه «شريف» متحدّر من سلالة النبي، ولذا فلا نستطيع أن نمارس عليه العنف، واقتدناهم أجمعين إلى منزل الحاكم الذي طلبنا مساعدته. إنّما، لم يكن الحاكم في منزله بشكل ملفت للنظر. فأحببنا وعدنا إلى المرفأ. صعد عبد الواحد على كومة من أكياس السكر وتوجّه مخاطباً الجمهور، وحصل على استجابة محمومة منه وقوطع عدة مرات بتصفيق حادّ، وذلك عندما استنكر عملهم هذا على أنّه ليس من الإسلام في شيء. وفي مجرى خطابه قال: «كان من الأفضل لنا أن نتعامل مع نصارى على أن نتعامل مع مسلمين يخدعون إخوتهم بهذه الطريقة». تذرّ الجمهور واحتجّ مشمئزاً على هذا التشبيه، حيث شعرنا أنّه قد تخطّى حدّه فيه. وفي النهاية، تراجع الفُرس عن قرارهم وسُمح لنا بالصعود إلى متن السفينة على الفور، واستخلصنا منهم وعداً صادقاً بالإبحار عند المغيب.

مرة أخرى كان علينا أن نوضّب أمتعتنا ونرحل على عجل. حصلنا على قارب بمشقة، وبعد مرورنا بتفتيش رمزي في مركز الحجر، انطلقنا إلى السفينة الرابضة على بُعد حوالي نصف ميل من الشاطئ. سبقنا إلى متن السفينة حوالي مئة من الحجاج وتجمّع الكثيرون غيرهم على السِّلَم حيث كان يقف أعلاه رئيس نقابة العجم يشرف على سير العملية. وما أن وقع نظره علينا حتى بدأ بإطلاق ألفاظ نابية بالفارسية فردّ عليها عبد الواحد. والسبب في هذا أنّنا ترعّمنا الشغب الذي قام وكنا السبب في هذه المشاكل، والخسارة التي سيتكبّدونها عندما يبحرون بسفينة نصف ممتلئة بالركاب، وكانوا يرغبون في إعادة مالنا ولا يرغبون في أن نصعد إلى سفينتهم. لم نلق بالاً إلى ما قيل، وأوقفنا القارب بمحاذاة السفينة وشرعنا نصعد سلّم السفينة بالقوّة. كان إبراهيم في مقدّمتنا، وعندما وصل إلى الفارسي نطحه في معدته وأخلى طريقه، تبعه جعفر ثم

جاء دوري حاملاً الأمتعة المحمولة باليد، والتي استولى عليها الفارسي محاولاً رميها في الماء. أما عبد الواحد، فقد أصبح الآن بطلاً شعبياً ونحن نستظلّ بظله. يدرك الجميع أنّهم يدينون لعبد الواحد في إخضاع هؤلاء العجم، فهرعت مجموعة من الحجاج المتحمسين لنجدتنا. أمسك بعض المغاربة العرب برئيس النقابة التعس وأقسموا له إن رُمي أيّ شيء من أمتعتنا في الماء فإن مجموعة العجم على السفينة ستلحق بها. وتسابقت أيد كثيرة لمساعدتنا على رفع باقي أمتعتنا الثقيلة إلى متن السفينة واقتدنا منصورين إلى أفضل مكان على السفينة حيث مُدّت حصيرتنا ووضبت أغراضنا. إنّ رذيلة الجحود ليست من شيم أهل الشرق.



إبان ذلك الوقت، تحدّث إبراهيم مع الفُرس حديثاً وضع نهاية للخلاف بيننا. يبدو أنّني الآن غدت من أقرباء حاكم جدّة وأنني مصمّم على نقل هذه الوقائع له حين وصولي، خصوصاً أنّني صُدمت بعملهم غير الأخلاقي حتى الآن. تسبّب هذا الخبر بذعر كبير بينهم، ومذالك الحين لم يفتهم تقديم أيّ مساعدة لنا أملاً في تصحيح ما بدر منهم. وفي ظلّ هذه الظروف والعرفان بالجميل من قبل المسافرين، تمتّعنا برحلة مريحة لم تكن في الحسبان. لم أستطع كبح شعوري بالإطراء من جرّاء تأثير تصديق قرابتي بأشخاص معروفين.



كانت السفينة معدّة لأن تكون سفينة شحن، إنما جُهّزت خصيصاً لسفر الحجاج. لقد أضيف إلى متن السفينة طبقتان، في مقدّمتها وفي المؤخّرة يُنفذ إليهما عن طريق سلالم تؤدي إلى الأبواب الأرضية. وبما أنّ السفينة كانت خفيفة الوزن فقد كانت تطفو على وجه الماء بخفة، ولا أشكّ أنها كانت ستقلب بسهولة في أيّ من أنواع البحور. ولحسن الحظ، كان البحر هادئاً مثل بحيرة مليئة بالبط. وسرعان ما امتلأت السفينة، وحين المغيب كان على متنها ما يقارب الألف وخمسمئة مسافر وما زال الركّاب يتوافدون عليها. لقد شغل الركّاب كلّ أنحاء السفينة. وتوجّهت إلى أصحاب

السفينة بالقول إنهم إن كانوا يرون أنّ هذا الحشد من الرّكّاب هو سفينة نصف ممثلة، فمن الأكيد أنّي لن أحبّد الإبحار على متنها وهي ممثلة بالكامل. فبرّروا إحجامهم عن الإبحار حسب وعدهم بقولهم إنهم لا يستطيعون ترك ركبّاب يودّون الإبحار.

كنا على الطبقة العليا من السفينة وراء مقصورة القيادة، وكان لدينا متّسع من المكان خمس مرات أكثر ممّا نستحق. حضّر لنا جعفر الطاهي عشاءً ممتازاً مستعملاً مجمرة الفحم، وأخيراً حصلنا على ليلة مريحة للغاية. لقد استغرقتُ في النوم قبل أن أنهى نرجيلتي ولم أشعر بشيء إلى الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي.

* * *

الفصل السادس

جدة

عندما استفتتُ كُنَّا قد قطعنا شوطاً كبيراً. واندلعت مشادة كبيرة حول المسألة التالية: مجموعة من المغاربة العرب مرّوا على التفتيش في الحجر وكانوا في منتصف الطريق إلى متن السفينة عندما توفي أحدهم. لم يقبل ربّان السفينة استقبالهم ولم تقبل شرطة الميناء أن يرجعوا أدراجهم. فتوجّهوا إلى السفينة لكنّ العجم رفضوا رفضاً قاطعاً أن يستقبلوا الجثمان. ولم يكونوا قادرين على رمي الجثمان إلى البحر حيث لا بدّ من تغسيله وتكفينه والصلاة عليه. كان الخلاف حول حقّهم في وضع الجثمان على متن السفينة. طُلب من محام مصري أن يفتي في الأمر من وجهة نظر القانون، فبتّ رأيه على أحقيته في الصعود إلى السفينة، حياً أو ميتاً طالما أنّه قد اشترى تذكرته، خصوصاً أنّ التذكرة لا تنصّ على حياة صاحبها بعد البيع. تتكوّن التذاكر من قصيدة ورق كتب عليها اسم السفينة ورقم، ولا شيء غير هذا. أما رأيي الخاص فكانت أميل إلى الاعتقاد أنّه طالما توفي بعد مغادرته الشاطئ، فإنه يُعدّ من ركّاب السفينة ويجب إعتبار موته قد حصل على متن السفينة. أما المغاربة فقد ملّوا من الجدل، ولذا انقضّوا على السفينة وأمنوا موطنهم قدم لهم ورفعوا جثمان فقيدهم دون أيّ تأخير. أما وجوههم السّمراء الغاضبة وسكاكينهم الطويلة فقد منعت أيّاً كان من التدخّل. وصدرت الإشاعات أنّ المتوفّى كان مصاباً بداء الكوليرا والتي لحسن الحظ لم تكن صحيحة.



غادرنا يثبّع في الساعة الثامنة والنصف وسرعان ما غابت عن الأنظار. آخر مشهد

رأيناه كان قافلة شرعت برحلتها إلى المدينة، وامتدّ طابور الجمال أميالاً عدّة فوق الشاطئ الرملي. وسرعان ما اندلعت مشادة أخرى حول مسألة المياه. من المسلمّ به أنّ كمية معقولة من مياه الشفة متوفّرة مجاناً على هذه السفن، إنّما أراد أصحاب السفينة الفُرس بيعها لنا. وفي النهاية تجمّع الركّاب جميعهم على جسر القيادة وهذدوا باللقاء جميع أعضاء النقابة في البحر إن لم تؤمّن المياه مجاناً لهم. تدخّل حينئذ ربّان السفينة، وهو مصري بدين جداً، واقترح أن يوزّع نصيب من المياه مجاناً وعلى الفُرس أن يوافقوا على هذا. أما نحن فلم نتدخّل في الأمر حيث كنّا مسرورين بأمورنا كما هي.

كان هناك أوروبي غربي وحيد على السفينة، اعتقد أنه طبيب ولا بدّ أن يكون إنكليزياً من هيئته. قضى وقته في مقصورة القيادة مع القبطان ولذا فإنّي رأيته من مسافة. عندما وصلنا جدّة جال في السفينة يلقي نظرة فاحصة، فتأكدت أنّه موفد طبّي من مركز الحجر.

أطلقت صفارات السفينة معلنة نقطة الإحرام حوالي الساعة الرابعة والنصف مساءً. إنّ ملابس الإحرام إجبارية لكل الحجاج الذين يقتربون من مكّة من هذه النقطة، وعليهم أن يرتدوها إلى أن يؤدّوا الطواف ويقبلوا الحجر الأسود. ولا بد من ارتدائها خلال أيّام الحجّ الثلاثة (أيّام التشريق)، وبعضهم يرتدونها طوال مدة إقامتهم في مكّة المكرّمة ككفّارة باختيارهم الخاص، وبعضهم الآخر لا يستغني عنها في زيارته لضريح الرسول الكريم في المدينة المنوّرة، مع أنّي اعتقد أنّها مكروهة عند الشافعية. إنّ الحكمة من وراء ملابس الإحرام هي النقاء والقنوت، حيث أنّ كلّ من يدخل بيت الله الحرام يكون في زيّ واحد، بغضّ النظر عن مستواه الاجتماعي أو الاقتصادي ويكون في زيّ بسيط يتلازم مع الحشمة ونقاء اللون الأبيض. تتكوّن ملابس الإحرام للرجال من ثوبين، أحدها حول الخصر والآخر للأكتاف، ولا يُسمح بقطعة أخرى، حتى الحزام غير مسموح به، ويترك الرأس مكشوفاً، ولا يُسمح باستعمال المظلات مع أنّه يسمح بها للمقعدين والطاعنين في السن إن شاؤوا، ويستعملها البعض الآخر بغير عذر. إنّ

القطعة السفلية من ثوب الإحرام يجب أن لا تصل أدنى بكثير من الركبتين. وأكثر أشكال زيّ الإحرام المستعملة من قبل الأثرياء تتكوّن من منشفتين تركيتي الصنع، تُصنعان بالحجم المطلوب، وقد جهّزنا أنفسنا بهذا النوع من ملابس الإحرام قبل مغادرتنا دمشق. بعض الحجاج يختارون ارتداء ما يشبه التّورة وكسوة من القطن بدلاً من المنشفتين. أما النساء فيرتدين ثوباً كثنائياً طويلاً يغطيهنّ تماماً من رأسهنّ إلى أخمص الأقدام، بالإضافة إلى برقع من القشّ. ومن الوقار حلق الرأس والجسد قبل ارتداء ملابس الإحرام باستثناء الصدر وطبعاً اللحية والشارب. ومن يرتدي هذه الملابس يسمّى مُحَرِّماً وتحرم عليه بعض الأمور التي كانت مسموحة قبلاً.

يشكّل لبس الإحرام مشقة في هذا الطقس، خصوصاً للحجاج الآتين من المناطق الشمالية والذين لم يتعودوا على أشعة الشمس الحارقة في جزيرة العرب. من المدهش حقّاً أنّ نصفهم لا يموت من تعرّضه لضربة شمس. بالنسبة لي شخصياً، واجهتُ مشقة من البرد خلال الليل أكثر من الشمس الحارقة في النهار، وخلا بعض القروح في رقبتي وظهري، فلم أفا من شيء آخر. إحدى الاعتراضات على الطريق من المدينة المنوّرة إلى مكّة المكرّمة أنّ على المسافر أن يرتدي ملابس الإحرام طوال الطريق، وحتى أغطية خيم الجمال تنزع من مكانها حتى لا توفّر حماية غير مرغوب بها.

* * *

بعد أن قمنا بتحضيرات الإحرام وقرأنا بعض الأدعية من كتيّبات صغيرة وُزّعت علينا، اجتمعنا ثانية وكانت لنا الحرية لنضحك على المهزلة التي مرّ ذكرها سابقاً. كنت شاكراً جداً أنّي لم أكتسب جماعة تحيط بي دائماً. بدا رهط من الأتراك الأوروبيّين كبير السن كانوا قريباً منا بمظهر عجيب يوحي بأنهم أعضاء ناد أثيني أُخلوا فجأة من حَمّام تركي. ولم يمنعني أدبي من السيطرة على ضحكي كلما أنظر تجاههم، ممّا جعلهم يهزّون برؤوسهم ويتأسّفون على اضمحلال الكياسة عند الشباب في يومنا الحاضر.

* * *

رسونا في جدّة الساعة الحادية عشرة صباح اليوم التالي. ولم يكن ممكناً الاقتراب أكثر من ميل واحد من الشاطئ، فاضطررنا إلى أن نخلي السفينة إلى قوارب صغيرة تجمّعت بانتظارنا. كان هناك أكثر من عشر سفن في المرسى تعرّفنا إلى بعضها من ينبع. وقرّ الرأي على أن نتظر إخلاء معظم الحجاج قبل نزولنا حتى نتجنّب الزحام وإمكانية ضياع أمتعتنا بين أمتعتهم. وفي النهاية استطعنا أن نحصل على قارب دون مشاركة أحد. عند وصولنا إلى اليابسة، سُئلنا من قبل موظف الحكومة إن كنّا عرباً أم أتراكاً وسجّل إجابتنا. وحيث أنّنا وصلنا من أراض تركية لم تطلب جوازات سفرنا للتدقيق ولم تفتّش أمتعتنا. وجدنا صفّاً من المطوّفين ينتظرون على رصيف الميناء ويسألون السؤال نفسه، وعندما علموا أنّنا عرب فقدوا اهتمامهم بنا، فلو كنّا أتراكاً أو عجماءً لكانوا لاحقونا بعروضهم لاستخدامهم. لم يعد من الممكن أن تعرّف على جنسية الحاج من هندامه حيث أنّ الجميع مكتسون بنفس الطريقة. قيل لي إنّ هناك من يقف بالمرصاد لمراقبة أيّ أوروبي يحاول الدخول متخفياً، إن كان هذا صحيحاً فإنه قد فشل في مهمته هذه المرة، وما للدهشة من مكان هنا، فكما أشرت سابقاً ليس هناك من شيء يمنع الكثير من الإنكليز أن يُظنّوا أنّهم عرب، محرّمين كانوا أو غير محرّمين.



حيث أنّنا قرّرنا أن نمضي بضعة أيّام في هذه المدينة، فقد جدّدنا البحث عن مكان جيّد للإقامة، وفي النهاية حصلنا على ثلاث غرف ومطبخ بثمن معقول في منزل أحد الأعيان من بلاد فارس، وقد كان رجلاً لطيفاً كبيراً في السنّ وجدّ محترم. ولما كان النهار قد انتصف أمضّ بنا الجوع فلم نقدر أن نتظر طهي جعفر الذي يأخذ وقتاً طويلاً في التحضير، فتوجهنا إلى مطعم لتناول طعام الغداء. وأفضل ما وجدنا من المطاعم كان يتكوّن من غرفة واحدة مُدّت بها مائدة طويلة في وسطها. وقُدّم نوع واحد من الطعام وهو قطع من اللحم مشكّوة على سيخ طويل تشوي فوق الجمر على قارعة الطريق حتى يتسنّى للزبائن أن يعاينوا ما سيأكلون. وقف الطاهي وهو صاحب المطعم مسلّحاً بشوكة الشوي على العتبة يمنع الزبائن من وضع اللحم تحت

المزيد من الاختبار. وعندما يختار الزبون ما يريد، تنزع الأسياخ من صاحباتها وتعطى له مع صحن وقطعة من الخبز. ولم يكن الثمن باهظاً، بل كان بنسبن اثنين فقط. إنَّ صاحب المطعم مسيحي، لكن علقت يافطة فوق محله تعلن جواز تناول طعامه من قبل المسلمين لأنه غير مدنّس.

يُسمح لغير المسلمين أن يقطنوا في بنّع وجدة بشرط ألا يخرجوا خارج الأسوار. وثمة بعض المسيحيين وتجار يهود في جدة، وتمثّل معظم السلطات الأوروبية بقنصليات لها. لكنهم لا ينجون من الإساءة حتّى هنا. وتتجمّع القنصليات في أبعد حيّ شمالي المدينة.



من المفترض أن تكون جدة إحدى أقدم المدن في العالم. إنها مكان متنوّع الألوان، خصوصاً إذا رؤيت من البحر، وكما يبنّع فهي في حالة يرثى لها من الإهمال. تبدو المنازل النحيلة العالية كأنها تترنّج على قواعدها، وجميع المآذن تميل ياردات عدّة عن خطّها العامودي. إنَّ أيّ زلزال خفيف قد يحوّل هاتين المدينتين إلى كومة ركام. أما الشوارع والأسواق فمع أنّها شعّاء فهي لا تقارن بما شاهدناه في بنّع، فتتواجد عدّة حوانيت جيّدة وبضعة مقاهٍ متوسطة الجودة. ومع أنّ الطقس حار، فلا يمكن إعتباره غير صحّي، وهو أفضل من طقس مكّة المكرّمة الذي يتحول إلى تنور مشتعل عندما يسكن الهواء. يساعد نسيم البحر على تحريك الهواء باستمرار، ويساعد في انقشاع التلوّث الصادر من الحالة غير الصحية للشوارع والمنازل. أما المياه، فهي كما في بنّع، شحيحة ومالحة. ولسوء الحظ فإن جميع أنواع الأوبئة شائعة.

يبرز المظهر الشرقي للمكان في هذا الموسم بملابس الإحرام التي يرتديها الجميع تقريباً. ومن الغريب أن ترى كلّ من حولك في الشوارع والمقاهي مؤترين بمناشف حَمّام. لم أستطع أن أتغاضى عن شعوري بالعري في بادئ الأمر، إنما خبا هذا الشعور لاحقاً.

وجدنا أنفسنا في مأزق بسبب عدم تأكّدنا من وصول أحد الشيوخ من مومباسا إلى الحجّ. إنّ هذا الرجل مطلع على نيتي دخول مكّة المكرّمة متنكّراً، وكنت أريد أن أكون في مجموعته. إنما ولأسباب متعدّدة غيّرت خططي، وعندما استقرّ رأيي أن أذهب منفرداً، رأيت من الأفضل أن أبعد انتباهه عن الفكرة ببعث رسالة له أخبره فيها أنّي تخليت عن الأمر. وبالحقيقة، فهو لم يصدّق للحظة أنّي كنت جاداً في عزمي. أما إذا حضر هو إلى الحجّ، فإنّي أرى فرص تجنّب لقائه في مكّة قليلة جداً في غضون شهر بقائنا فيها، ولذا ظننت أنّه من الأفضل ملاقاته هنا في جدّة وكشف الأمور قبل البدء بالحجّ. نويت أن أذكره بوعده الأوّل في عدم التدخل، حتى لو لم يكن مستعدّاً للمساعدة. لم أكن واثقاً تماماً من حسن نيّته، وتوجّست خيفة من خطر حقيقيّ قد يواجهنا كما سابقاته من أخطار.

إنّ أول خطوة كانت التأكّد من أنّه قد حطّ الرحال في المدينة، ولهذا الغرض أرسلت مسعودي ليستطلع المنزل المعتاد لحجّاج زنجبار. فعاد وأعلمني أنّ الشيخ لم يصل، لكنه قد بعث برسالة سابقاً وقد يصل في أيّ وقت. قرّرت أن أنتظر بضعة أيّام قبل القيام بخطوة لقائه إن وصل، فلم أكن في عجلة من أمري، لكنّي من المؤكّد أنّي أفضل لقائه هنا في جدّة حيث يكون الفرار ممكناً بدلاً من مكّة المكرّمة حيث تتوقّف حياتي على التصرف الذي تملّيه عليه عدّة اعتبارات أهمّها سلامته الشخصية.

ولهذا، بقينا في جدّة أربعة أيّام كاملة، دون اعتبار يومي الوصول والمغادرة. اغتئمنا الفرصة في يومنا الثاني لزيارة ضريح «حواء» نفسها، التي يقال إنّها مدفونة هنا، حيث يقع ضريحها على مسافة قريبة من السور، وكما كان متوقّعا، كان في هيئة متواضعة. لكنّي أعلمت أنّ البناء حديث نسبياً، وأنّ «آدم» ليس من أقامه، أو هكذا ظنّ محدّثي أنّي فهمت. كانت «سيدتنا حواء» ربع ميل طويلاً، ولذا فإن طوافاً حول ضريحها وهي ممدّدة عمل مرهق. شُيّدت قبتان صغيرتان تحدّدان موقع رأسها وموقع قدميها بينما تحدّد قبة ثالثة منطقة أعلى البطن. كان علينا أن نتلو سورة الفاتحة عند كل قبة من القباب الثلاث، مع أنّ الكثير من الناس يرفضون أداء دعاء وقور بهذه الطريقة. أما حارسات

الضريح فإنهنّ يعانين من تفكّكات الزائرين، والتي لا تكون دوماً مهذّبة. يبدو أنّ لا أحد يأخذ الضريح على محمل الجدّ.

وجدنا أنّ سمعتنا كأبطال نجحوا في فتح الطريق البحريّ لنحو ألفي حاجّ من ينبع قد سبقتنا، فكان يُشار إلينا بالبنان في الشوارع وأينما توجهنا. سعد عبد الواحد إلى أقصى حدّ، فلم يكن شخصاً يحبّ التواضع، ومع أنّي وجدت شهرتنا المفاجئة محرّجة بعض الشيء، فقد علمت أنّنا قد نحتاجها قبل أن نرى جدّة مرّة ثانية.

في اليوم الرابع، وبعد وصول عدّة سفن تحمل حجّاجاً من الجنوب إنما دون أنباء من مومباسا، عقدت العزم على التوجّه إلى مكّة المكرمة. بدأت أشعر بالضيق من وجودي هنا، عدا عن تساؤل الخادمين عن تأخير السفر دون أسباب واضحة.

كنت مصمّماً ألا أترك ورائي خيوطاً تفضحني، لذا أرسلت كتاباً إلى الشيخ أشرح فيه ما حصل وأطالبه بموقف حيادي تامّ. أودعت الكتاب لصاحب المنزل الذي قد يمرّ به الشيخ مع تعليمات بإعطائه الكتاب إن أتى أو يسلم لي بعد رجوعي. وعقب ذلك اخترنا أحد المطوّفين، وأخبرناه قصتنا التي انطلت على الجميع، وقرّرنا استخدامه. وتبيّن أنّ هذا المطوّف هو نائب محليّ لأحد دلاليّ مكّة الرئيسيّين باسم «محمّد مفتاح» والذي وعد أن يرسل له كتاب توصية بنا. لقد أثقل ضميري بهذا حيث أنّي لم أنو التعامل مع الرجلين أصلاً. إنما لمغامرات من هذا النوع لا يستطيع المرء إلا أن يكون أكثر دقّة. وقمنا بالاتفاق مع شيخ بدوي لاستئجار جماله وإحضارها إلى منزلنا في فجر اليوم التالي.

بعد تخطيط تحرّكنا القادم، أعتقد أنّ جميعنا شعر براحة حان أو أنها. فالمرهق في المواقف الخطرة هو الانتظار، فلما تكون مستعداً للهجوم لا وقت لإعادة النظر، وحتمية التصرف تستبعد مخاوف مبهمة للمستقبل. وبما أنّ اليوم جمعة، فقد حضرنا

الخطبة قبل صلاة الظهر في الجامع الرئيس، وهو بناء مهلهل لا شأن خاصاً له، ومن ثم انتقلنا إلى مقهى شاعرين أننا اتخذنا جميع التدابير الوقائية التي تفرضها الحكمة أو التقوى. فقد أقسم عبد الواحد أن يتصدق لفقراء جدّة بثلاثة دولارات إن رجع سالمًا. أخبرناه أنه يدعو الله تعالى أن يحقق له ما يرغب بثمان بخس، ومن الأفضل له أن يجعل هذا القسم نذرًا. إنما ما أثار سخطنا بعد رجوعنا أنه رفض أن يفي بقسمه.

* * *

استيقظنا باكراً في صباح اليوم التالي، وكنا جاهزين قبل انبلاج ضوء النهار. وصلت جمالنا في الوقت المحدد، إنما لم أرض عن مظهرها. بدا الجمل المعين لركوبي كأنه سيقع ميتاً في أي لحظة. إن هذه الحيوانات المسكينة تواجه وقتاً عصيباً في هذا الموسم حيث أن أصحابها يستغلونها إلى أقصى حدّ طوال الموسم بلا راحة. لقد استأجرنا أربعة جمال لهذه الرحلة، حيث أننا بعنا هودج الركوب في ينبع ولم نر ضرورة لشراء غيره.

* * *

الفصل السابع

من جدّة إلى مكّة المكرّمة

تبعد مكّة المكرّمة عن جدّة أربعين ميلاً تقريباً وتتصلان بطريق محميّة بمعاقل أو حصون صغيرة لا تبعد عن بعضها أكثر من مدى رصاص بندقية. بناءً على ذلك فإن السفر المنفرد يُعدّ آمناً ولا ضرورة للانضمام إلى قافلة. وهناك أكشاك صغيرة تتناثر على بعد ميل واحد من بعضها، تجد فيها وجبات طعام خفيفة. يرسل الكثير من الناس أمتعتهم وخدمهم على الجمال، ويلحقون بهم راكبين الحمير. وقد ندمت لاحقاً أنّي لم أأخذُ حذوهم.

خرجنا من البوابة إلى سهل رملي مسطّح يمتدّ حوالي سبعة أميال وينتهي على سفح هضاب منخفضة، وامتدّ طابور الجمال إلى هذه الهضاب واختفت مقدّمته بينها. في هذا الموسم من كلّ عام ينتقل الحجاج إلى مكّة بأعداد ضخمة بطوابير متّصلة على هذه الطريق. لم نبعد مسافة كبيرة حتى أحسستُ كأنّي أهوي ووجدتُ نفسي فجأةً مستقرّاً على الأرض على جزء من جسدي يتحمّل الصدمات دون أذى. كان من الواضح أن الجمل قد نفق، ولا أدري إن كان السبب الإرهاق أو المرض. خرجنا من الطابور إلى جانب الطريق وصبينا جام غضبنا على الجمال لإحضاره إبلًا بهذه الحالة وهدّدناه بالعودة إلى جدّة وإلغاء التعامل معه. كان علينا أن ننتظر ساعة كاملة حتى يحضر جملاً غيره ولم نعاود المسير إلا بعد الساعة الثامنة. لم يتنه نصيبنا من الحوادث عند ذلك الحدّ، فقد قرّرنا أنا وعبد الواحد أن نتوقّف في أحد المقاهي الصغيرة لتناول بعض القهوة وندخّن ثم نلحق بالركب. إنّ الجمال المحمّلة بالمتاع تقطع ميلين في

الساعة الواحدة، بينما يستطيع أن يسير المرء ثلاثة أميال في الوقت نفسه. فقضينا حوالي عشرين دقيقة في تحقيق مأربنا ثم بدأنا بالسير. كان الهواء منعشاً في الصباح الباكر، وبدأ يتحوّل إلى حار قائل في مثل هذا الوقت، أما الشمس فكانت تضرب الرمال بقوة وتجعل سيرنا حفاة مزعجاً. جهدنا بالسير على قدر ما نستطيع، لكن سرعان ما وجدنا أننا لا نلحق بالركب، بل إنّ جمالنا قد سبقتنا، وكنا قد دخلنا في الهضاب، حيث اضطرت القافلة أن تسير بخطّ منفرد من الجمال. حاولنا أن نوصل خبراً شفهيّاً إلى فريقنا عن طريق الحجاج أما منا إنما كانوا هنوداً لا يفقهون لغتنا. ولحسن الحظّ تصرّف مسعودي بنباهته المعتادة حيث أنّه أحسّ بغيابنا طويلاً فأوقف الجمال في أول مكان فسيح وصل إليه، وحين التقيناه كنّا نشعر بالحرّ، متقرّحي القدمين وأكثر حكمة في التصرف مستقبلاً. كنت تدارست قبلاً فكرة وجوب التوجّه إلى مكّة المكرّمة سيراً على الأقدام.



في حوالي الساعة الرابعة والنصف من بعد الظهر وصلنا إلى قرية «بحرية» من المفترض أن تكون في منتصف المسافة، لكنّي أظنّ شخصياً أنّها أقرب إلى جدّة منها إلى مكّة المكرّمة. تتضمّن القرية بضعة محالّ بالاستطاعة التزوّد منها بالإضافة إلى تأمين بعض العلف وحظائر الماشية. وهناك بعض مزارع النخيل بالقرب من المكان، ويوفّر الحصن الكبير والحامية وفرقة من الجيش أو أكثر الحماية اللازمة للقرية، حيث أنّ قرية البحرية تمتدّ في سهل مفتوح بضعة أميال، تحيط بها من جهة جدّة سلسلة من الهضاب الصخرية المنخفضة والتي قطعناها للتوّ، وتمتدّ بين الكثبان الرملية إلى الشرق. أما الماء فهو متوفّر ولم يكن مالحاً بشكل ملحوظ.

ضربنا مخيمنا على بعد مسافة قليلة من القرية في مكان وجدناه أكثر نظافة من غيره، ولم نتكبّد عناء نصب الخيام حيث لم نجد حاجة لها في طقس جيّد ودافئ. وعزّمتنا النّية أن نواصل المسير في فجر اليوم التالي، إنّما تواطأ الجمال على تغيير خططنا وإجبارنا على المسير خلال الليل. كان عذره أنّه يؤدّ مساعدتنا في الوصول

إلى نهاية رحلتنا في أقصر وقت ممكن، وحتى يتسنى له العودة إلى جدة لخدمة المزيد من الركاب. بالإضافة إلى مجموعتنا، كان الجمال يؤجر ثلاثة جمال لمصريين، رجل وامرأتين، وقد نجح في خداعهم لمواصلة المسير الساعة الحادية عشرة عند بزوغ القمر، ومن ثم أتى إلينا قائلاً إنهم لن يحصلوا على إذن بدخول مكة إلا إذا رافقناهم، فترخيص السفر لديه يحوي إذنًا لعدد معين من الجمال لا بد وأن يتوافر عديده، وإلا فلن يُسمح للجمال بدخول مكة. قد يكون هذا ادعاءً كاذباً، إنما لم نكن لنعلم المسافرين المصريين على تنزيل أمتعتهم مجدداً، فاضطررنا أن نستغلّ الوضع ونستمرّ في السير. لم أمانع في هذا الأمر كثيراً، فالسفر في ليل دافئ ساكن أفضل من التعرض لشمس حارقة تضرب رؤوسنا المحلوقة ودون حماية، فانضممنا إلى طابور الجمال الذي لا زال يتهادى شرقاً. كان الأمر سيّان ليلاً أو نهاراً، وكنا نقرب من مكة في سيل من البشر. عندما نفكر ملياً أنّ نصف مليون من البشر يسافرون هذه الطريق في خلال شهر، بالإضافة إلى ما يحتاجونه من زاد وغيره، فمن السهل أن نقدر العدد الهائل من الجمال المطلوب توظيفها للنقل.

إنّ الصمت المسيطر على المكان غريب ومؤثر. فلم نعد نسمع صراخاً، أو غناء أو إطلاق نار. يتأثر معظم الحجاج برهبة المكان فيهدأون، وتنسلّ الجمال على الرمال الناعمة دون صوت. من الصعب على الغريب أن يفقه كنه مشاعر المسلم عند اقترابه من مكة المكرمة. فبالنسبة إليه، إنّها مكان يكاد لا ينتمي إلى هذا العالم، فجلال الإله يرنو فوق الجميع مثل تابوت العهد لدى اليهود. إنّ المسلم يتوجّه إلى هذا المكان خمس مرات في اليوم طوال حياته، وهو يقرب منها الآن ليكشف كنهها وأسرارها بأم العين. بالإضافة إلى ذلك وبحسب المعتقدات، إنّ الحجّ يجلب مسؤولية على الحاجّ كما يجلب الأخطار في طيّات بركته. إنّ عمل الصالحات في مكة المكرمة يربو أضعافاً مضاعفة عن أيّ مكان آخر، إنما السيئات المقترفة تستجلب النار جزاءً.

في ساعات الصباح الأولى دخلنا الأراضي المقدسة والتي يحدّها عمودان أبيضان من الحجر مررنا بينهما. يحرم صيد أو قتل أي حيوان هنا، إلا للغذاء. وأيّ تعدّ جائر

على الحياة محترّم⁽¹⁾.

بعد أن قطعنا الحدّ الفاصل لبداية الإحرام تلونا دعاء خاصّاً تكرر أراً، وأحياناً جماعياً. والدعاء هو التالي:

«لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنَّعْمَةَ لَكَ وَالْمَلِكُ، لَا شَرِيكَ لَكَ».

إنّ الكلمات «لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ» تتكرّر عدّة مرات في لحن مهيب.



وجدنا الصباح بارداً ونحن في ملابس الإحرام التي لا تغني عن البرد. ولما بزغ الضوء، أشار إبراهيم إلى جبل النور حيث أنّه قد أدّى فروض الحجّ من قبل، وجبل النور قبة مخروطية الشكل تعلوها منارة أُعلِمَتْ أنّها ضريح. إنّ الجبل من أشهر الهضاب التي تطلّ على المدينة. ثم مررنا في الساعة الثامنة على بضعة بيوت حجرية إلى جهة اليسار وقيل لنا إنّها من بيوت مكّة المكرّمة، ولذا تلونا الدعاء المناسب لرؤية مكّة المكرّمة. لقد سلّم كلّ منا كتيباً أدرجت فيه الأدعية الخاصة بالحجّ بترتيب زمني ولكلّ دعاء مناسبته الخاصة، مثلاً عند الإحرام، وعند رؤية مكّة المكرّمة، والدخول من بوابة المدينة، وعند رؤية الكعبة الشريفة، وهكذا. إنّ دعاء رؤية مكّة المكرّمة هو كالتالي:

«اللهم، يا مَنْ أوردتنا هذا المكان بالأمن واليسر، ردّنا بأحسن مُنقلب وخير حال». ويتابعون من القرآن الكريم: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾.

لا بدّ لي من الاعتراف مع أنّي شعرت ببعض التوتر، فقد كان عليّ أن ألتفت حولي لأرى الرّهبة تعلو وجوه معظم الحجاج من حولي. وكلّما اقتربنا من المدينة أصبحت ملاحظة التأثير عليهم مؤلمة. سرنا لحوالي ساعة من الزمن، مارّين ببعض الأكواخ

(1) كتب المؤلف: يحرم على المُحرم أن يقتل أي نوع من الحيوان، حتى الحشرات، ما عدّا العقرب ومثله الذي يعدّ خطراً على حياة الانسان. ويمنع الرّفث والفسوق والجدال في الحج أيضاً.

الصغيرة وخيمة بدويّ هنا أو هناك، إلى أن أصبحت أسائل نفسي أين تختبئ مكة. فجأة انعطفنا يساراً ورأيت أمامنا تجويفاً بين الهضاب الصخرية العالية، أحدها متّوجّ بحصن عظيم، آخرها شُيّد عليه مسجد، وغطّت الأبنية التي لم أكد أميّزها بقية الهضاب.

تقع مكة على حافة أرض جبلية وعرة تمتدّ إلى داخل جزيرة العرب. وتقع المدينة في وسط واد ضيق لا يبين من جهة البحر فلا ترى أيّ أثر للمدينة إلا عندما تصل تقريباً إلى بوابتها. أما الوادي فهو يمتدّ إلى الشمال الشرقي والجنوب الغربي، ولا تظهر له نهاية.

قرّرت وعبد الواحد أن نكمل سيراً على الأقدام للاستكشاف، وقد نتّمكّن من العثور على مكان للسكن قبل وصول الجمال. أعطينا التعليمات لمسعودي لملاقاة في الشارع الرئيس في الجهة الأخرى من المدينة. كنّا نعلم أنّنا ستعرّض لنقد لاذع من الحرّاس المرتبكين الذين ينتظروننا عند دخولنا البوابة. حثّنا الخطى ومررنا بشكّة الجيش الجديدة وهي بناء فسيح يتّسع لعدّة أفواج. وحالما عبرنا الشارع الرئيس الذي يفضي إلى مركز المدينة وجدنا كما هو متوقع صفّاً من المطوّفين، متزيّين بألوان قوس السماء (قوس قزح) ويسدّون الطريق. إنّما كنّا على أتمّ الاستعداد لهم هذه المرة. عندما اقتربنا منهم، نادى عبد الواحد باسم محمّد مفتاح والذي لحسن الحظ لم يكن من بينهم، سألنا بعضهم عنه ممّا جعلهم يعتقدون أنّنا قد عقدنا صفقة مسبقة معه ولا داعي للتفكير بنا. أوقفني شيخ مسنّ، وكان رئيس المطوّفين، وسألني عن اسمي فقلت: «علي»، ثم سأل عن جنسيتي فقلت: «عربي» ثم أكملنا سيرنا. بما أنّ المئات من العرب يحملون هذا الاسم ويمرّون من هنا يومياً، توصلت إلى نتيجة أنّ الحكومة تدفع لرئيس المطوفين ليسأل هذه الاسئلة التلقائية. على أيّ حال، تنقّستُ الصعداء مرّة أخرى، وباستطاعتي القول إنّنا لم نواجه أيّ متاعب مع المطوّفين بعد ذلك ويعود الشكر إلى أسئلة الشيخ. ولا أحتاج القول هنا إنّنا لم نتعب أنفسنا في البحث عن محمّد مفتاح بعدئذ.

شققنا طريقنا في شارع طويل، حوالي نصف ميل، يمتدّ واسعاً ومستقيماً ثم انعطفنا إلى الأروقة التي كانت مزدحمة لدرجة لم نستطع المرور. وعند خروجنا من الأروقة

وصلنا إلى شارع مستقيم آخر يفضي، كما قيل لي، إلى «منى»، فأكملنا سيرنا لمدة عشرين دقيقة أخرى إلى أن وصلنا إلى مبتغانا. كانت منطقة ذات شوارع هادئة ومنازل عالية بنوافذ مغلقة، بعضها يتضمّن حدائق صغيرة. قيل لنا إنّ هذه المنطقة من أفضل المناطق السكنية في المدينة يفضّلها العجم والعرب القادمون من العراق، أي بغداد وكربلاء ووادي نهر الفرات. جذبتني المنطقة خصوصاً أنّي استبعدت قدرة حجاج زنجبار أو مسقط على الاستئجار فيها. وثمة ميزة أخرىلفتني هي أنّنا سنكون في أمان إن تفشّى وباء الكوليرا، فالمكان ليس مكتظّاً كغيره من أجزاء المدينة. ففي العام الفائت، لم يضرب الوباء هذه المنطقة إلا قليلاً مقارنة مع غيرها. وبما أنّي لا زلت أملك مئة جنيهاً، لم أجد ضرورة للتوفير، ولا بأس ببعض الرفاهية.

استعرضنا عدة منازل قبل أن نجد ما يرضينا. وقرّ الرأي أخيراً على جناح من ثلاث غرف، ملحق به حديقة على السطح، في منزل محمّد سعيد، وهو ضابط كبير. كانت الوحدة السكنية الأولى كبيرة، نظيفة ويدخلها الهواء، أما الوجدتان الأخريان فمقبولتان. وأعجبني مظهر صاحب المنزل وابنه، ابن الخامسة والعشرين، وهما من أهل مكة الأصليين. بعد الكثير من المساومة، اتفقنا على إيجار مقداره سبعة جنيهاً في الشهر نستطيع بمقتضاه استعمال المطبخ، والاستفادة من خدمات الرقيق الموجودين في المنزل إن احتجنا إليهم. بعد الاتفاق معهما، وجدنا أنّهما مضيافان جداً. حضّرت النسوة الطعام والقهوة بينما ساعدنا الرجال في حمل الأمتعة التي وصلت مع مسعودي والآخرين. كنت متفاجئاً لحصولي على ما نريد بثمن بخس، حيث كنت مستعداً لدفع خمسة عشر جنيهاً أو حتّى عشرين ثمناً للسكن. أطلعني محمّد سعيد على عاداته في إيجار منزله بثمن منخفض للنخبة من العرب الذين يتمتّعون بالهدوء والخلق الحسن، مقارنة بالمبالغ من المال التي يمكن الحصول عليها من تأجير الهنود أو أهل جاوة. وتبيّن أنّ لديه قريباً يعيش في زنجبار وكان مهتماً تماماً بالتعرف على أحوال هذا البلد. ذكرت أمامه أنّني لا أحبذ أن يذكر موطني الأصلي لأحد لأنّي أخاف الوقوع في المشاكل مع المطوّفين، وكان طلباً منطقياً بالنسبة له وعد بتنفيذه.

قرّرنا التوجّه إلى الحرم الشريف⁽¹⁾ فوراً للطواف بعد أن صلحت أمورنا، وتناولنا وجبة جيّدة جداً وعلى الطريقة الأوروبية، أي على مائدة مع صحون وشوك وسكاكين، وبعد أداء الطواف يمكننا أن نبذل ملابس الإحرام بملابسنا الاعتيادية والتي كتبشوق لها. أصاب مسعودي صداع حاد، فقبل نصيحة محمّد سعيد وتخلّف عن الذهاب إلى صباح اليوم التالي حيث أنّ المناسك تتضمّن الهرولة وهي متعبة تحت الشمس الحارقة.

إذن، توجّهنا أنا وعبد الواحد سوياً، وتوضّأنا قبل أن نخرج. وما هي إلا عشرون دقيقة حتى كنّا على بوابة الحرم الشريف التي دخلنا منها ووجدنا أنفسنا أخيراً في الساحة الكبيرة التي تتضمّن مجموعة الأبنية التي قدمنا لرؤيتها. هناك، أمام أعيننا، كانت الكعبة، ورداؤها الأسود دهشة لناظره بتناقضه مع لون الرخام الأبيض المتألّئ تحت أشعة الشمس. من الكعبة انتقل نظرنا الممتلئ رهبة إلى القبّة غير المزخرفة التي تغطي بثر زمزم المطهر، ثم إلى الآثار التي تدلّ على مقام كلّ من الأنبياء محمّد وإبراهيم وإسماعيل، والصّفّة الحجرية التابعة للشافعية المثيرة للفضول، ومن ثم غرق نظرنا في متاهات الأعمدة المحيطة بالمكان.

إنّ التأثير البارز الذي يتركه هذا المشهد هو تأثير مكان غير اعتيادي، فهو ليس بالباذخ، ولا يمكن وصفه بأنّه متكلف، إنما هو يجيش في نفس ناظره روعة الإبهار. يشعر المرء بصورة غريزية أنّه ينظر إلى شيء فريد من نوعه، فلا يماهيه أيّ شيء آخر في العالم. ولا أدري إن كانت الملائكة الحارسة للمكان تقطن المبنى نفسه أو تحوم حوله، ولا أدري إن كان هذا مجرد اعتقاد أولده الأيمان المتعلّق بالمبنى المربع في الوسط⁽²⁾، لا أستطيع قطع اليقين إنما هو موجود. لا همّ ما هو التفسير المقبول لهذا، إنما لا شك أنّ النتيجة شعور خارق للطبيعة. وندر أن ينظر حجاج إلى هذا المشهد ولا يتأثرون، فهو يخضع الأشدّ طيشاً إلى صمت غير اعتيادي.

(1) كتب المؤلف: يطلق المسلمون على الحَرَم اسم المسجد الحرام، أو بيت الله الحرام.
(2) كتب المؤلف: يفسّر المسلمون لفظ «بيت الله» حرفياً وبكل معنى الكلمة. والكثير منهم يخافون أن يرفعوا نظرهم إلى الأعلى حول الكعبة وقت الحج. ويظن البعض أن أجنحة الملائكة هي ما يسبب صوت رفرقة ستار الكعبة.

صَلَّينا ركعتين تحية للمسجد، ثم جلسنا لبعض الوقت في ظل الأعمدة نطالع المكان في أشعة الشمس.

تمتد الساحة المربعة بعرض ثلاثمئة ياردة ومثلها طولاً، أما صف الأعمدة المحيطة بها فتغطي عشرين ياردة⁽¹⁾ حولها. وهي مرتكزة على عواميد حجرية ومسقوفة بقباب صغيرة. أما الأرضية التي تقوم عليها الأعمدة فهي مصنوعة من حجر الغرانيت الخشن، أما الساحة فهي مغطاة بالحصى ومحاطة بأرصعة للمشاة تلتقي في الوسط. تتضمن الأبنية الكعبة الشريفة، وبئر زمزم، ومنبر الوعظ، ومقام إبراهيم عليه السلام، وقنطرة صغيرة ومقام أسماعيل، وهذا الأخير عبارة عن حائط نصف دائري مميّز الشكل قريب من الكعبة. أما الكعبة نفسها، والتي هي مكعب بعلو أربعين قدماً، فهي مبنية من حجارة كبيرة من الغرانيت، ولها باب خشبي موصد بالحديد يعلو ثمانية أقدام عن الأرض، لذا لا حاجة لاستعمال سلم لمن يريد الدخول. ويقع البناء في حوض ضحل من الرخام، ييضاوي الشكل يبلغ في أقصى قطر له حوالي أربعين ياردة.

أما السور الخارجي للحرم فهو من الآجر، تحاذيه المنازل والحوانيت فيمكن رؤية داخله من الطوابق العليا. وللسور حوالي ثماني عشرة بوّابة، تصل إلى الرئيسية منها في الناحية الشمالية عن طريق درجات من الصخر، ومن ثم إلى سوق صغير مخصّص لبيع الكتب وينتهي السوق على بوّابة الحرم ذاتها.

لا تمتلك أيّ من المباني أدنى جمالية في العمارة أو القيمة المادية، بل تُلاحظ البساطة الشديدة والنقاء المفرط في تصميمها. أما الحرم فهو مبدئياً حديث البناء وقد جُددت الكعبة عدّة مرات. ويجد الباحث تأريخاً كاملاً لمكة باللغة العربية.



طلبنا من أحد الدلائل الكثر المنتشرين حولنا أن يقودنا في أداء مناسك الحجّ،

(1) كتب المؤلف: أخذت هذه المقاييس بالنظر، وهي تقريبية. ويجد القارئ وصفاً تفصيلياً للمسجد في كتاب سير ريتشارد بروتون: رحلة حج إلى المدينة ومكة.

والتي كان أولها الطواف سبع مرّات حول الكعبة. قطعنا الساحة إلى دائرة الكعبة وأمسكنا بيد الدليل وانضممنا إلى الحشد الذي يطوف حولها. كانت الساعة الثالثة ما بعد الظهر، أي أكثر الوقت قيظاً ولم يكن هناك ازدحام في المسجد، إنما من المؤكد أنّ الطائفين حول الكعبة يعدّون بالألف. لا تخلو الكعبة من الطائفين حولها على مدار السنة. ويقال إنّ من فوائد الطواف أنّه يحقق بركة خاصة لمن يطوف وحيداً حول الكعبة. وقد درج بعض الخلفاء الأوائل على عادة إيجاد هذه الحالة لتخلو لهم الكعبة عن طريق إبعاد الناس، إنما لا تدخل هذه الحالة ضمن الشروط الصحيحة.

طُفنا حول الكعبة، مشياً تارةً وهرولة تارةً أخرى مرّدين دعاءً طويلاً وراء الدليل. بعد الانتهاء من الطواف السابع كان علينا أن نقبل الحجر الأسود، وهو حجر يقبع في زاوية البناء ويعلو حوالي أربعة أقدام عن الأرض. هناك فُرجة في الستار الأسود يكشف عن الحجر وكان باستطاعتي ملاحظة أنّ الحجر مكسو بالفضة وما تعرّض للتقيل متآكل. يقال إنّ الحجر قد هبط من السماء، ومما لا شك فيه أنّ أصوله من الفضاء الخارجي.

بعد الطواف، أدّينا صلاة من ركعتين ثم تركنا الحرم وتوجهنا إلى الصّفا والمروة لنؤدّي منسك السعي، وهو هرولة بين هضبتين تبعدان عن بعضهما حوالي ثلاثمئة ياردة. والخط الفاصل بينهما مواز للناحية الشرقية من الحرم والطريق بينهما تندمج مع الطريق المحاذية لها. هرولنا ذهاباً وإياباً مرّدين دعاءً طويلاً آخر طوال السعي. إنّ الدليل مهمّ في تلقين هذه الأدعية حيث أنّه يحفظها عن ظهر قلب، ويسعف الحاجّ من قراءتها من كتاب أو ارتجال دعائه الخاص وقد لا يقدر على ذلك. كانت طريق السعي مكتظة بالمشاة، والجمال، والفرسان والمتسكّعين، لذا كان سعينا بطيئاً نوعاً ما. عند الانتهاء من السعي صلّينا عسى أن يتقبّل الله منا مناسكنا، ثم حُلقت دائرة صغيرة من شعورنا معلنة انتهاء المناسك. أصبحنا الآن في حرية لارتداء ملابسنا الخاصة والعيش كأهالي مكّة أنفسهم إلى أن يحين موعد الحج. كانت العودة إلى المنزل راحة كبيرة، حيث كنّا مرهقين ومتقرّحي الأقدام. إنّ الركض حفاة جيئةً وذهاباً على أرض وعرة

لم يكن ممتعاً، وعند دوسي على حصاة مدبّية، مرة أو مرتين، خرجت مني ألفاظ لا تليق بما نفعل. لكنّ الاستحمام وتغيير الملابس قد فعلا فعلهما في تغيير مزاجنا إلى الأفضل، ونظرنا إلى الأمور بإيجابية.

* * *

الفصل الثامن

مكة المكرمة

قضينا الأيام التي تلت مستمتعين باستكشاف مكة. كان هناك الكثير لفعله ورؤيته، وكانت الأسواق المكتظة مصدر اهتمام ومتعة فائقين. إنّ مكة أكبر بكثير من المدينة المنورة، فتعداد سكانها دون الحجيج يصل إلى سبعين ألفاً، مع أنني شخصياً أستطيع أن أزيد على هذا العدد بحرية. لا بدّ من التذكير هنا أنّ عديد الحجاج في هذا الأسبوع وصل إلى خمسمئة ألف، ويجب إيجاد مساكن لمعظمهم، لذلك فإنّ المباني المتواجدة في المدينة تفوق حاجة السكان بالعادة. أما الشوارع فهي واسعة ونظيفة بشكل عام، وجميع المنازل تتكوّن من ثلاثة أو أربعة طوابق، وأحياناً أكثر. أما السوق الرئيسة فهي مسقوفة، كما في دمشق، ومع أنّها لا تقارن بذاك المكان عدداً ونوعية، فإنّ بعضاً منها لا بأس به. يقدّم التجار الوجبات للحجاج بشكل كامل تقريباً، وبعض منهم يحبّ أن يأخذ معه تذكّراً من رحلته تلك. أما الصناعة المحلية فغير متوفرة هنا، ولقد فشلتُ في إيجاد أية سلعة تحمل خاصية المكان، حيث أنّ البضائع تستورد من جميع أنحاء الشرق، مثل الحرائر من سوريا، السجاد من تركية وبلاد فارس، النحاس المشغول من الهند ومصر، وكلّ هذه البضائع تلاقى رواجاً عند الحجاج، إنما تكون مصدر يأس عند المسافر الذي يدرك أن باستطاعته الحصول على نفس البضائع، بجودة أعلى وثمن أقل في أماكن يسهل الوصول إليها غير مكة المكرمة. وبالإضافة إلى التجار المحليين، يتوافد إلى مكة تجار من جميع أنحاء العالم الإسلامي عارضين بضائعهم في موسم الحجّ، ومتأكدين أنّهم في سوق استهلاكي مربح.

إنَّ حكومة مَكَّة متميِّزة، فهي في الواقع مقاطعة شبه مستقلة عن تركيا، وتحت حكم «الشريف» الذي يُختار دوماً من نسل عليّ وفاطمة. يُعدّ هذا الشريف كملك مستقلّ، فهو يقطن في قصر، ولديه حامية من الحراس، ونظرياً لديه سلطة مطلقة داخل حدود ملكيته الضيقة. وتقدّم له التشريفات ذاتها التي تقدّم لسلطان تركيا أو أي عاهل شرقيّ آخر. تُعدّ سلالة العائلات الشريفة عريقة ولا عيب فيها، فنرى فيهم العربي كما كان أيّام الرسول، وقبل أن تدخل الفتوحات الإسلامية الأعراق التي تبدو ملامحها واضحة في معظم العرب الآن. والشريف الحالي رجل خمسينيّ أسمر، مربوع القامة قوي البنية، ولديه ملامح متّسقة، ولحية طويلة يشوبها الشيب.



يملك الأتراك كتيبة كبيرة في مَكَّة المكرّمة، لكنّي لم أكن قادراً على التثبت من العدد الصحيح لفرقها. والحصن المطلّ على المدينة من جهتها الجنوبية الغربية باستطاعته أن يضمّ ألفي جندي على أقلّ تقدير. يبدو على هذا الحصن أنّه منيع، ومن الصعب اقتحامه، إنما بالطبع لا يمكنه تحمّل قصف سلاح المدفعية. لقد ولّى زمن الحصون الآن بالسرعة نفسها التي اختفت فيها البوارج الحربية. أما مباني مَكَّة العامّة فتتضمّن المحكمة، ومركز البريد والبرق ومكاتب حكومية أخرى. ولا تتواجد معالم مهمة إلا ما ترك الرسول من آثار وقد تكون غير صحيحة النسبة وسأتي على ذكرها لاحقاً. ويتواجد مسجد واحد غير الحرم الشريف نفسه.

إن طقس مَكَّة ليس بالطقس الجيّد مع أنّه لا يُعدّ غير صحي، فهو حارّ طوال السنة وجاف جداً. تتساقط الأمطار مرّة أو مرّتين في السنة فقط، لكن عندما تهطل فإنّها تعوّض ما فاتها⁽¹⁾. تغوص المدينة بين الهضاب المحيطة بها بشكل يمنع النسيم أن يصلها، فتزيد الحرارة المنعكسة من سطح الهضاب الصخريّ الوهج في النهار وتجعل الجو خانقاً في الليل. وفي السنين التي يصادف موسم الحجّ فيها في الشتاء، درجت العادة

(1) كتب المؤلف: في السنة التالية لرحلتي هطلت الامطار وتسببت بسيول في الحرم الشريف وأغرقت عدّة أشخاص.

أن تتوجّه الحكومة والطبقة الغنية من المواطنين إلى الطائف، وهي مدينة تبعد ثلاثة أيام إلى الجنوب الشرقي، وهي أكثر برودة من مكة وفيها وفرة من الماء وذات أرض خصبة نسبياً. إنّ تربة مكة قفراء بالكامل تقريباً، فلا ينبت فيها أو حولها أي نبات. يعتمد سكانها كلياً في مؤنهم على مصادر خارجية، وما فتئت مندهشاً من كيفية تأمين الغذاء والعلف لكل هذه الجمال المتوافدة. وأعتقد أنها تجد مكاناً للرعي ما بين الجبال.

إنّ البئر الحقيقي الوحيد في مكة يقع في الحرم الشريف ويسمى «زمزم» أما الماء الذي تحتاجه المدينة فهو نابع من جبل عرفات. تنقل الماء إلى مكة عن طريق قنوات تحت الأرض، وتجمع في حُفر تشبه الآبار. وسُقاة الماء هم من طبقة خاصّة في المجتمع، فهم يحملون الماء في جراب ويبيعون الماء للمنازل بثمن معيّن. وهذا الماء جيد النوعية عندما لا يكون ملوثاً، وعادة ما يكون متوقفاً إلا عندما تُسدّ القنوات وعادة ما يحصل هذا.

هنالك عدّة مقاهٍ جيدة تنشط في هذا الموسم، وتقدّم طعاماً طازجاً، مثل اللحم والدجاج والخضار، وبأسعار معقولة، إنما الفواكه نادرة ثمينة. وبعد أن تجوّلت في المكان، أعتقد أنّي أفضل أن أعيش في المدينة المنورة بدلاً من هنا.

* * *

تعوّدت أن أتجول مع عبد الواحد، فلم يكن ظهوري مع مسعودي محبّذاً. وكنا عادة ما نذهب إلى الحرم الشريف لصلاة الظهر، ومن ثمّ لصلاة العشاء، وبعد أن أدينا الطواف كاملاً، أصبح بإمكاننا أن نطوف ساعة نشاء حول الكعبة تالين أيّ دعاء نرغب، أو حتّى بغير دعاء. وخلال إقامتي في مكة المكرّمة لمدة شهر كامل كان بإمكانني تفحص كلّ الأمور المميّزة، وجمع ما أرغب من معلومات عنها إنما لن يتسع المقال لها هنا.

ابتعت بعض الصور من مكتبة في الشارع القصير الذي يؤدّي إلى البوابة الرئيسة للحرم. وأخبرني صاحب المكتبة، الذي ولد فيها، قصّة الصور.

إنّ الناس أنفسهم هم بالحقيقة المعلّم الأكثر إثارة للانتباه في هذا المكان. فكلّ ما قيل عن وصف الحجيج في المدينة المنوّرة ينطبق هنا أيضاً، إنما بفيض، حيث أنّ الحجّ فرض على كلّ مسلم ما استطاع إليه سبيلاً، إنما الزيارة إلى المدينة المنوّرة وقف على من يستطيعها، ويصل أقل من ربع حجّاج مكّة المكرّمة إلى المدينة المنوّرة. أما الحشد المتجمّع لصلاة ظهر الجمعة في أسبوع الحجّ فهو مشهد مميّز.

لفتني أكثر ما لفتني من الحجّاج، أهل جاوة. إنهم لا يختلفون في مظهرهم وعاداتهم عن اليابانيين. ولديهم نفس الطبع المولع بالاكْتساب والتقليد، وهم شديداً الحشريّة لما لا يعرفون، وسريعواقتباس ما يرونه نافعاً لهم. إنهم يغيرون العرب بهذه الخصال، وبالحقيقة فهم ليسوا مثل معظم الشرقيين الذين لم يتطوّروا بسبب خاصيّة المحافظة المتطرّفة لديهم. وبالرغم من أنّ اليابانيين قد وافقوا ظاهرياً على اتّخاذ إنكلترا مثلاً أعلى لهم، فإنّ أهل جاوة يحاولون أن يتماهوا بالعرب. فأول ما يفعلون عندما يصلون هو التزيّي باللباس المحلي، والذي، بالمناسبة لا يليق بهم أبداً. وقد قيل لي إنّ هناك الكثير من الناس يرتدون الزيّ العربي في جاوة لدرجة أنّ الغريب يظنّ نفسه في الحجاز. يبدو الغنى على معظمهم، وهم ينفقون في مكّة أكثر من أيّة طبقة أخرى من الحجّاج. وعادة ما يدفعون مبلغ مئة جنيه لكراء منزل لثلاثة أيّام في منى. وهم متحمّسون لإسلامهم، بارعون باللغة، ومطلّعون على ما يجري في العالم أكثر بكثير من العرب أو حتى الأتراك. وقد ألقي شاب تعرّفنا إليه لاحقاً يسمّى عبد الرّحمن، ملاحظات عن العرب والأتراك لفتت نظري. فقد قال: «إنّنا نعقد الأمل عليهم وليسر على الأتراك. فهم يملكون كلّ الخصائص التي نفتقدها نحن العرب، وسيقتبسون من الأوروبيين اختراعاتهم ويستعملونها ضد الأعداء، تماماً مثلما فعلت اليابان مع روسيا».

لا أعرف أكثر ممّا يعرف هو عن الشرق، إنما ما هو مؤكّد وجود ملايين المسلمين في الصّين، وجاوة وأرخيل جزر الملايو وأنّ الإسلام سريع الانتشار هناك. إذن، يبدو أنّه محقّ في افتراض أنّ الفروع الجديدة في الشرق الأدنى ستكون مصدر قوّة للإسلام

في القريب العاجل . وبالرغم من انتشار الجرائد، تغيب أوروبا عن معرفة بعض الأمور بطريقة أو بأخرى، فقد نظر سلفنا إلى اليابانيين بنفس النظرة التي نرى فيها قبائل الزولو الآن. وقد يؤنبنا الجيل الجديد على قصر نظرنا في حوادث مماثلة. يظهر الكثير من الناس رضاً ذاتياً عندما يتكلمون في مواضيع تتعلق بالشعوب الحاكمة والشعوب المحكومة، وقد يكونون محققين في افتراضهم أنّ القوة وحضارة العالم ستظلّ متمركزة في شعوب أوروبا الغربية لفترة من الزمن، إنما ليس هناك من برهان لهذا الافتراض. إنّ التفكير الاستقرائي المبني على ما نعرف من تاريخ العالم، يحتم نتيجة مختلفة. وإنّ نظريتهم المتحيّزة للأعراق الحاكمة مبنية على افتراضات غير مبرّرة.



أقمنا عدّة صداقات خلال الأسبوع الأول، معظمها من معارف عبد الواحد القدامى. أحدهم كان ضابطاً في كتيبة بغداد وهو الذي عرفنا على عبد الرحمن السابق الذكر. كان الأخير رجلاً كبيراً في السن من أهالي مكّة، مسؤولاً عن السقاة الذين يوزعون الماء من البئر المطهر وعن الحشد الغفير الذي يوزع الماء داخل الحرم. ومن أوجه الإحسان المرغوب أن تنقذ السقاة مقابل الماء الموزع ليتمكن الوافدون من الحصول عليه مجاناً⁽¹⁾. وبما أنّ المحسنين يدفعون بوفرة فقد أصبح إلحاح السقاة مزعجاً، فهم لا ينامون عن عرض الماء المطهر لنفس الشخص كلّ دقيقتين، ومع أنّ الماء يجلب الحكمة وبركات عديدة أخرى، فمذاقه ثقيل. ولسبب ما، إنّ البئر مالح، لكن يعدّ المعتقدون بالخرافات أنّه ترياق لأمراض الجسد والروح. وأفضل هدية تبعث من مكّة هي الأوعية الدائرية الغريبة الشكل التي نحوى على نصف لتر منها، والاعتراض الوحيد لنقل الماء من مكّة يأتي من موظفي مركز الحجر الطبي الذين قد يرمونها في البحر.

(1) كتب المؤلف: يطلب الكثير من الناس أن يصل الماء إلى منازلهم لغسلهم وتنظيف ملابسهم، وقد أعطى هذا فكرة عن المسلمين أنهم يستحمون في البئر نفسها. وهذا خطأ شائع، فهم لا يفعلون ذلك. إنّ البئر بعمق أربعين قدماً فقط، مع ان الماء صالح للوضوء.

إنّ هذه الوظيفة تؤمّن دخلاً إضافياً لعائلة عبد الرحمن، كما فعلت لأجيال مضت. وقد أثبت أنّ معرفته ذات منافع عدة. لقد أمر لنا بمكان قريب منه ومن أصدقائه في الحرم، حيث مُدّت لنا الحصر في ظلّ ظليل بين صفّ الأعمدة في النهار، تُنقل إلى الخارج في المساء. كانت هذه وسيلة راحة ملائمة جداً خصوصاً أيام الجمعة، حين يضطر الناس الحضور إلى الحرم باكراً جداً للحصول على مكان في الظلّ، وإلا يضطرونّ البقاء في الساحة المفتوحة في قبض شمس الظهيرة. أما نحن، فكان باستطاعتنا أنّ نتوجّه إلى الحرم ساعة نشاء، ونكون متأكّدين من وجود مكان جيّد حفظه لنا خدام عبد الرحمن التّواقون لإرضائه، وكلّ هذا كان مقابل لا شيء إلا بعض البقشيش الذي لا بدّ منه. دعاني عبد الرحمن إلى منزله الذي يطلّ على الحرم الشريف، وقد ذهبت هناك مرّتين لتناول الشاي. كان مضيافاً جداً، وقبل مغادرتي منزله كان عليّ أن أسطر كلمات في دفتر الزيارة، حيث أنّ جمع التّواقيع كان من هواياته. وكما تبيّن لي، كان عبد الرحمن من الرجال الذين يبغضون النساء، وكان لا زال عازباً، ممّا يُعدّ غريباً في الشرق. وقد أفضى لي أنّ طبع أخته السيّء كان السبب في كرهه للنساء عامّة، وأخته ترعى له منزله. ويبدو أنّه لا يتعاطف مع البرلمانات أو الدستور الجديد بأي شكل من الأشكال. إنّما أبدى إعجاباً عميقاً بعبد الحميد، وهو يفضّل النظام القديم متميّزاً ومتوقّعاً عودته إلى بلاده قريباً. توطّدت أو اصر المعرفة بيننا لأنّي كنت قادراً على موافقته على أفكاره السياسية تلك. إنّما في زيارتي الثانية له، تعدّدت أسئلته عن عائلي وأمور أخرى إلى حدّ الإحراج فقرّرت أن أرفض دعواته في المستقبل، شاعراً أنّ قدرتي على اختلاق الأكاذيب تتوقّف عند هذا الحد.



قمنا بزيارات عدّة إلى سوق النخاسة⁽¹⁾. اعتقد أنّ مكّة هي إحدى الأمكنة القليلة التي لا زالت تمارس النخاسة في العلن. يصطفّ العبيد، الذين يوضعون في غرف عرض خاصة، على مقعد واطئ فوق مصطبة مرتفعة. وهم جميعهم نساء، يمكن شراء العبيد الرجال والخصيان باتّفاقات خاصة، إنّما لا يُعرضون في السوق. يقاد الشاري

(1) كتب المؤلف: ألغى سوق النخاسة لاحقاً.

من قبل المالك إلى كل غرفة، حيث يسهب في شرح مزايا بضائعه والتمن البخس الذي يطلبه بالمقابل. وباستطاعة أحدهم إن شاء أن ينخزن، ويتفحص أسنانهم أو يقوم بأي عمل يرضيه عن صحتهم وعقلهم، وهذا يضمنه المالك إن طلب منه ذلك. وليس من المعتاد ضمان خلّوهم من النقائص، بالإضافة أنّ ذلك يسبب إنقاص قيمتهم.

ولإتمام الشراء، على المشتري أن يقبل بالتمن المطلوب، أو يقدم عرضاً، يُسجل عند المالك ويُقبل إن لم يكن له بديل في زمن معين. وهذه هي الطريقة المتبعة في التجارة لجميع البضائع في البلاد الشرقية.

وتمن الجوّاري النساء يتراوح بين عشرين جنيهاً إلى مئة جنيه. ويزداد المبلغ في حالة بيع نساء كرجيات (من جورجيا) أو چركسيّات واللاتي يملكن مفاتن خاصة وقدرات علمية. استفسرت عن هؤلاء فأعلمت بعدم وجودهنّ هذه السنة بسبب تفشي داء الكوليرا بينهنّ في السنة الفائتة. وقد عرض عليّ كل التجار تأمين واحدة لي إن تركت طلباً بهذا الأمر لديهم، وكفالة وجود المواصفات المطلوبة بها، إنما لم أرغب أن أقوم بالشراء بهذه الشروط. ولم أجد بين الحاضرات اللواتي تفحصت من تصلح أن تكون هدية.

قد يفهم القارئ أنّ الرقّ المذكور هنا هو ببساطة تجارة المحظيات القانوني. إنّ هؤلاء الفتيات بعن من قبل عائلاتهن، ومع أنّ هذا المبدأ خاطئ، فهو يظلّ الحل العمليّ الوحيد للنظام الذي يعيشون في كنفه. وكما أشير سابقاً، إنّ المجتمع الإسلامي مبنيّ على مبدأ يختلف عن الفكر الغربي في تحديد العلاقة بين الجنسين. لا يتواجد الرقّ من حيث كونه عملاً غير مدفوع الأجر ومفروضاً غصباً في أيّامنا هذه، حيث أنّ العبد إن لم يرض عن ظروف عمله باستطاعته الهرب بكل سهولة.

إنّ تصرف الفتيات عند الخضوع لعملية الفحص المضنية كان كما هو متوقع. فالفتيات الصغيرات يخجلن ويقهقهن ويتظاهرن أنّهن يخشن وجوههن. عندما يكون الشاري أيضاً صغيراً في السنّ ولديه روح الفكاهة، فإنه قادر على أن يشارك في المرح. أما الكبيرات في السنّ واللواتي فقدن جمالهن، وفقدن الأمل في العثور على شار، فيجلسن شاخصات البصر فاقدات الاهتمام بما يجري حولهن. إنّ تعابير اليأس

والتعب على وجوههن تجعل أحدهم يشترين بدافع الشفقة المطلقة، وهو ما يتكرر من قبل المحسنين. إنما دون وجود منزل يأويهن يعني هذا إعطاءهنّ حريتهنّ ليمتن من الجوع. وسرعان ما يرجعن إلى سيدهنّ الأوّل فيضمنّ على الأقلّ طعاماً وملجأ، ويصبح المحسن الذي أعطاهنّ حريتهنّ غيباً لفعل ذلك.

لا يشجع الإسلام الرقّ بأيّ حال من الأحوال، فهو بالكاد محتمل، وتحت شروط قاسية جداً. وإذا كان لدى عبد آية شكوى من إساءة ما فإن القاضي سرعان ما يصلح الأمر، وفي قضايا الإساءة الفظة، قد تُعطى الحرية للعبد المساء إليه من قبل مالكة. إنّ القانون يرمي الرقيق أفضل من قوانين البلاد الأخرى المتعلقة بالخدم الاعتيادي. وبالطبع لا يخلو الأمر من إساءات، إنّما يعود اللوم على تطبيق القانون وليس على القانون نفسه. وغاية ما يجول بخاطر كل عبد في السوق هو أن يجد له سيّداً بأسرع وقت ممكن⁽¹⁾.



صادف مسعودي أحد معارفه القدماء بعد أسبوع من قدومنا إلى مكة المكرمة. كان فتى في الثالثة عشرة من عمره، واسمه «كيبي» Kipi وقد قدم مع والده، الشيخ محمّد، إلى بور سعيد من مومباسا على نفس السفينة التي كنّا عليها، متّجهين إلى المدينة المنورة عن طريق ينبع ونيويان المكوث فيها إلى حين وقت الحجّ، إنّما توفي الشيخ محمّد عند دخوله مكة وذلك قبل شهر من وصولنا وترك كيبي لقدره خلاله. وجد كيبي بعض مواطنيه الذين أعطوه بعض المال وكان يعيش على أمل أن يجد مجموعة من الحجّاج يرافقهم إلى زنجبار.

هناك عدد لا بأس به من السواحليين والعرب الذين يعيشون في مكة، وبالطبع كنت حريصاً ألا أتقابل مع أيّ منهم، إنّما لم يتمكن مسعودي من فعل ذلك بعد أن كشف

(1) كتب المؤلف: على الرغم من كل محاولات المنع، والقوانين الصارمة في موانئ مصر والسودان، فإن عدداً كبيراً من الأطفال يُجلبون إلى مكة من إفريقيا كل سنة كعبيد وياعون في الاسواق. والخطف في مكة نفسها ليس بالنادر، ولا يسأل تجار النخاسة أسئلة حول هذا الأمر، حيث أنهم غير بريئين بأغلب الأحوال.

أمر وجوده. وكان أن ذهب مع كيبي لمقابلة كبيرهم وبالطبع رأى الكثيرين منهم، وقد أعلمهم أنه أتى إلى هنا مع اثنين من أغنياء العرب، أحدهما بغدادى والآخر من مسقط، وهو يعيش معهما، وبما أنه في منزلة خادم لهما لم يكن باستطاعته أن يدعو أحد لزيارته. وبما إن كيبي كان قريباً لبعض أصدقائي من مومباسا، رأيت أن أبرّه بأخذه معنا عند مغادرتنا. أبلغه مسعودي أنّ راعيه القادم من مسقط سمع عن سوء حظه وقرّر أن يعيده إلى بلاده على نفقته الخاصة، وأن يصرف عليه إلى حين سفره.

سُرّ كيبي بالطبع، وتطوّر أن ينضمّ إلينا ويعمل خادماً لنا طوال مدة إقامتنا. إنما رفض مسعودي عرضه قائلاً إنّ لدينا الكثير من الخدم والحشم. كان كيبي يذكر هيتي لذا فلم يكن مسموحاً له أن يدخل المنزل إلى حين وقت المغادرة. ولو كان الفتى يتقن بعض العربية وبعض المنطق السليم، لكان طلب من أيّ من الحجيج الأغنياء المساعدة، وكانت فرصة حصوله عليها عالية جداً. أيّ إحسان حقيقي خلال الحج وفي مكة المكرمة بالذات يُعدّ أنّه يمحو السيئات أضعافاً مضاعفة، ومعظم الناس يتحينون الفرص لحالات مثل هذه لإغداق كرمهم عليها. بالإضافة إلى أنّ الأيتام هم دائماً موضع رحمة عند العرب.

عاد مسعودي إلى المنزل في ظهر أحد الأيام، بعد التقائه بكيبي، حاملاً معه أفضل الأنباء. فلقد وصلت رسالة من شيخ مومباسا، والذي انتظرناه طويلاً في جدة، تُعلمنا أنه لن يأتي إلى الحجّ هذه السنة ولا أيّ من مرافقيه. محت هذه الرسالة أسوأ مخاوفنا. كنت أعرف أن لا أحد سيشتك بكوني أوروبياً إذا أعطي دافعاً خارجياً لذلك، ووصول مجموعة كبيرة قد تتعرّف إليّ بمجرد التقائي في أيّ وقت يشكّل عاملاً محفوفاً بالمخاطر، ومبدداً للمتعة التي نجتنيها من وجودنا هنا، بالطبع مع شرط إقناع الشيخ نفسه بالسكوت عنّا، وهو ما لم يكن مضموناً. تأكّدت الآن من عدم وصول أيّ حجيج قد يتعرّفون إليّ، ولا أرى أيّ خطر عليّ إلا من الحجّاج الأربعة الذين التقيناهم في المدينة المنورة، والذين قد حان وصولهم، مع أنّي لم أر صعوبة في تجنّبهم في مكان كبير مثل مكة.

* * *

كرّسنا صباح أحد الأيام للجولة المعتادة في المدن، والتي تشمل هنا زيارة آثار النبي وآله، ومما اعتقد أنّها ليست موثوقة. إنّ أول مكان مشير للاهتمام زرتّه كان مجموعة من الأضرحة على بُعد قليل من المدينة على يسار الطريق إلى منى. دُفنت هنا السيدة خديجة، الزوجة الأولى للنبي، وعمّه العباس، وأبو طالب والد علي المعروف، وآخرون مغمورون. تشبه هذه الأضرحة ما رأيناه في البقيع في المدينة المنورة، إنّما تحظى باهتمام أكثر. هناك بعض الجدل حول أبي طالب، حيث أنّ وفاته كانت على غير الإسلام، وبالرغم من هذا، فإنه ينال قراءة سورة الفاتحة بناء على روح التسامح المعمول بها. وفي خلال زيارتنا للأضرحة أحاط بنا المتسلّون الذين رفضوا إطلاقنا بعد التعلّق بملابسنا إلى أن نقدناهم ما يرغبون. من الضروريّ أن يقدّم المرء لنفسه بحفنة من عملة معروفة «بالنحاس» وألف منها تساوي دولاراً واحداً.

في طريقنا، التقينا بمجموعة من الهنود واتّفقنا أن نقسم معهم أجرة مطوّف يقودنا بين الأضرحة وأماكن أخرى علينا زيارتها. أحد هؤلاء الهنود كان رجلاً بديناً ضخماً يتزيّ بالزيّ الأوروبي، وأعلمنا أنّه كان نائباً لقنصل بريطانيا في أحد البلاد على الخليج العربي. تحدّث مع عبد الواحد طوال الوقت باللغة الإنكليزية وكان يترجم لي من حين لآخر. إنّ هذا المواطن الهندي يتقن الإنكليزية لدرجة لا يمكن معها تصديق أنّه أجنبيّ إلا من هيئته، وبدا أنّه مثقف وكثير الترحال بين البلاد بما فيها إنكلترا وزنجبار. وسألني إن أجد عدم إتقاني للغة الإنكليزية غير مزعج لي، وكان ردّي أنّي عزمت النية على تعلّم اللغة إنّما تراجع عن ذلك لمعرفتي صعوبة أصول القواعد.

إنّ ذلاقة اللسان تلك كانت في غير محلّها. وأعتقد، وقبل أن نتخلّص منه، أنّه كان قد استنتج خلاصة عن فريقنا لم تكن بعيدة عن الحقيقة. إنّما بعد افتراقنا لم نسمع عنه شيئاً آخر.



محطّتنا التالية كانت مسقط رأس النبي، منزله حيث ولد. شاهدنا غرفة في الطابق السفلي يتوسّطها هيكل معدني صغير معلّق عليه ستائر. جثونا على ركبنا، واحداً تلو

الآخر، واضعين رؤوسنا خلال الفتحة في الستائر لتقريب الموضوع المذكور⁽¹⁾. إنَّ المنزل نفسه حديث البناء، ومعظم الناس يشكّون في صدق نسبته. ولأسباب واضحة، ليست للقصص المروية عن حياة الرسول الأولى المصدّقة ذاتها التي تتسم بها سيرة حياته اللاحقة، حيث أنّها موثقة تاريخياً.

زرنا بعدئذ منزل عليّ، حيث ولد، وكّررنا السلوك ذاته. ومما علمت عنه أنّه ولد في الكعبة، وقد وافق دليلنا على أنّه ما من اتفاق حول هذا الموضوع. وأخيراً مررنا بمنزل الرسول حيث عاش مع زوجته خديجة سنوات عديدة، ومن المفترض أن يكون الموقع حقيقياً، مع أنّ البناء أيضاً حديث. بني المنزل في منخفض من الأرض، لذا كان ضرورياً هبوط درج للوصول إلى المنزل التاريخيّ المكوّن من ثلاث غرف، وفي إحداها صلّينا ركعتين وقرأنا مقطعاً من الكتيّب الذي يحمله الدليل. ولم يكن هناك أيّ شيء ذا قيمة لمشاهدته.

لقد فاتني أن أذكر المسجد ما تحت الأرض المخصّص لصلاة الجنّ الصّالح⁽²⁾ ولا يصحّ فيه أيّ توصيف. إنّ مظهره والشعور العام الذي يضيفه يذكّر بالحفرة السوداء المخيفة في كالكوتا.

والمكان الآخر والوحيد الذي يستحق الزيارة في مكّة هو المسجد المشيّد على قمة جبل أبي قبيس Abbais، إنما وكما قيل لي ليس هناك من شيء لرؤيته، ويحتاج الوصول إليه إلى تسلّق قاس، لذا فلم نذهب إليه. كان هذا اليوم عطلة عامّة احتفالاً بابتداء عمل البرلمان التركيّ. وعند الظهيرة وفي منتصف الليل أُطلقت المدافع تحيّة لهذا الحدث، وكان هناك محاولة للتزيين وبعض الألعاب النارية، وعزفت فرقة بعض الموسيقى على عتبة منزل الشريف حيث تجمهر بعض الناس وأنير المكان بالمشاعل.

(1) كتب المؤلف: يوجد في بيت لحم موضع مشابه.

(2) هو مسجد الجنّ في منطقة الحجون إلى الشمال الشرقي من المسجد الحرام، سميّ بذلك لأنّ الله عزّ وجلّ أوحى إلى الرّسول ﷺ في هذا الموضع بأنّ الجنّ قد استمعوا إليه وآمنوا به. وقد بني المسجد في أوائل القرن الثالث الهجري، وعمارته الحالية مجددة بالطبع.

لم تبدُ مَكَّةَ مهتمةً كثيراً بالدستور، كما الحال في المدينة المنورة ودمشق. ولا يُذكر الحدث بين الناس، وتضجّر معظم من تكلمت معهم بالموضوع. مع أنّ الجريدة المحلية كانت مليئة بمذائح مفرطة عن الحرية الجديدة وما شابه. إنّ الجريدة ابتكار جديد في مَكَّة، تصدر أسبوعياً تحت عنوان «الحجاز»، وتتكوّن من أربع صفحات نصفها باللغة التركية والنصف الآخر باللغة العربية. وإن قرّر رئيس التحرير أن يلتزم بأخبار فعلية، خصوصاً بما يتعلق بالأخبار الخارجية فإنه يضيف عبارة “long-felt want” إنّ أبناء العالم الخارجي تتسرّب ببطء إلى داخل مَكَّة، وعادة ما يتشوّه نصّها خلال انتقالها. وكما هو الحال إنّ التلغراف ضعيف الاستعمال ومعظم أخباره عن الحرية لا تؤخذ على محمل الجدّ، بالإضافة إلى أنباء المخططات العظيمة لتحسين مَكَّة نفسها والتي إن تحققت فإنّها تطمس المعالم الفريدة للمكان.

* * *

واجهتُ بعض المتاعب في صرف نقودي، حيث أنّ الصراف الذي حوّلت للتعامل معه رفض أن يصادق على الحوالة بسبب بعض المشاكل التي حصلت، فأوقف أيّ أعمال مع عبد الله ويردي. فما حصل سابقاً، بعد أن استلم الأخير الإشعار المدين، كتب له مستفسراً وبانتظار الردّ رفض أن يمارس أيّ عمل يتعلق به. لحسن الحظ، وصلت رسالة من عبد الله تحتوي على حوالة قبل أن تنفذ نقودي، كاد الموقف أن يكون محرّجاً. قرّرت بعدها أنّ حمل المال نقداً أقلّ خطراً من الحوالات.

لا تتواجد المصارف في الحجاز ويعود ذلك إلى الاعتقاد بأنّ التعامل مع المصارف محرّم في القرآن الكريم. إنّ هذا الادّعاء غير مبّرر، وحوربت هذه الفكرة من قبل من يملكون المنطق. إنّ الربا في القرآن هو المحرّم، ومن الواضح أنّه لم يكن مقصوداً أن يُطبّق على فوائد المبالغ المودعة للأعمال. من الغريب أنّ أياً باستطاعته أن يفتح مصرفاً بشرط ألا يدفع أية فوائد على الإطلاق! ليس إيداع المال في المصرف ما يُعدّ غير أخلاقي، بل قبض الفائدة منه. والأغرب من ذلك، أنّ أعمال الصرافين المنتشرين بالمئات في مَكَّة والمدينة تتضمّن العمل عينه. إنهم يربحون مالاً عن طريق تبديل

الأوراق المالية بأسعار تختلف عن سعر الصرف. ولذا فعند شراء رويّة بالدولار يتقاضون سنتاً كعمولة، وأعتقد أنّ أعمالهم تدرّ عليهم أرباحاً لا بأس بها.



وصل الكثير من الحملداريّة من العراق، وبعضهم يعرف عبد الواحد وعائلته. إنّ الحملداري Hameldari هو ضرب من عمل الدليل والمتعهد مجتمعين، والذي يكسب قوته عن طريق نقل الحجاج إلى مكّة المكرّمة، مهتماً بكل ما يحتاجونه، من خدم ووسائل نقل وغيره، ويشابه عمله عمل المهتمين بالسفاري في شرق إفريقيا. ويعتمد الكثير من الأغنياء، خصوصاً من غير العرب، هذه الطريقة في أداء الحجّ، وهم من الذين لا يعرفون البلد أو اللغة، وهي طريقة أقلّ نفقة وأكثر راحة للسفر. وسرعان ما تكوّنت لدينا حلقة كبيرة من المعارف من هؤلاء الحملداريين والمجموعات التي يهتمّون بها، فحضرنا عدة دعوات للعشاء، وكانت دعواتنا ناجحة جداً يعود الشكر فيها لطهي جعفر الممتاز. وفي آخر دعوة وأكثرها حماسة تجمّع لدينا ما لا يقل عن اثني عشر ضيفاً.

أحد الضيوف كان الحاجّ ماجد، رئيس الحملداريّين البغداديين، والذي يمارس مهنته على نطاق واسع، ويتعامل مع مئات الحجاج سنوياً. وهناك أيضاً عربيّان من أهل مكّة، وهما صديقان شخصيان لي، وقائد المشاة البغدادي، ومحمّد سعيد، وتاجران عجميان أدخلنا حجر الفيروز الكريم إلى مكّة، وثلاثة حاملداريين آخر، عربيّان من البصرة، وجميع من سبق ذكرهم كانوا من المجموعة التي حضرت مع الحاجّ ماجد.

أعارنا العجميّان اللذان يقطنان في الطابق فوقنا، وبكل كرم خادماً وآنية فخارية للطهي. واستأجرنا خادماً آخر لتلك الأمسية، بالإضافة إلى المزيد من النرجيلات وعدّة أخرى احتجناها. وانهمك عبد الواحد طوال النهار في التحضير للوليمة. اكتمل شمل المجموعة بعد صلاة العشاء، أي حوالي ربيع ساعة بعد الثامنة مساءً⁽¹⁾. ولم

(1) كتب المؤلف: لم يكن التوقيت معتاداً، فمعظم الناس يتناولون طعام العشاء بعد صلاة المغرب.

يستطع عبد الرحمن، للأسف، تلبية الدعوة. جلست وعبد الواحد في آخر الغرفة نستقبل المدعوين، بينما كان مسعودي مسؤولاً عن الإجراءات العملية. عندما يحضر أحدهم يتقدّم لتحيّتنا، ثم يتراجع إلى آخر الغرفة بكلّ تواضع إلى أن يُطلب منه أن ينتقل إلى عمق الغرفة. أعطي الحاجّ ماجد وأحد العجميين، والذي كان من سلالة النبي، صدر المكان إلى يميننا ويسارنا. ومن ثمّ جلس بجانبنا أحد جند المشاة الثانويين ثم أحد أصدقائي المكيين، وباقي المدعوين اختاروا أماكنهم كيفما اتفق. بعد جلوس الجميع، رُشّ عليهم ماء الورد ووزّعت السجائر، بينما كان مفرش مطرّز، مستأجر للمناسبة، يمدّد على الأرض في وسط الغرفة. وأحضرت أطباق الطعام جميعها دفعة واحدة كما هي العادة المتبعة، وصُفّت في دوائر منتظمة. تكوّنت الأطباق من البيلاف، والكباب مع الطماطم، الباذنجان، لحم الدجاج البارد، لحم الحوار المشوي ونوع من الحساء، بالإضافة إلى أربعة أنواع مختلفة من الحلويات، الزلاية وقوالب الكعك المختلفة، وجميع أنواع الفاكهة الموسمية. إنّ البيلاف هو الطبق الرئيس، ويتكوّن من الفراخ المجلّلة بمزيج من الأرز المخبوز، والمكسّرات، واللوز، والزبيب، والتوابل من جميع الأنواع⁽¹⁾. وحُضّرت جميع أنواع المشروبات المثلّجة البعيدة كلّ البعد عن الكحوليات والمتساوية في الرداءة حسب الطلب.

عندما تمّ تحضير كلّ شيء، أعطيت الإشارة وتقدّم الجميع إلى المفرش وبدأنا بالبسملة المعتادة ما قبل تناول الطعام. وكنا بالطبع قد غسلنا أيدينا بماء أحضر لهذا الغرض ما قبل التوجه إلى تناول الطعام. ولا أشك أنّ تناول الطعام بالأصابع يعزى إلى التقاليد القديمة التي لا زالت متّبعة في زنجبار، إنما السبب الرئيس هو أنّني لم استطع أن أحصل على عدد كاف من الشوك والسكاكين للجميع.

أحضرت النرجيلات ما بعد الانتهاء من تناول الطعام، بالإضافة إلى السجائر

(1) كتب المؤلف: يوجد في مكة مصنع صغير للثلج، والمثلجات، أو بالاحرى مزيج مثلج من الحليب المعب، وماء ملتات، وبكتيريا الكوليرا، وتباع منتجاته في الاسواق. أما المشروبات الأخرى فيمكن الحصول عليها إن عرف المرء أين يطلبها.

والقهوة، فدخنا وتحادثنا حوالي الساعة، حين غادر الجمع مرة واحدة، والسبب في مغادرة الجميع مرة واحدة هي إراحة المضيف من توديع ضيوفه فرادى.

إنّ الحاجّ ماجد صديق لشريف مكّة، والذي وعدني أن يعرّفني عليه. إنما للأسف اضطر إن يغادر إلى المدينة في اليوم التالي، موفداً بمهمة سرّية إلى القبائل، ولذا فلم أكن محظوظاً بالتعرف إليه.

سَرَتِ إشاعات متناقضة كثيرة عن الأمور في المدينة المنوّرة. أحدها تدّعي أنّ اتّفاقاً حصل بين المجموعات المتحاربة. في أوائل الشهر الجديد، توجه ما تبقى من قافلة انطلقت قبل ثلاثة أسابيع عائدة إلى مكّة المكرّمة وذلك لأنّها هوجمت ونهبت عند وصولها على مرمى حجر من المدينة المنوّرة. يبدو أنّ البدو اللطفاء الذين يهتمون بالقافلة، انطلقوا مستكشفين أمامها، وتبعهم حوالي نصف القافلة خلافاً للأوامر. أُلقي القبض على هذا النصف، وتمكّن النصف الآخر من النجاة والعودة إلى مكّة. ونتيجة لتدخّل الشريف، تمّ الاتفاق المؤقت على السلام، لكنّي لست قادراً على سرد شروطه، ولا يظنّ أحد أنّه سيدوم طويلاً.

* * *

تسبّب ظهور القمر الجديد بكثير من الانفعال والنزاع. فإنّ رؤي الهلال في المساء الأوّل بعد التغيّر فهو يجعل يوم عرفة يوم جمعة، حيث يُعدّ الحدّ حينها حدث عظيم، وتعادل الحجّة سبعة أضعاف في غيرها من السنين. ليس من المؤكّد إن كان الهلال سيبدو واضحاً في اليوم التالي للقمر الجديد، ولذا فلا يعرف الناس على وجه اليقين تاريخ يوم عرفة، وحتى لا يختار الحجاج سنة حجّهم. في هذه الحالة، تسبّبت هذه المسألة في نقاش واسع النطاق. كان بعض الناس مستعدّين للشهادة بأنّهم رأوا الهلال، بينما ادّعى غيرهم أنّ هذا أمر مستحيل. وأجمع الأمر الوسط على الرأي الأوّل، والذي كان يبدو مسنوداً، وما فتى الشريف أن أعلن هذا الأمر، فسعد الجميع بذلك.

خلال كلّ هذا الوقت توافدت أعداد هائلة من الحجاج إلى المدينة، وازداد اكتظاظ

الشوارع يومياً. منذ أسبوع فقط، كان التنقل في الشوارع صعباً. أما صلاة الجمعة في الحرم فكانت حدثاً يفرض نفسه على الرائي، فلا يوجد يارد مربع واحد من المساحة الكبيرة فارغاً، والحركة المتناغمة للحشد خلال الصلاة، والهدوء الغريب الذي يسود المكان، يحاكي الخيال. ففي خلال السجود، حين تلامس الجباه الأرض، لا تسمع إلا هديل الحمام يقطع السكينة، ثم حين يستوي مئات آلاف المصلين وقوفاً للركعة الثانية، تسمع خفخة الملابس وقعقة الأسلحة في فورة واحدة. وحين تنتهي الصلاة يندفع الجمع لأداء الطواف، وبعد دقائق قليلة يسمع هدير الدوامة البشرية حول الكعبة من مسافة بعيدة عن الحرم.

يطير هنا حمام مثلما ما يوجد في ساحة سان ماركو في فينيسيا، وهو أليف مثله تماماً، وتباع الحبوب في الحرم خصيصاً لإطعامه، إنما يحصل الحمام على الكثير من الطعام، فقليلاً ما تنجح في إطعامه. دوّن بُرتون Burton مقولة أنّ الحمام لا يلوث الكعبة كما هو متوقع، وأعتقد أنّ هذا الكلام حقيقي، بغضّ النظر عن السبب فيه.



في أول يوم من شهر الإحرام، لُفّت عصبة قطنية بيضاء حول غطاء الكعبة الشريفة. وتبقى هذه العصبة في مكانها إلى يوم العيد، حين تُغيّر الكسوة نفسها. وترسل الكسوة الجديدة مع المحمل المصري سنوياً حيث أنّها تخاط في القسطنطينية ويقال إنّها تكلف 3,600 جنيه. تخاط الكسوة من قماش مزيج من الحرير والقطن، باللون الأسود الداكن، وتطرّز بلفظ الجلالة بخيوط من الحرير الأسود على مسافة قدم مربع واحد. أما الكسوة القديمة فإنّها تقصّ إلى قطع صغيرة من أحجام مختلفة، وتباع، ويُستفاد من ثمنها لصيانة المسجد والبرّ والإحسان.

إنّ المسجد في الحرم مميّز حيث أنّه لا يحتوي على علامة للقبلة. بما أنّ الكعبة نفسها هي الوجهة التي يوليها المصلّون وجوههم، فإنّهم يشكّلون حولها حلقات حين الصلاة بدلاً من الصفوف المرصوفة المعتادة في المساجد والمتوجّهة صوب مكّة المكرمة.

من الممكن الدخول إلى الكعبة نفسها في مناسبات معيّنة، وقد نويت أن أفعل هذا. إنما القوانين المتعلقة بالدخول أصبحت مشدّدة أكثر من ذي قبل. وقد أخبرني عبد الرحمن أنّ من يُسمح له بالدخول هو الرجل العاقل طاهر الذيل. وليس من المقبول الدخول إلى الكعبة دون النية لتكريس النفس للعمل الديني وترك ملاذ الدنيا ومتاعها ونبد الشيطان. لم يكن هناك أي شيء داخل الكعبة ما عدا عمود وحيد من الخشب، ولم يحدث أن فُتح باب الكعبة في وجودي، إنما قال مسعودي إنّّه رآها مفتوحة في مناسبتين مختلفتين، في أحدها دخل الشريف وحاكم مكّة إليها وكُنسا داخلها.

* * *

وصل المحمل من مصر في بداية الشهر، ووصل معه وفد كبير من الجنود المصريين. كان من الغريب مشاهدة جنود باللباس الرسمي المعتاد وشرائط الميدانيات. سررت لملاحظة أنّ وصولهم كان متأقماً أكثر من وصول الفرق التركية التي وصلت مع المحمل الشامي. إنّ هذا يترك أثراً إيجابياً للمناهج البريطانية حيث أنّها صنعت جنوداً جيدين من أناس مثل المصريين المعاصرين غير المولعين بالحرب. ولقد أعجب الجميع بتأنقهم وانضباط تدريبهم.

* * *

حان وقت التحضير لأداء مناسك الحجّ. كان علينا أن نفارق مكّة لأربعة أيّام كاملة، وعلينا تحضير مواصلاتنا وزادنا. اتفقنا أن لا حاجة للاقتصاد تحت هذه الظروف، وأنّ العدة التي سنحضّرّها عليها أن تكون على مستوى ما عُرف عني من مركز وثروة. فقرّرنا استئجار ثلاثة أباغر وثلاثة حمير للركوب، وإضافة خادم وخيمة ثانية كبيرة لاستقبال الزوّار. أعطيت عبد الواحد كامل الصلاحيات لمتابعة أمور المؤن، وبالطبع كان عمله باعثاً على الفخر. كنّا قد فقدنا مساعدة إبراهيم حيث أنّه كان يقوم بأداء مناسك الحجّ بالنيابة. باستطاعة المرء أن يقوم بالحجّ بالنيابة عن شخص متوفٍّ، وفي حالات معينة بالنيابة عن شخص لا زال على قيد الحياة. عندما وصل إلى مكّة المكرّمة، قام بالطواف منفرداً، وعلى الحاجّ أن يخرج من المدينة ويُحرّم من نقطة

خارجها. ولذا فإنه يقوم بكل الصلوات والشعائر الدينية باسم الشخص الذي ينوب عنه. ويؤمن الكثير من الطائفة الشيعية بفعالية هذا الأمر.

تتكوّن مناسك الحجّ من الآتي: في يوم معيّن من كل سنة، الثامن من شهر ذي الحجة، يترك كلّ مسلم عاقل صحيح الجسم المدينة قبل حلول الليل ويتوجّه إلى قرية اسمها منى، تبعد خمسة أميال إلى الشمال، ويبّيت فيها ثم يتوجّه في صباح اليوم التالي للوقوف على جبل عرفة ويبعد تسعة أميال أخرى، ويبقى هناك إلى مغيب الشمس، وعند العودة، يبّيت في «نمرة» وهي مكان وسط بين عرفة ومنى. أما في اليوم الثالث فعليه أن يعود إلى منى في الصباح لرمي الجمرات على الشيطان ثلاث مرّات ثم يتوجّه إلى مكّة المكرمة لأداء الطواف والسّعي، ويعود إلى منى للمبيت فيها. أما اليوم الرابع فهو يوم عيد ويُقضى في منى. وفي ظهيرة اليوم الخامس يعود إلى مكّة حيث يرمي الجمرات مرة أخرى.

ويستمرّ الإحرام من أول خروج من مكّة إلى أول عودة إليها، حينئذ ينزع الإحرام ويبدّل بأفضل هندام يستطيعه الحاجّ، ويكون جديداً ما استطاع. وعندما تكتمل تلك الشعائر، يُطلق على المرء لقب «الحاجّ» قبل اسمه أو بعده، ويميّز في حياته بعدئذ برداء الرأس والذي يختلف من بلد إلى آخر. ففي مصر يعتمرون العمامة الخضراء، أما في زنجبار فيرتدون قبعات من القشّ الملون وعمامات تشابه ما يعتمر المطوّف، وهكذا دواليك. ولم أميّز أبداً الوقت المحدّد الذي يطلق فيه على المرء لقب الحاجّ. يعدّ البعض أنّ الوصول إلى عرفات هو الفصل في هذا، والبعض الآخر يؤرخ إطلاق اللقب عند تقبيل الحجر الأسود بعد الانتهاء من الطواف في اليوم الثالث. فالمرضى الذي يزور مكّة في غير موسم الحجّ، أو أيّهم مُنِع من مراسم الحجّ في وقتها بسبب المرض، لا يحصل على هذا اللقب. ولا يعفى سكّان مكّة من الحجّ كلّ سنة. فعليهم أن يقوموا بالرحلة مع باقي الحجاج، ولذلك فإنّ المدينة تبدو كالمهجورة في هذين اليومين.

ليس بالإمكان بحث أصول هذه المراسم في هذا المقام حتى لو كنت قادراً على

ذلك. وسأكتفي بالقول إنّ هناك سبباً لها، وغالباً ما يقال إنّ الأسباب غير مهمة، إنما هذه هي مقولة المشكّكين دائماً في أيّ شعيرة دينية. وينطبق هذا على «العشاء الإلهي» عند المسيحيين وعيد الفصح عند اليهود، فكل ما سبق يقام تكرّماً لأحداث سابقة ولديها مدلولات رمزية. وليس أسهل من التفكّه فيها جميعها.



ما يشغل بال الجميع قبل الحجّ هو المرض، مثل وبائي الطاعون أو الكوليرا. وفي هذا الموسم بالذات كان الخطر مهيمناً أكثر من العادة، قياساً لما حصل في الموسم السابق. يبدو أنّ الوباء بدأ قبل شهر من الخروج من مكّة، واشتدّ أمره تدريجياً، إلى يوم عرفة حين اتخذ المرض صفة الوباء الفعلي. حينئذ أصبح خبيثاً جداً، وحصد في منى وخلال الأسبوع الذي تلا ألفاً يومياً. يواجه الخطر الدوري للأوبئة الفتاكة وحصيلة الوفيات بقوانين صارمة تمنع الناس الخروج إلى مكّة دون وقاية، وبتحسين الظروف الصحية على الفور. إنّ حالة الحجر الصحي الحالية لا تغني ولا تشبع من جوع.

وتعتبر الحالة الصحية هذه السنة جيدة، فالطقس بارد على غير عادة، وعديد الحجّاج ليس بالكبير، أما الحجّاج من الطبقة الفقيرة والذين يخيمون في الهواء الطلق وفي ظروف غير صحية ويكونون مركز العدوى فهم أقلّ من المعتاد. وما عُرف عن الأمراض وقت «التفور» هو لا حالات من الكوليرا أو الطاعون حصلت في مكّة مع أنّ حالتين من الطاعون سُجّلتا في جدّة. وإذا تفشّى الطاعون، مع أنّه قاتل أيضاً، فلا تخشى عاقبته مثل الكوليرا⁽¹⁾ وذلك بسبب بطء انتشاره والحشود الممتلئة في مكّة وهي مركز الخطر، تتفرّق فوراً بعد الحجّ.



توجّه بعض الناس إلى منى باكراً، يوم الثلاثاء، وفي ظهيرة يوم الأربعاء ازدحم الشارع المؤدي إلى منى والقريب من منزلنا بسلسلة متصلة من الجمال توافدت طوال

(1) كتب المؤلف: إذا ظهر الطاعون كوباء، فإنّ نتائجه ستكون وخيمة حقاً.

الليل وصباح اليوم التالي. أغلقت معظم المحلات والأسواق في مساء الأربعاء مع أنّ بعض الحوانيت تابعت أعمالها إلى يوم الخميس، لكن في ظهيرة ذلك اليوم، توقفت جميع أنواع الأعمال في السوق.

قرّرنا أن نؤخر خروجنا قدر المستطاع، أي إلى مساء الخميس. وتمركزنا على سطح المنزل حيث كان بإمكاننا أن نرى الطريق والمشهد الغريب فيه ذلك اليوم. حوالي الساعة الثانية بعد الظهر، مرّ المحمل الشامي، مرافقاً بكتيبة من الجيش وفرقة أخرى، حيث كان الجنود أيضاً مُحَرِّمين. وبعد فترة قليلة مرّ سمو السيد حسين، شريف مكة، على جواد أبيض ووراءه وعلى مسافة تدلّ على الاحترام، عائلته وأصحاب المقام الرفيع، ومن ثم تبعهم حشد من حملة الرّماح على الهجن سريعة العدو الشهيرة، والتي تمتدّ سلاّلتها إلى زمن يماهي أصل الشريف نفسه. حين مرّ الشريف، حيّاه من كان واقفاً على الطريق بسلام خافت، ولاحظتُ أنّه كان مهتماً برّد السلام على الجميع. ومع أنّه لم يكن يرتدي إلا مناشف الإحرام، فما فتى الجلال يلوح على مُحيّاه.

أما المحمل المصري وحاشيته فقد مرّ بعد فترة قصيرة من الزمن على ألحان نشيد «صخور عدن الجرداء» "Barren Rocks of Aden"، وتلته فرق الجيش التركية بألوانها وصوت موسيقاها.



الفصل التاسع

رحلة الحجّ

في حوالي الساعة الخامسة، ارتدينا إحرامنا بعد أن بدأنا بنية الحج. وكانت أمتعتنا وخدمنا قد انطلقت في الصباح، آملين أن نجد كل شيء حاضراً عند وصولنا.

ركبنا الحمير، والتي كانت دواباً حسنة كبيرة الحجم يزيد ارتفاعها عن إحدى عشرة قبضة، وانطلقنا مرافقين مع الحملداري الذي استخدمناه، واسمه جعفر⁽¹⁾، وابنه، والعجم الثلاثة القاطنين فوقنا. كان التقدّم بطيئاً في البداية بسبب ضيق الطريق، إنما بعد مغادرة المدينة، اتسعت الطريق، وتسارعت خطواتنا حتى أنّ حميرنا استطاعت الخبب بعض الوقت. تميل الطريق صعوداً خفيفاً بين هضاب صخرية، وهي مرصوفة في بعض الأماكن إنما تفتقر إلى الاهتمام التام في بعضها الآخر. وصلنا إلى منى بُعيد الظلام، ووجدنا الطاهي، جعفر، منتظراً على الطريق.

اقتدنا إلى خيمنا التي نصبت على مسافة قريبة وفي النطاق الخارجي للمخيّم الرئيس، وليس ببعيد عن المشاعر المتقدمة التي تحدّد مقرّ الشريف. وتناولنا طعام العشاء في رفاهية، ثم استمعنا إلى تلاوة من قائد مجموعة العجم، والذي كان من سلالة الرسول الكريم، وكان مثقفاً جداً. كان من الواجب أن نتوجه إلى جامع منى لصلاة العشاء، إنما قليل من يفعل هذه الأيام حيث من السهل أن يتوه المرء وهو أمر غير محبذ ما بعد هبوط الظلام. خلدنا إلى النوم باكراً مدرّكين أنّ اليوم التالي سيختبر قدرة تحملنا.

(1) كذا يرد الاسم بالحروف اللاتينية في أصل الكتاب: Jaffa، وأظنه محرّفاً عن جعفر فأثبتته كذلك.

حللنا المخيم عند الفجر وأرسلنا الخدم والمتاع قبلنا على الجمال. لم أتوقع أن أجدهم مرة أخرى بعد أن افترقنا، لكن بدا جعفر الحملداري، الذي استلم هذه المسؤولية، واثقاً من سير الأمور على ما يرام. توجهنا إلى منى وانتظرنا ساعتين في أحد المقاهي قبل المتابعة. وأخيراً، انطلقنا حوالي الساعة الثامنة. يغادر المرء القرية على طريق تتجه شرقاً، باتساع حوالي نصف ميل، ما عدا في نقطتين حيث تقطع في ممرّ بين الجبال، وتضيق إلى أن يصبح عرضها مئتي ياردة فقط. بعد المسير حوالي الساعة، توقّفنا عند أحد الأكشاك المنتشرة طوال الطريق لتناول طعام الإفطار.

يتطلّب إعطاء المشهد حقّه من الوصف مهارة لا أمتلكها. وأفضل توصيف يمكن الحصول عليه هو معرفة أنّ نصف مليون يجتازون مسافة تسعة أميال ما بين الشروق والساعة العاشرة من ذلك اليوم، وحوالي نصفهم راكبون مطيّاتهم ويرافق العديد منهم حمار لأمتعتهم. إنّ الهدير المتصاعد من هذا الطابور يضاهي صوت تكسّر أمواج البحر، أما الغبار المتصاعد فهو يغطّي المكان على مسافة أميال. عند مرورنا بالمضيق الثاني بين الجبال، أصبح جبل عرفات في مرمى الرؤية، وكان المشهد أكثر غرابة من غيره. لقد غطّى الناس الهضبة بالسواد ونبت الخيم حولها بتسارع في دائرة ما فتئت تتسع. وكلّما اقتربنا تعالى صوت النداء: «لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ» الذي كنّا نسمعه منذ فترة من الزمن، إلى درجة أنّه غطّى على أيّ صوت آخر. كان من بعد يُسمع كأنه إنذار خطر من قوة ما، وكأنه همهمة زلزال يقترب.

أمّا جبل عرفات فهو هضبة بعلو أربعمئة قدم، هرمية الشكل، تتناثر عليها الصخور الكبيرة. وتنبع من سفحها الينابيع التي تغدّي مكّة بالماء. نُصبت على القمة مصطبة مرصوفة يعلوها بناء حجري متطاوّل. إنّ الأرض ما حول عرفات وعرة وجبلية، خصوصاً إلى الشرق، إنما جبل عرفات نفسه يقف منفرداً في وسط السهل المغطّى بالشجيرات القصيرة، يُنصب المخيم فيه وحول الهضبة، ويمتد لمئات الأميال المربّعة.

وجدنا خيمنا على الفور، ويعود الفضل لمهارة جعفر في الترتيب والدقة في تنفيذ

أو امره. كان الموقع على حافة المخيم، وهو أفضل مكان لأسباب عدّة، وكان الكثير من معارفنا مخيّمين قريباً منا. سيطر المرح على الجميع، ولم يكن هناك بؤادر تجمّع ديني في تصرفات الحشود، بل كان الجو يقترح تجمّعاً لحفلة في الهواء الطلق أكثر من أي شيء آخر.

استرحنا ساعة في ظلّ خيمتنا، ثم تسلّقنا إلى القمة لصلاة ركعتين نافلتين على المصطبة. لقد تجمّع الحجاج كلهم الآن، والمشهد من علو يعطي فكرة عن عددهم الكبير. من الغريب مقارنة هدوء هذه القمة وخلوها من الناس في الأمس وهو ما ستكون عليه غداً وكيف ستبقى خلال السنة القادمة بما هي عليه الآن. وفي الحقيقة سيكون صعباً على أي مجموعة في أي يوم آخر القدوم هنا على طريق موبوءة باللصوص.

* * *

حانت صلاة الظهر عندما كنّا لا زلنا على قمة الجبل. أطلقت تحية عسكرية من ثلاثة وستين مدفعاً، وصدعت موسيقى من عدّة فرق، وصات الحشود إلى أن فقدت صوتها. كانت الفرق العسكرية تضمّ ثلاثة مدافع ذوات الست طلقات، وأسلحة مخصصة للجبال محمولة على البغال.

عند نزولنا من الجبل، لاحظنا بعض الأحواض الكبيرة الممتلئة بماء الينابيع، يستحمّ فيها الناس. عمّت الفوضى كلّ مكان على سفح الهضبة حيث يتجمع الحجاج فقراء الحال، حتى الماء الذي كانوا يستحمّون فيه كان آسناً جداً. ليس من العجب العجائب أن تنتشر الأمراض المعدية في هكذا حالة، إنما من الغريب أنّ وباء الكوليرا، عندما يبدأ انتشاره، لا يحصد الحجاج أجمعين.

نُصبت سوق تبيع ألوان الطعام، بالإضافة إلى خيم المرطبات. تجولنا لبعض الوقت، إنما وجدنا أنّ شمس الظهيرة مرهقة فوق رؤوسنا العارية، فعدنا أدراجنا إلى خيمتنا لتناول طعام الغداء.

* * *

سرت إشاعة خلال النهار، وتأكدت حقيقة في هذا الوقت. يبدو أنّ الطائفة الإمامية كانت مستاءة من حكم الشريف في القمر الجديد، وتوصلت إلى نتيجة أنّ هذا اليوم هو ليس التاسع من الشهر، بل الثامن، ولذا فإنّ إقامة الشعائر في هذا اليوم باطلة. ولذا قررت الطائفة الإمامية أن تبني على عرفات وتنتظر على الجبل إلى مغيب اليوم التالي.

كان من الصعب تصديق أنّ رجالاً مثقفين واعين، مثل العجم الإمامية الذين تعرّفنا عليهم، يذعنون لأمر مثل هذا بكل تشدد. إنّ العقل العجمي صعب دائماً في كشف كنهه. ومع أنّهم أكثر تحضراً في أمور كثيرة، فهم أكثر تعصباً وأقلّ منطقاً من غيرهم في معتقداتهم الديني. أحد أحبّ ممارساتهم هي الحسينيات حيث يرون موت الحسين، ويقرأونها أو يردّدها كبارهم بينما يجلس الباقون حولهم وهم ينوحون بحزن. ولكل مقطع بكاءه الخاص، فعند سماع أحد المقاطع، عليك أن تنشق، وبعد قليل تجهش بالبكاء وهكذا. ولم يحاول أحد أن يدافع عن مقتل الحسين الذي هو بالفعل قصّة مأساوية، إنما تعدّ الطوائف الأخرى في الإسلام هذه الممارسات شيئاً غير مستحبّ. ولدى بعض الفرق الإمامية ممارسات خاصة في شهر محرم: فهم من جملة أمور أخرى، يضربون أنفسهم ضرباً مبرحاً ويشقّون رؤوسهم بالسكاكين، ويقومون بأشياء أخرى كثيرة.

إنّ ضعف الإسلام سياسياً يرجع إلى الخلاف القائم حول موت هؤلاء الرجال ودفنهم منذ أكثر من ألف سنة مضت. وما هو منافٍ للعقل، لا بدّ من القول إنّ المسيحية اليوم منقسمة انقساماً شديداً حول مسائل من نوع تثبيت مركز البابا وعصمته، وهو موضوع يستجّر نفس الموقف من المسلمين.

نتيجة للقرار المتخذ من قبل مشايخ الإمامية، بقي حجّاجهم، الذين يقاربون ربع الحجيج المتواجد هذه السنة، في مكانهم بينما رجع الباقون إلى نمره. نصبت الخيم وحملت الجمال في وقت قصير، إنما لن يغادر أحد حتى مغيب الشمس التام. وأخيراً، عندما أعطى الشريف إشارة الرحيل، أطلقت تحية من المدافع، وفي دقائق

قليلة تدقق الجميع في السهل وتجمّعوا على أول ممرّ علينا اختراقه. كان هناك جمهور هائل محتشد في الأجزاء الضيقة مع تهديد بفقد الحياة أو تكسير أطراف، إنما نجحنا في البقاء معاً والنجاة من الأخطار. وصلنا إلى فسحة أمام مسجد نمرة بعد رحلة دامت ساعتين حيث حططنا الرحال إنما لم نصب الخيام. ولم يجتمع شمل الحجاج عند منتصف الليل، ولو لم نكن جدّ متعبين لكان الضجيج والغبار معنا عنا النوم منعاً باتاً.

* * *

توجّهنا إلى منى قبل شروق الشمس ووصلنا حوالي الساعة السابعة والنصف، وكنا محظوظين في تأمين مكان مناسب لخيمنا غير بعيد من خيمة الشريف ومقر الجيش. أول الشعائر التي علينا قضاؤها كانت رمي الجمرة الكبرى، حيث جمع جعفر ومسعودي الحصى في الليلة السابقة من نمرة، ثلاثة وستون حصاة للشخص الواحد. إنّ الرمي يكون على ثلاث مراحل: الأكبر والأصغر والأوسط، في مواقع كانت بها ثلاثة أصنام دمّرت على يد الرسول. إنّ شعيرة رجم الشيطان هذه ترمز إلى إنكار الأوثان والتبرؤ منها. وأعتقد أنّها بدأت بعد أن واجه الرسول صعوبة في اجتثاث الاعتقاد بالخرافات بشكل تام. ومع أنّ الناس قد صباؤا عن آلهتهم، فما زال بعض الخوف منهم يملكهم ولم يكونوا مستعدين تماماً أن لا يظهروا بعض الاحترام لهم. ولذا فإن الرسول حمل أتباعه على رمي الجمرات على رموز الجاهلية ليقتنعهم ببطلان هذه المخاوف.

إنّ الموقعين الأولين للشيطان في الشارع الرئيس في منى، أما الثالث فهو يبعد قليلاً إلى جهة اليمين على الشارع المؤدي إلى مكة. تتكوّن المواقع هذه من عواميد من الحجر تنتصب في حوض مثل حوض نافورة الماء. وحين وصلنا لناخذ دورنا كانت المواقع محاطة بحشود متراحمة ترتفع منها أيد ملوّحة وتغطّي بسحابة من الحصى. وقد مرّ وقت طويل قبل أن نتمكّن من أن نكون في مجال الرماية، وفي النهاية اضطررنا أن نرمي من مسافة بعيدة وبقوّة وكانت النتيجة أنّ معظم ما رميت لم يصل هدفه. ليس هناك من ضرورة أن تصل الحصيات إلى هدفها، إنما إن لم تصل، فلا بدّ أن تصيب

أحدهم. والمتحمّسون الذين يقتربون كثيراً في الصفوف الأمامية كثيراً ما يعانون وقتاً عصيباً، أحدهم كان قريباً مني شقّ خدّه وأصيب مسعودي بجرح في أذنه.

كان الزحام شديداً لدرجة أننا احتجنا إلى أكثر من ساعة لنصل إلى موقع رمي الجمرات، ولم نعد إلى خيمتنا إلا عند الظهيرة. أخذنا قسطاً من الراحة وتناولنا طعام الإفطار قبل أن نخرج ثانية للنضحي. على كل حالّ أن يذبح أضحية في هذا اليوم، وعادة ما تكون خروفاً أو ماعزاً. ولا حرج في أكل لحوم الأضاحي أو توزيعها على الفقراء. عندما بيّن الرسول هذه القاعدة لم يكن ليُعرف الأبعاد التي سيصل إليها الحجّ، حيث أنّه في هذه الأيام تُذبح أعداد هائلة من الحيوانات دون فائدة. كانت الذبائح تترك للتعفن في مكانها من قبل، والنتيجة أن تصبح منى غير صالحة للسكن لبعض الوقت. إنما في السنين السابقة، حُضرت حفرة كبيرة لاستقبال الذبائح في آخر النهار.

ومن جرّاء وباء الكوليرا في العام الفائت اتُخذت تدابير وقائية غير اعتيادية لهذه المناسبة. فقد جُمعت الحيوانات في بقعة معينة تبعد حوالي ربع ميل من خيمتنا. على صاحب الذبيحة أن يتصرّف فيها فوراً وإلا رميت في إحدى الحفر، ولا يُسمح لأيّ كان أن يخرج حيواناً حياً من المكان. اتُّبع هذا الأمر لمنع الذبح في المخيم لما فيه من مخاطر على الصحة. وجُعِل عدة حراس في نقاط مختلفة لفرض هذا النظام الممتاز مع أنّه كان مزعجاً.

أردنا تناول بعض اللحوم، وكان من السهل أن تسوق حيواناً على قدميه من أن تحمله ميتاً مسافة ربع ميل. وقع نظري وابن الحملداري جعفر على خروف سمين جداً وقرّرنا أن نأخذه معنا، وبما أننا لا ننوي أن نحمله فقد رشونا أحد الحراس ليتغاضى عن مروره. إنما لسوء الحظ، وفي طريق العودة لفتنا نظر أحد الأطباء المسؤولين عن الترتيبات الصحية، فهرع إلينا على ظهر جواده، وأسأنا بالكلام وأجبرنا أن نرجعه من حيث أتى، ووعدنا أن يذيقنا طعم لسع السوط إن عدنا إلى هذا ثانية، وأعترف أنّ براقش جنت على نفسها. وبالطبع، اضطررنا أن نرسل الخدم لإحضار بعض اللحم.

تكلف الشاة دولاراً واحداً وما فوق، وتباع من قبل الرعاة البدو القادمين من المناطق

المحيطة والذين يريدون الاستفادة من الموسم، حيث يضخى بنصف مليون من الشياه على الأقل كل سنة في هذا اليوم.

ثمة حادثة شهدتها جعفر في العام الفائت هنا توضّح حالة انعدام الاستقرار في هذا البلد. لقد أحضر تركي شاة، وحين كان يدفع ثمنها، أظهر حزاماً متخماً بالنقود، فانتزع البدوي الحزام منه على فجاءة، والتقط حافته وحاول تحريره من صاحبه. تمسك التركي بقوة بالحزام إنما شهر عليه البدوي خنجراً وشقّ بطنه طولاً بضربة واحدة وأخذ الحزام واختفى بين الناس. حصلت هذه الحادثة في مخيم من نصف مليون من الناس، وبوجود حرس وخفر في الأنحاء! أطلق بعض الناس النار على المجرم، إنما أخطأوه واصابوا من غيره مقتلاً، وبالطبع لم يكن أحد يفكر باللحاق به في الزحام.

* * *

انتهى عملنا في منى عند إنتهائنا من ذبح الأضحية ومن غير الضروري أن نقوم بالذبح بأنفسنا، وأصبح باستطاعتنا التوجه عائدين إلى مكة. أحضرت حميرنا وانطلقنا ظهراً مباشرة بعد الصلاة. وبالطبع كانت الطريق مكتظة واضطرونا إلى أن نسير ببطء شديد في النصف ساعة الأولى.

كان مظهر المدينة غريباً حقاً: كل شيء كان مغلقاً، أقفلت الحوانيت والبيوت بالمزلاج، إنما كانت الشوارع مزدحمة بالناس. وصلنا إلى الحرم مغبرّين ونشعر بالحرّ الشديد، اتفقنا مع مطوّف وأدّينا طواف الوداع ثلاثتنا. وكانت لدينا صعوبة في تقبيل الحجر الأسود، حيث أنّ الكعبة قد ارتدت رداءها الجديد ولم يترك حول الحجر إلا فجوة صغيرة تتسع لرأس واحد. تجمّع حول الحجر مجموعة من العرب البدو الذين شققنا طريقاً لنا من بينهم، إنما لم يكن عبد الواحد مستعداً أن يكسر ضلعاً في هذه المغامرة فبقي بعيداً. ذكرني الموقف برياضة كرة القدم الإنكليزية في ونشستر. أخيراً، تمكنت من إدخال رأسي وقبّلت الحجر، إنما العنف في ذلك ترك ندبة في رأسي وحرمني من بعض الجلد في مناطق مختلفة من جسدي، وخسرت غطاء كفي. كنت أكثر حظاً من بعضهم، حيث فقد قطعتي الإحرام وخرج عارياً تماماً مثيراً ضحك من حوله.

استردّ مسعودي ثوبي ثم توجّهنا لأداء السّعي بين الصّفا والمروة. هذا السّعي هو تكرار لما قمنا به عند وصولنا، إنّما سنحتاج إلى وقت أكثر لقضائه بسبب الزحام، حيث لم نستطع في بعض الأحيان أن نتقدم خطوة. اختلطت الأصوات بعضها ببعض، فمنهم من يتلو دعاءً، ومنهم من يطلق التوجيهات للبقاء معاً، ونسوة يعترضن على مدافعتهنّ في الزحام، ورجال يتمتمون، : «اللهم إنّك تعلم - ما لم نعلم - على مهلك يا أخي! - لا حول ولا قوّة إلا بالله! - إهدنا الصراط المستقيم» وهكذا. تبعنا أحدهم، وهو هندي، يبدو أنّه أضاع مطوّفه، فبقي وراءنا فترة من الزمن يثغو كأنه شاة ضائعة: «اللهم، احشرنني مع الأشرار». وبالطبع كان يقصد بقوله العكس تماماً (مع الأخيار).

بعد إتمامنا السّعي السابع أخذنا إلى شيخ كبير في السن يحمل بيده شفرة، وبعد أن سأل عن إسمي وطائفتي حلق إنشأ مربعاً من شعري فوق هامتي، مرتلاً دعاءً كان عليّ أن أردّده وراءه. كان الدعاء لنهاية حالة الإحرام والعودة إلى الحالة المدنية المعتادة. وبعد أن انتهى منّي، أعاد العمل عينه مع مسعودي. وعدنا أدراجنا إلى المنزل مشياً على الأقدام بعد أن نقدناه والمطوّف على خدماتهما، حيث كانت الحمير قد غادرت لتناول طعامها.

* * *

كنا أول العائدين إلى المنزل، فجيرانا العجم ما زالوا على عرفات، ولم يكن في المنزل إلا عبد أسود مسؤول في غياب أصحابه. واجهنا صعوبة في الحصول على الماء اللازم للاستحمام الذي كنّا نحلم به، فالأنابيب كانت مسدودة. لذا اضطررنا أخيراً أن ندفع روية واحدة للحصول على جرابين من الماء. تنفّست الصعداء عندما خلعت ملابس الإحرام، والتي من الممكن استعمالها كمناشف، مع أنّ بعض الناس يفضلون أن يحتفظوا بها كذكرى لهذه المناسبة العظيمة، فيغسلونها بماء من البئر المطهر. لا ريب أنّ هذا الزيّ غير مريح أبداً، وإذا كان المغزى منه هو المعاناة، فإنه يخدم هدفه بالتأكيد. كان ظهري محروقاً من التعرّض للشمس وكذلك رأسي.

علينا الآن أن نرتدي أفضل ملابسنا، وقد حُضرت لنا بذلات جديدة للمناسبة تبعاً

للعادة. يعود هذا إكراماً للعيد من ناحية، ومن ناحية أخرى للاعتقاد بأن الحاج الجديد لا بد وأن يبدأ حياته بثوب نقي، حيث أنه قد عُفِر له ما تقدّم من ذنبه، والثوب النقي يرمز إلى حالته الروحانية الجديدة. إن أداء الحج لهو مناسبة جيّدة لتغيير العادات القديمة والبدء من جديد.

ارتديت ثوباً أبيض اللون، وجبّة سوداء، وحزاماً ذهبياً مزيّناً بخنجر، أما مسعودي فقد ارتدى زيّاً مناسباً من زنجبار ويدعى كانزو Kanzu، مكون من معطف عسكري (قديم الطراز بالطبع، حيث أنني كنت قد دفعت فيه عشرة جنيهات من سنين خلت) بالإضافة إلى ثوب مطرّز بالذهب خاص بمسقط والبلاد التي كانت تتبع إليها ويسمى joho. أما عبد الواحد فقد بدا صفراوياً بقفطان أصفر اللون اشتراه من دمشق.



عادت الحمير إلى المنزل، فتوجهنا إلى منى قبيل مغيب الشمس. ولم نكد نبتعد كثيراً حتى وقع مسعودي مغتبراً أناقة مظهره، وفوراً تبعه عبد الواحد في السقوط وكانت سقطته السابعة في ثلاثة أيام. كانت الحمير مرهقة للغاية تجرّ أقدامها جرّاً. وعندما أسرعنا الخطو كان دوري في السقوط. إنّ الحمير هنا لا تُسرج ولا يوضع لها ركاب، إنما تربط كومة من قطع القماش، عادة ما تكون مطرّزة بألوان زاهية، على ظهرها، وهي أكثر راحة من السرج، إنما ليس بالسهل التشبّث بها خصوصاً عندما يكون الركوب على جانب واحد حفاظاً على الزيّ.

وصلنا إلى منى مع تحية المدافع معلنة صلاة العشاء. تطلق إحدى وعشرون طلقة من كل فرقة على أوقات الصلوات الخمس كل يوم خلال أيام العيد. وبما أننا كنّا متعبين جداً، فقد توجهنا إلى النوم مباشرة بعد تناول طعام العشاء.

كبيرة هي خيمتنا، بقطر خمسة عشرة قدماً، ونام ثلاثتنا بنفس الطريقة: رؤوسنا إلى الحلقة الخارجية، وأقدامنا متوجّهة إلى الوسط. جمعنا ما نحمل من أمتعة واغراض متفرّقة في وسط الخيمة، وأهمها كان كيساً بتيّ اللون فيه حوالي خمسة جنيهات من

الذهب، ومصحف جميل الصنع اشتريته بثلاثين شلناً قبل خروجنا بيومين، ومسبحة من الكهرمان، بالإضافة إلى مسدسين احتياطيين. ويبدو أننا استغرقتنا في نوم عميق، حيث أن مسعودي، الذي استفاق أولاً، لم يجد الكيس في مكانه، بالإضافة إلى أشياء أخرى مفقودة منها عمامته الجميلة الجديدة. دلت الآثار على الرمال والفجوة في جانب الخيمة على كيفية دخول اللص إلينا. أسقط في يدنا، فلم يكن بمقدورنا أن نفعل أي شيء، إنما هذه الحادثة تثبت جرأة اللصوص. فالدخول إلى خيمة فيها ثلاثة رجال مسلّحين نائمين في مخيم جيّد الحراسة وتجريدتهم من ممتلكاتهم يُعدّ عملاً ذا جرأة لا متناهية. وبالحقيقة، كنّا محظوظين، فلو تحرّك أحدنا بينما كان اللص داخل الخيمة، فإن طعنة خنجر ستطيل نومه إلى يوم القيامة. وهذا هو السبب في عدم تحرّك النائم الذي يعيش في أماكن مماثلة عند استيقاظه حتى يستعيد وعيه تماماً. وليس من الآمن أن تمسّ عربياً من الصحراء تريد إيقاظه. وبالطبع، لو كنّا ذوي حظّ لكشف السارق في حينه، ولكان أردي قتيلاً بطلقات نارية. لقد حُدّرنا عدة مرات من هذه الأخطار، ولم ننم أبداً بغير أسلحة جاهزة للاستعمال قريبة منا.

في طريق إيابنا، مررنا بمجموعة من تسعة عشر لصاً مقيدين بعضهم بالآخر ومتجهين إلى مكّة. أعدم ستة منهم رمياً بالرصاص، وقطعت أيدي الباقين. تعتبر هذه الطريقة بربرية عند الأوروبيين إنما يصادق عليها من يتبع المنطق في هذه البلاد. فلا بد من إجراءات عنيفة عند التعامل مع آفات خطرة.

كان فقدان الكيس مزعجاً جداً، حيث لم يكن باستطاعتي أن أعوّض ما كان فيه. كانت تلك السبحة التاسعة عشرة التي فقدت في هذه الرحلة. وكان تقصيراً مني تركها مرمية أينما كان، وأصبح الأمر محطّ كلام لمسعودي.

* * *

كان يوم الأحد يوم العيد. ارتدى الجميع أفضل ما عندهم، واكتسى المخيم بأبهى المظاهر. توجهنا في الصباح لنشهد تقديم الهدايا للشريف. كان مخيمه على مصطبة مرتفعة، ويشتمل على أربع خيام كبيرة وعدّة خيام صغيرة. اصطفّ الحرس

صفاً واحداً مكوّناً ممرّاً يمنع تدافع الحشود. وتجوّلت الفرق الموسيقية في المكان المفتوح بين صفّي الحرس. وصل الأعيان واحداً تلو الآخر مع مرافقيهم، واستقبلهم الشريف جلوساً على منصة في صدر أكبر الخيم. تكوّن القادمون من وفود من البلاد الإسلامية، وحاكم مَكّة، وبعض الملوك المسلمين من الهند وغيرها، وغيرهم من مرموقي المناصب. عندما اجتمع الجميع وجلسوا، وصل موفد تركي مع هدية من السلطان محمولة على طبق من ذهب. ليس باستطاعتي معرفة ما كانت الهدية، حيث غُطيت بقطعة من القماش، إنما قيل لي إنّ العادة المتّبعة أن تكون بضعة آلاف نقداً. قام الشريف إلى حافة المنصة لاستقبال زائره ثم رافقه إلى مجلسه.

حينما انتهت المراسيم ورحل الموفد التركي، تقدّم أشرف مَكّة والحجاج من بلاد أخرى لتحية الشريف. في الحقيقة كانت هناك ترتيبات جيّدة لاستقبال من يؤدّ السلام عليه. توجه مسعودي إلى منصة الاستقبال إنما أحجمت أنا أن اذهب خوفاً من أسئلة عن شخصي تخرجني.

إنّ الشريف، السيّد حسين، رجل محبوب. لقد استلم منصبه منذ مدة قصيرة خلفاً لأخيه الذي استغنت الحكومة التركية عن خدماته. ومما شهدته، أعتقد أنّه يستحق التقدير الذي هو عليه. فهو جمع بين مهابة مركزه، وتقالييد الرسول القديمة كما الخلفاء الراشدين الذين كانوا منفتحين على الجميع مطبّقين نظرية الإخاء والمساواة التي علّمها القرآن. إنّ الشرفاء الذين سبقوا السيّد حسين لم يكونوا يسمحوا لأحد أن يجلس في حضرتهم، وكانوا ميالين إلى أن يعاملوا من هم أدنى منهم رتبة كأنّهم سَقَط.

كنا نجلس في خيمتنا ندخّن ونستمع إلى رواية مسعودي عن استقبال الشريف، عندما هبطت علينا مصيبة. كان جانب الخيمة مفتوحاً في حرّ النهار كالعادة، وكنا جالسين القرفصاء على الحصيرة. سمعت شهقة تعجّب من مسعودي ورأيت متسماً يحملك ما فوق كتفي. استدرت لأرى سبب تصرّفه، فرأيت على بعد بضعة أقدام منا ثلاثة رجال من موباسا السواحليّة هم الذين صادفناهم في المدينة المنورة، ومعهم

كبيي ورجل آخر لا أعرفه. كان من المستحيل أن يخطئوا رؤية مسعودي، وإن فعلوا فسيدخلون الخيمة لتحيتته، حينها سيتعرف عليّ احدهم بكل تأكيد. أما الهروب فهو مستحيل، كنت على ثقة أنّ النهاية قد حانت. إنما كانت الشمس تبهر أبصارهم فلم يروا شيئاً، وبعد لحظة صمت تابعوا مسيرهم. وعندما أداروا ظهورهم لنا أسرع كلانا وخرجنا من الخيمة واختلطنا بالجمع.

كنت على علم بوصول هؤلاء، فقد تحقّق مسعودي من وصولهم مع المحمل الشامي. وفي هذا الحشد، هنا في منى، كانت فرصة الالتقاء بهم نادرة جداً، فلم آتخذ التدابير اللازمة لتجنّب رؤيتي مع مسعودي. لا أستطيع التكهّن بما قد يحصل إن رأوني. لم تكن نفودنا قد نفذت بعد، ولا أظنّ ثمة صعوبة في إيجاد وسيلة ما لشراء صمتهم، على كل حال لدينا كافة الأسباب لتكون شاكرين أنّ الحاجة لهذه الوسيلة لم تأت.

* * *

بالرغم أنّي لم أتعرف على الشريف شخصياً، فقد حصلت على دعوة منه لنفسي ومن يرافقني للانضمام إلى أتباعه في الصلاة. إنّ الدعوة هذه تُقدّم إلى عدد كبير من عليّة القوم من الحجاج، وربما ندين بها إلى بعض أصدقائنا من أهل مكّة أو حتى إلى الحملداري.

خلال فترة بعد الظهر، استقبلنا بعض الزوار الذين قدّموا التهاني بما يشبه تهاني العيد المجيد، ولتهنئة الحاجّ علي والحاجّ مسعودي على أداء فريضة الحجّ بنجاح. كان الموضوع الرئيس للمحادثة لون العلم المرفرف فوق مبنى الحجر الصحي. فالعلم الأحمر يعني أنّ كل شيء على ما يرام، أما إذا تغير إلى الأصفر فهو يعني تفشي داء الكوليرا أو الطاعون. وهذا يؤثر على الجميع بنفس الطريقة عدا عن خطر المرض نفسه، فعلى الكل أن يخضع لقوانين حجر صحية مزعجة عند الرحيل. أما إذا كان الحاجّ «نظيفاً» فإن هذه القوانين تلين كثيراً.

* * *

سرنا في المساء إلى القرية ورمينا الجمرات مرة أخرى. وصادفنا الشريف ومجموعته عائداً بعد الانتهاء من هذه الشعيرة. كان الجميع مرتدياً أبهى الحلل، فالشريف وبقية العرب ارتدوا الأثواب المطرزة بالذهب، والأتراك في بزّتهم العسكرية، والباقون في الزي الشعبي لبلده.

إنّ مجموعة البدو الهجّانة الذين يرافقون الشريف دائماً، رجال لا بأس بهم. أما الهجن فهي من نوع معروف بسرعتها وجمالها وتختلف في مظهرها عن الجمل العادي كما يختلف الجواد الذي يفوز بالسباق عن الحصان الذي يجرّ العربات. إنّها تحمل البريد من مكّة إلى جدة في حوالي ثلاث ساعات. إنه لمنظر جميل أن ترى محارباً عربياً على جملة، مدججاً، مع أني لا أعرف كيف يمكنه أن يلتزم مكانه عندما تعدو الجمال بسرعة فائقة.

استفسرت إن كان ممكناً ابتياع أحد هذه الجمال، وقيل لي إنّهُ ممكن إنما مع بعض الصعوبة، وإنّ ثمن هجين صغير (قاعود) من أجود الأنواع قد يصل إلى مئة وخمسين جنيهاً. مع أنّ جمل الركوب من أفضل الأنواع قد يصل ثمنه إلى خمسين جنيهاً.

بعد رمي الجمرات الأخير، زرنا مسجد منى الذي لم يكن مثيراً للاهتمام. كانت ساحته مزدحمة بالفقراء المخيّمين هناك، وكانت معكّرة جداً. في العام الفائت كانت الساحة مليئة بالمرضى والأموات، وكانت مركزاً حاضراً للعدوى. من الغريب أن يسمح للناس أن يلوثوا مكاناً بالطريقة المقززة التي يقومون بها. وتكاثرت الشكاوى عن هذا الموضوع في الأعوام السابقة إنما ما من إجراءات اتّخذت.

أطلقت الألعاب النارية في المساء، ولفتت النظر بكميتها لا بنوعيتها، وعلا الغناء والموسيقى إلى ساعة متأخرة من الليل.



كان اليوم التالي يوم الإفاضة إلى مكّة، إنما لا يغادر أحد إلا بعد صلاة الظهر. وعندما أطلقت تسعون طلقة من المدفعية معلنة دخول وقت الصلاة تدافع الجميع

للرحيل. اكتظت شوارع منى الضيقة وكان المرور صعباً، وأصيب الكثير من التدافع. انطلق ثلاثتنا على الحمير مع بعضنا، إنما سرعان ما تفرقنا. نجا عبد الواحد بصعوبة بعد أن وقع حماره، ورمي هو تحت أقدام جمل مرّ من فوقه، وكان محظوظاً أنّه لم يدسه. كان علينا أن نرمي الجمرات مرة أخرى، إنما تحت ظروف أصعب وأخطر من قبل. تركنا منى قبل الواحدة بربع ساعة، إنما لم نصل إلى منزلنا إلا عند الخامسة بعد الظهر تقريباً. كان عبد الواحد الأوّل في الوصول وآخرنا مسعودي الذي وقع وفقد حماره في المعمة. كنت أكثر حظاً من كليهما، حيث أنني وصلت دون أيّ خدوش. ولم تصل جمالنا إلا بعد هبوط الليل، وكنا محظوظين أنّها وصلت، بالمقارنة مع حالة الطريق.

إنّ السبب لهذه المخاطر يعود إلى أنّ وجوب خروج الحجاج من منى بعد صلاة الظهر وقبل المغيب. كان هذا معقولاً عندما كان عديدهم بضعة آلاف، إنما التقيد بهذه القاعدة الآن أصبح محالاً. يصاب كل سنة الكثير من الناس دون أسباب. وينطبق هذا على كثير من الشعائر الأخرى مثل الأضحية التي تضيع هدرًا في اليوم الثالث. إن دُفع مال الأضاحي نقدًا لجهة برّ وإحسان أو صُرف في أعمال أخرى لكان أفضل بكثير، وإن كان على الحيوانات تلك ان تذبح، فلها أن توزع على مدار السنة وتكفي لإطعام كل فقراء جزيرة العرب. ومن الواضح أن الرسول لم يكن ليقصد من تبيانه للأمر أن تكون الأضحية هي الخطر العام على الناس كما هو الحال عليه الآن، وعلى الأرجح أن ما قصده منها كان تأمين الطعام للجميع يوم العيد.



يختتم الحجّ بالإفاضة إلى مكّة، وسأمرّ على الوقت الذي قضيناه هناك مرور الكرام. كنت مستاءً لمعرفتي أنّنا لن نستطيع المغادرة كما خططنا، أو حتى في اليوم التالي. وكان السبب أنّ معظم الفرق العسكرية التي تحمي الحصون على الطريق إلى جدّة طُلبت إلى مكّة لأسبوع كامل، وتُعدّ الطريق دون حراسة غير آمنة. كنت مصممًا على المجازفة والخروج على طريق دون حراسة، إنما كانت الأوامر صارمة في منع

أحد من ترك المدينة حتى إشعار آخر، وأكّد لي أننا سنُمنع من السفر ونُجبر أن نعود أدرأجنا إن حاولنا. كان هذا إجراءً جيداً حيث أن الخطر لم يكن وهمياً بأي حال من الأحوال، ولدى الحكومة كل الحق في اتّخاذ التدابير التي تراها مناسبة للحفاظ على أمن الحجاج الذين يعتمدون عليها في ذلك، إنما ما فتئت هذه التدابير مزعجة.

لم يكن هناك أيّ شيء نفعله، فقد رأينا كلّ ما كان هناك للرؤية ولديّ أسباب جيّدة حتى لا أحتدّ التأخير. وما زاد الأمور تعقيداً أنّ الحاكم قرر أن عدم تفشّي أيّ أمراض في المدينة سبب لإعطاء رجاله الذين كدّوا في العمل يومين من الراحة قبل متابعة أعمالهم. فلو تفشّت الكوليرا، لكانت رغبت السلطات في التخلص من وجود الحجاج بأسرع الطرق، ولم يكن هناك حاجة لتلك السرعة هذه السنة.

وكانت النتيجة أن نتأخر بالرحيل ستة أيام كاملة، والتي لم تكن سيئة إجمالاً، ففي الحقيقة، عدا عن رغبتني العارمة في ترك المكان، كان عليّ أن أتمتع بالبقاء. لقد أصبح لدينا عدة أصدقاء ولم أعد أشعر أنّي غريب أو أنّه عليّ أن أتصرّف بشكل رسمي كما كنت من قبل. ابتعت تذكّاراً أو اثنين بما تبقى من مالي الذي ينفد سريعاً، من بينها سجادة جميلة الصنع جلبت من بغداد من قبل أحد الحملداريين. في الحقيقة حصلت عليها كهدية إنما من النوع الذي يُقبل وعلى صاحبها رد الهدية بالمقابل بنفس الثمن أو بأثمنه.

صُعقت عندما عرفت تكلفة رحلة الحجّ الإجمالية. فبعد دفع تكلفة الحمير، والجمال، والخيام، والخدم، وما دفعت للحملداري مقابل خدماته القيمة، وعدة مصاريف أخرى تتعلق بالحج، كانت الفاتورة كبيرة. عندما سدّدت كلّ ما عليّ، تبقى معي عشرون جنيهاً فقط عليّ أن أدفعها أجرة طريق العودة إلى جدّة ومن ثمّ كلّ إلى بلده. أنفق مسعودي مدّخراته القليلة على الصدقة، أما عبد الواحد فقد أنفق ماله جميعه منذ فترة حين ابتاع هدايا لأصدقائه في ألمانيا، ولم يكن باستطاعتي أن أعتمد عليهم في مساعدة مالية. كان باستطاعتي أن أستدين المال اللازم، إنما فضّلت أن أجمع المال في جدّة، ووجود كيبّي معنا كان نفقة إضافية، إنما كنت مصمّماً على الوفاء إذ وعدته بذلك.

الحادثة الوحيدة التي تُذكر في هذه الفترة هي إلقاء القبض مجموعة الحملداريين الآتين من بغداد وإيداعهم السّجن. لم أعرف السبب لذلك، إنما أظن أنّه حول مخالفة قانون الحكومة بالنسبة لاستئجار الجمال من البدو. ثم أطلق سراحهم جميعاً قبل مغادرتنا. كان هناك عدد لا بأس به من الحجاج متوجّها إلى المدينة المنورة، من بينهم معظم العجم الذين أرجأوا زيارتهم للمدينة لما بعد الحج. لا أشك أن صديقنا حمزة استفاد من وجودهم هناك. وبما أنّنا قد قمنا بزيارتنا مسبقاً، فقد كثرت استشارتنا عن أفضل المنازل وأمور أخرى، وكان من دواعي سرورنا أن ننصح بمنزل إيمان.



أخيراً، في مساء يوم الجمعة، أعلن المنادي أن من يود التوجّه إلى جدّة باستطاعته أن يفعل في أي وقت شاء. كنّا قد أنهينا إجراءات السفر ولذا كان ممكناً أن نساfer في فجر اليوم التالي. ولأسباب عدّة، قرّرت أن أسافر مع عبد الواحد راكبين الحمير، وأدع مسعودي وكبيي يصلون مع الأمتعة على الجمال الثلاثة. أعلم أنّ عدد الأيّام أصبح مهماً الآن بالنسبة لموعدي بلقاء أخي في مصر، وأملت إن كنت في عداد أول الواصلين أن أكون مستعداً للصعود إلى السفينة حين وصول مسعودي.

أبلغ كبيي أن يكون مستعداً منذ عدة أيّام، وأحضره مسعودي إلى المنزل تلك الليلة. لم يتعرّف علي مباشرة، إنما في النهاية عرفني عندما كنّا في جدّة. استخدمنا أحد أصحاب جعفر العرب لمرافقة مسعودي، الذي كان مفتقراً إلى المال، فدفعنا له دولاراً واحداً وأعطيناه جملاً للركوب. استحسنت الفكرة لأنه يعرف ما يجب فعله، على النقيض من مسعودي، ولحسن الحظّ كان هذا التدبير مناسباً فلو لم أفعل لكانوا تأخروا في الوصول عدة أيّام. إنّ الجمّالين، كما علمنا عنهم بالتجربة، هم مجموعة من أسوأ اللصوص، ويفتعلون المشاكل للكسب في أيّ فرصة تسنح لهم.

قمنا بوداع الحرم الشريف متفرقين تلك الليلة، فقد كنّا منهمكين في توضيب أغراضنا والتحضّيرات الأخيرة للرحيل. نقدنا جعفر الطاهي، وإبراهيم وبقية الخدم مالههم، وسررنا أن نعرف أنّهم وجدوا عملاً مع مجموعة من الحجاج عائدتين إلى

المدينة المنورة. كانت خدمة جعفر وإبراهيم جيدة جداً، ونكهة طعام جعفر تحثني على التجوال في بلاد فارس. وعوّضت عن النقص في مواردنا المالية ببيع بندقيتي ومختلف عدّة التخيم التي ما عدت بحاجة إليها.



انتظرنا مسعودي في صباح اليوم التالي ليحمل الجمال ويسير في طريقه، وبعد أن ودّعنا محمّد سعيد ووعده أن ننزل عنده في سفرنا القادم، بدأنا سفرنا. كانت حميرنا حيوانات جيدة، مجزوزة بطريقة خاصة متبعة في مكّة، وحاصلة على عناية كافية. استخدم البدوي المسؤول عنها حماراً أصغر حجماً، وكالعادة جعل من نفسه مصدر إزعاج كلما سنحت له الفرصة. كان عليّ أن أدفع جنيهاً واحداً لكلّ من الحمير، لكن بما أنّي كنت أمل أن أصل في يوم واحد، فقد كانت الحمير تستحقّ كلفتها.

أول المصاعب تعلّقت بتصاريح الحمير، وكانت نتيجة لخطة بارعة وضعها الفتى المسؤول عنها ليتزّ منارويّتين. لم أمانع في الدفع لتسيير الأمور، إنما كان عبد الواحد مستعداً للشهادة في سبيل أن لا يخدع لدفع «نحاسة» واحدة، مع أنّه لم يكن من الأبطال كما قد ظهر من أحداث هذه القصة. ثار الجدل فيما بيننا وأخيراً اشتكينّا للشيخ الذي أرسلنا للمدير الذي لم يكن موجوداً، وهكذا دواليك. أضعنا ساعة كاملة لحلّ هذه المسألة.

انطلقنا مرة أخرى، وسرنا في الشارع المستقيم الطويل المؤدي إلى المدينة، ومررنا بالحراس الذين تأكّدوا من سلامة أوراقنا، وألفينا أنفسنا على الطريق العام الذي يقودنا إلى أوطاننا.



استمتعت بالقسم الأول من الرحلة، فقد كان الصباح مبتدأً وعذباً، وحميرنا قوية وحاضرة، والسرعة مناسبة. بالإضافة إلى ذلك، كنت مستمتعاً بمعرفة أنا هذه الرحلة هي القسم الأخير من مغامرة كادت أن لا ترى النجاح، ففي المستقبل القريب راحة

وأمان، بينما كانت الأخطار والمعاناة وراءنا. عندما أتفكر في هذه التجربة، أرى نسبة كبيرة من نجاحها تعزى إلى مجرد حظ جيد، ولا أملك إلا أن أكون شاكرًا لنجاتي.

مع أننا انطلقنا باكراً، لم نكن أول مغادري مكة المكرمة. فقد غادر الكثير من الحجاج خلال الليل، بالإضافة إلى المحمل المصري الذي مررنا به قرب منطقة البحرية. قيل لنا إن المحمل سيغادر بحراً إلى ينبع ومن ثم إلى المدينة المنورة. في السنين العادية السابقة، اعتاد المحمل أن يسافر إلى القاهرة برّاً، مروراً بالمدينة المنورة قبل الحج، إنما غيّر طريقه هذه السنة بسبب القلاقل في البلد.

وصلنا ظهرًا إلى البحرية حيث استرحنا لمدة ساعة من الوقت وتناولنا طعام الغداء. وعندما انطلقنا ثانية وجدنا أننا سبقنا كل الجمال التي بدأت رحلتها قبلنا، وأصبحنا نساfer في طريق خالٍ. لحقنا بمجموعة من ثمانية تجار من جدّة مسافرين على الحمير مثلنا، وقرّرنا مرافقتهم حماية لنا من أي قطاع طرق. ومع أن الطريق محمّية الآن كالعادة، فهي لا زالت غير آمنة لمجموعات صغيرة من المسافرين، خصوصاً قبيل الغروب. سرنا بسرعة ستة أميال في الساعة بين السير العادي والخب، إلى ما قبيل غروب الشمس حين خرجنا من الهضاب وأصبح بالإمكان رؤية مآذن جدة عبر الأرض المنبسطة أمامنا.

كانت الرحلة تسير على ما يرام، وتوقعنا أن ندخل المدينة قبل الظلام. ويبدو أن حميرنا تدرك هدفها، فأسرعت الخطى. لكن خيبة الأمل كانت بالانتظار، فعند وصولنا إلى أحد الحصون، خرج جندي مسرعاً ورمى نفسه على الطريق فاتحاً ذراعيه، فأجبرنا على التوقف. أخبرنا أن الأوامر صدرت بعدم السماح لأي كان بالسفر تحت جنح الظلام، وكان لزاماً علينا التوقف حيث كنا، وتحت حماية معقل الحرس. بالطبع، علا صوت احتجاجنا إنما دون فائدة، والقائد الذي استجاب لندائنا قال إن أوامره صريحة. استعنا بالرشوة، إنما لم تجد فائدة، لأول مرة. وأخيراً، استجاب لاقتراحي أن يدعنا نمرّ بعد أن نوقّع على إقرار بمسؤوليتنا الخاصة في تحمل المخاطر، فكتبنا الإقرار بسرعة ووقعنا عليه، إنما قبل أن تنتهي منه، غيّر رأيه ومنعنا من التحرك تحت عقوبة التعرّض لإطلاق النار.

لم نمانع كثيراً في التأخر بهذه الطريقة، إنما كان الأمر مزعجاً جداً للمسافرين من أهل جدة الذين تنتظرهم منازل مريحة وموائد شهية على بعد ساعة واحدة. صوّت بعضنا لتجاوز الحاجز، فلم نكن مقتنعين أن الحرس سيطلقون النار علينا، وإن فعلوا فلن يصيبوا أحداً. إنما خسرنا أمام الغالبية، فكان علينا في النهاية أن نستفيد من الأمر وأن نعسكر في العراء حيث كنا. كان هناك كوخ تعيش فيه بدوية تباع القهوة للمسافرين، وبعض المؤن مثل البيض وبعض الخبز القديم. استفاد عبد الواحد من سرعة بديته باستغلال الجدل مع القائد ووضع يده على كل ما لدى البدوية من مؤن، لدرجة أن كلينا نجحنا في تحمل مسؤوليتنا. وقبل الخلود إلى النوم تحدثنا مع أحد الجنود الذي أخبرنا أن أحد الفتيان المسؤولين عن الحمير قد قُتل عند مغادرته جدة في الصباح على يد أحد قطاع الطرق غير بعيد من الثكنة. وأسلوب اللصوص المعتاد هو قنص المسافرين من مسافة تبعد مئتين أو ثلاثمئة ياردة، فإن أصيب يهرعون لاغتنام ما يملك، مغامرين بكشفهم وإطلاق النار عليهم من الجنود القريبين منهم في مجال الرماية. إن انشاء المزيد من الحصون على الطريق قد يكون تحسناً في هذا المجال، خصوصاً أن كانت حصوناً صغيرة ودون تبذير. والحصون المتواجدة حالياً متباعدة عن بعضها البعض، ولذا فهي لا تخدم هدفها جيداً. وتوصيف هذا الجندي للحياة التي يعيشونها في الفلاء يذكرني بالأمور في جنوب إفريقيا.



بعد أن أمضينا ليلة باردة وغير مريحة انطلقنا في الصباح عند أول خيط من ضوء الفجر، ودخلنا جدة قبل شروق الشمس. توجهنا أولاً إلى مكان إقامتنا السابق، ووجدنا أن صاحب المنزل قد توجه إلى مكة المكرمة، وترك لنا رسالة مفادها أن غرفنا تنتظرنا إن أردناها. وضعنا أغراضنا في أنظف مكان وجدناه حيث أن المالك قد غادر في الليلة السابقة ولم تُنظف الغرف ولم يُزل غبارها. إن الغبار يتراكم بسرعة في جدة، كما غيره من الأمور حسب ما تعلمت لاحقاً. إن عدم ارتياحي لهذا حملني على تفقد قدمي لأجد مقداراً كبيراً من البراغيث يغزوني. هرعت لمعالجة نفسي وتوجهت إلى أقرب صيدلية وابتعت

كمية كبيرة من الدواء المستعمل محلياً ضد البراغيث. إنما لم تسعفني أدوية العلم كلها من التعرّض الشديد لقرصها. انضمّ إلي عبد الواحد بعد أن استعاد أمتعتنا من المكان، وتناولنا طعام الإفطار مع أحد الأصدقاء القدامى وهو التاجر المسيحي، ثم بحثنا عن مكان جديد للإقامة. وأخيراً وجدنا غرفة مناسبة يبدو أنها نظيفة، مع أننا اضطررنا إلى أن ندفع ثمناً باهظاً لها. علمت أن ما بقي من النقود لن يكفي لدفع ثمن إيابنا إلى أوطاننا، وبما أن علي أن أجد مصدراً مالياً، فلم أعد أفكر بأية مصاريف أخرى.

أدركنا كم أن الأمر سيكون صعباً عندما بدأنا بتأمين أمور السفر. كنّا قد سمعنا إشاعة في مكّة لا تصدق، تقول الإشاعة إنه لا يسمّح لأيّ حجاج بدخول مصر إلا الحجاج المصريين ومن يحمل جواز سفر مصرياً إلى ما بعد وصول المحمل المصري، وسيكون ذلك بعد حوالي شهرين. صعقنا عندما علمنا أن تلك الإشاعة كانت خبراً صحيحاً. فقد رفض وكلاء السفن أن يصدروا لنا تذاكر لاي ميناء مصري، ومن باب اللياقة، حذرونا من حماقة شراء التذاكر ومحاولة التوجه إلى أي ميناء مصري حيث أننا سئمنا من النزول وسنعود أدراجنا.

استشرنا عسكرياً تركياً كبيراً في السن كان يجلس في أحد المقاهي، قائلين إن لدينا أعمالاً ملحة في مصر، وسائلين نصيحته لكيفية دخول البلد. أسرّ لنا بطريقتين لا يعرف لهما ثالثة، أولاً شراء جوازات سفر من بعض المصريين الفقراء ممّا كان عملاً سهلاً، والسفر متنكرين كمصريين، إنما هزّ رأسه مظهراً ضعف احتمال خداع السلطات المصرية في الميناء، حيث أن كلينا لا تبدو عليه الملامح المصرية. والطريقة الثانية هي السفر إلى بيروت وتغيير جوازات سفرنا بأخرى لا تحمل ختم دخول مكّة، ومن ثم التوجه إلى بور سعيد. وقال إن السلطات ستتغاضى عن ذلك حيث أن الموظفين لا يوافقون على هذا القرار. إن الاعتراض هو وجوب تواجدها في الحجز الطبي لمدة عشرة أيام في جدّة، وأربعة أيام في بيروت وأربعة أخرى في بور سعيد، ممّا كان مروّعاً، أن هذا الحجز سيضيق علي رحلة القنص التي خطّطت لها مع أخي في السودان.

* * *

لم يصل مسعودي في موعده ممّا أقلقني. بالإضافة إلى انزعاجنا من عدم وجود أمتعتنا معنا، حيث كنّا بغاية الحاجة إلى الاستحمام وملابس نظيفة. أمضينا وقتنا ندخّن في المقاهي وفي وضع خطة لدخول مصر. وصلنا إلى نتيجة مفادها أن نتوجّه إلى عدن، ونسافر على إحدى السفن من موانئها. إنما الاعتراض على هذه الخطة كان الحجر الصحي والمصاريف المطلوبة. ثم فكرت بالتوجه مباشرة إلى «سواكن» إنما لم يكن هناك أي قارب متوجه إليها تلك الليلة، ولا بد أن ننتظر عشرة أيّام في الحجر الطبي هناك، بالإضافة إلى أن مجموعة الحجاج السودانيين، ومعظمهم من السود، لم يكونوا أفضل رفقاء الطريق. ولو كان لدي المال الكافي، لكنت استأجرت قارباً خاصاً وأبحرت هناك، ملفقاً رواية أتلوها على السلطات عند الوصول.

وصل مسعودي بعد ظهر اليوم الثاني. إن مكائد الجمالين التي بدأت منذ أن أدرنا ظهورنا، كانت السبب في ساعات طويلة من التأخير. لقد طالبوا بقبض كل الأجرة قبل مغادرتهم مكّة، وأنزلوا الأمتعة من على ظهور الجمال تأكيداً لمطالبهم. كان مسعودي مستعداً أن يلقّنهم بعض اللياقة بسيفه، إنما العربي الذي استخدمناه أظهر حسن تقدير، فرفض استئجار جمالهم وساعد بنفسه في إنزال الأمتعة عن ظهورها، وتوجّه إلى المدير الذي ألّقى القبض على المخلّين بالاتفاق، وأجبرهم على إعادة المال المدفوع وإصدار عقوبة بحقهم كتذكّرة مستقبلية.

كان من الضروري إيجاد بديل لهؤلاء الجمالين وعقد اتفاق جديد، ممّا استغرق وقتاً. وعلى كل حال، كنت مسروراً بأن أراه يعود سالماً والتذمّر من التأخير كان ليجوز لو كان الخطأ خطأه.



وهكذا، وصلت قصة رحلتنا هذه إلى نهايتها، حيث أنّا انفصلنا كلّ في طريقه في جدّة. توجّه مسعودي وكبيي إلى موباسا، وعبد الواحد إلى بلاد فارس، وأنا إلى مصر. وقد تخطّينا مسألة الحجر الصحي بنجاح، ولا يعود الشكر إلى نباهتي، إنما إلى لطف أحد الإنكليز.

قد يبدو للقارئ الكريم، الذي شرّفني بمتابعة الرحلة إلى الآن، أنّ سكان المدن المقدّسة وغيرها والذين قابلناهم خلال رحلتنا في أربعة أشهر لم يكونوا ذوي دقّة ملاحظة، أو أنّني كنت خبيراً في فنّ التنكّر. لم يكن الأمر كذلك في الحالتين كليهما، إنّ نجاحي في فرض هذا الأمر على من قابلته يعود إلى جهلهم بالعالم الخارجي وعدم اهتمامهم به، حتى الاهتمام بالبلاد التي تدين بالإسلام. وهناك فرق كثيرة في الإسلام وينتشر المسلمون في بلاد مختلفة، لدرجة أنه إذا اخترع أحدهم موطناً له ولغة جديدة، وتوجّه إلى مكّة المكرمة، لن يعرف أحد معلومات كافية في الجغرافيا ليكشف أمره.

إنما لنصفهم القول، لدى القوم سرعة بديهة في التصرف في الأمور، فإنّ خطر لأحد المطوّفين أن يدوّن كتاباً في الأنثروپولوجيا وعلاقتها بالإسلام الحالي، وتوصيف مختلف الأعراق التي تحجّ إلى مكّة، فإنّ الخداع الذي مارسه سيكون مستحيلاً. إنما لا يوجد مثل هذه الكتب، والإصدارات الممتازة من مطابع بيروت غير رائجة لدى المسلمين العرب الذين يظهرون عدم اهتمام وحتى ازدراء للعلم من أي نوع ما عدا اللغات. إنّ نظرهم إلى المثقف هو من يعرف لغات عدّة. ولم يكن هذا مقصد الرّسول حين قال: «اطلبوا العلم ولو في الصين».

إن المقصود بهذا مجرّد التعميم الإجمالي لا أكثر، وكذلك التوصيف السّلبّي الذي بدر عني في مجالات أخرى. ولا ريب أن هناك استثناءات عديدة، فترى مثقفين ونشطاء عديدين في مكّة، وكذلك من يعيش حياة معتدلة وفاضلة.

وكما ذكرت سابقاً، فقد أثّرنا بعض الشكوك هنا وهناك، أولها عند الخادّمين، مع أنّهما من بلاد فارس ولا يفقهان العربية إنما لا بدّ أن يكونا قد شكّا في أمر ما. ولو تبلورت هذه الشكوك إلى حقيقة لسرعان ما عرفنا بها عن طريق المطالبة بمال للسكوت عنها. ولا بدّ من التذكّرة أنّ الشّاء العظيم يوجّه إلى من يكتشف كافراً ويبلغ عنه.

وما أنصح به لمن يودّ التوجه إلى مكّة المكرمة أن يفعل ذلك خلال موسم الحجّ، حيث يكون من السهل التوجّه إلى هناك من ناحية، وأكثر إثارة للاهتمام من ناحية

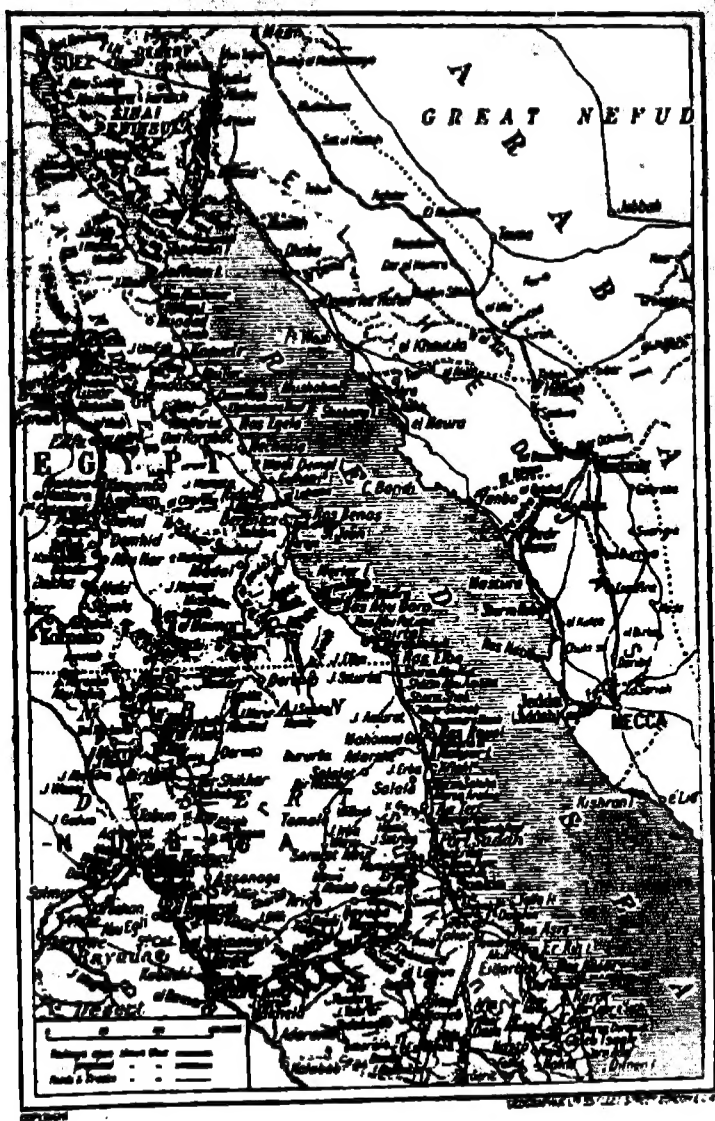
أخرى. لقد أتقنتُ اللغة وتقليد الزيِّ وغيرهما، ولا أعتقد أنني أستطيع الزيادة على ذلك. على أي حال، أنصح المسافرين أن يدخل البلاد متنكراً لا أن ينتظر أن يغيّر زيّه بعد وصوله الميناء. إنّ الإهمال في هذا التدبير الوقائي قد قاد الكثير ممن يرغب بالتواجد في وقت الحد أن يُكتشف أمره في جدّة ويُعاد أدراجه مهاناً. بينما على المسافر في مكّة أن يكون حريصاً في تجنّب مجموعات الحجّاج الآتية من البلد التي سُمّي نفسه منها، وعليه ألا يسمح للمطوّف أن يطأ منزله لأي سبب من الأسباب، ومن الأفضل ألا يستخدم نفس المطوّف مرتين. فكلّما قلّ احتكاك المطوّف بالمسافر كان أفضل، حيث أنّهم شديداً الذكاء.

عند اتّباع التدابير الوقائية تلك، مع معرفة مقبولة باللغة العربية والشعائر الإسلامية والحذر المناسب، تكون رحلة الحجّ إلى مكّة تحت التنكّر آمنة وخالية من المجازفات.

إنّ المدينة المنورة هي أكثر المدينتين خطراً، والمسافر غير المتمكّن من العادات الشرقية عليه ألا يغامر بوجوده فيها. هذا وإنني مقتنع، محللاً ما سمعته، بأنّ نجاتنا تعزى إلى حُسن الطالع وليس إلى براعتي في التدبير.

وأخيراً، نظرة القانون إلى هذا الموضوع. فإنّ الحكومة العثمانية تحتفظ لنفسها بحق رفض الوافدين الأجانب إلى الحجاز، وإخراجهم بالقوة إن تواجدوا، بينما تتنكّر لمسؤولية ما قد يحصل بسبب وجودهم. موقف الحكومة هذا مقبول عملياً من قبل بقية القوى في المنطقة، مع أنّ ممثليهم غير مسؤولين عن كشف أيّ شخص يقوم بهذه الرحلة متخفياً إن عرفوا به. ليس ثمة خرق للقانون في التوجّه إلى تلك الأماكن، إنما هو خرق للأعراف والتقاليد. إنما بالطبع تتضمّن الفكرة مخالفة «رغبات ونصائح» السلطات، ممّا يُعدّ جريمة كبرى في بعض الأوساط.

* * *



خريطة الحجاز وساحله على البحر الأحمر

فهرس

5	سلسلة رواد المشرق العربي
7	هذا الكتاب: الحاج علي الزنجباري ورحلته إلى الحجاز عام 1908 م
15	الميجور آرثر جون بينغ وافل من فرقة عرب وافل
21	من مقدمة الكاتب إلى الانطباع الأول
23	رحلة حديثة إلى مكة مقدمة

الجزء الأول

49	الفصل الأول: من لندن إلى بيروت
61	الفصل الثاني: دمشق
77	الفصل الثالث: الخطّ الحديدي الحجازي
95	الفصل الرابع: المدينة المنورة
123	الفصل الخامس: من المدينة المنورة إلى ينبع
139	الفصل السادس: جدّة
147	الفصل السابع: من جدّة إلى مكّة المكرّمة
157	الفصل الثامن: مكّة المكرّمة
177	الفصل التاسع: رحلة الحجّ

رحلة الحاج المعاصر إلى مكة

عام 1908م

أرثر جون واقل، هذا الرحالة البريطاني الطريف الخفيف الظل عاش فترة من عمره في مدينة مومباسا بكنيا قريبا من زنجبار على ساحل أفريقيا الشرقية، قام برحلة عام 1908 إلى مكة المكرمة وارتدى ملابس المسلمين وتكنى باسم (الحاج علي الزنجباري) فروى لنا وقائع مسلية حول رحلته ضمن قالب ممتع من المغامرات والمواقف الطريفة، مع وصف حي ودقيق لجميع المناطق التي زارها. والجدير بالذكر أنه التزم جانب الحياد والاحترام والموضوعية فيما كتبه.

وكان آخر رحلة أوروبي يزور المدن المكرمة قبيل زوال الحكم العثماني عنها، لكنه سرعان ما لقي حتفه في أفريقيا بعد ثماني سنوات من رحلته، خلال القتال مع القوات الألمانية في الحرب العالمية الأولى. كتاب فريد نادر جدير بالقراءة.

السعر 60 درهماً



أبوظبي للثقافة و التراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE